عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم

رسالة دكتوراه

إعداد

د. عبدالرحمن بن محمد البرادعي

قسم الدراسات القرآنية في جامعة أم القرى ـ كلية المعلمين سابقاً

المجلد الأول

دار طيبة الخضراء
مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة دكتوراه

عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم

إعداد
د. عبد الرحمن بن محمد البراديعي
قسم الدراسات القرآنية في جامعة أم القرى
كلية المعلمين (سابقاً)

المجلد الأول

دار طيبة الخضراء
مكة المكرمة

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

الطَّبعَة الثَّانِيَة

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

دار طيبة الخضراء

مَكَّة المُكرَّمة - المَمْلَكة العَرَبيَّة السَّعوديَة

هاتف: ٥٥٨٩٠٢٧ - فاكس: ٥٥٨٩٧٨٠ - ص.ب: ٦٩٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمد الله تبارك وتعالى حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ثم الصلاة والسلام على النبي المجتبى، والرسول المصطفى، وعلى آله وصحبه، وبعد:

بتوفيق الله تعالى وفضله كان هذا البحث: (**عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم**)، والذي يتعلق موضوعه بمحور الحياة وغاية الوجود: عبادة الله سبحانه، ويتناول القاعدة المؤثرة في حركة العبد صلاحًا أو فسادًا، والمتمثلة في القلب الذي يشكل المركز الرئيس في قضية العبودية، والدائرة الأهم والأخطر ضمن دوائرها.

خطة البحث:

تشتمل خطة البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

وفيما يلي بيان ذلك على سبيل الإجمال:

المقدمة: وهي ما يعرض الآن بين يدي القارىء الكريم متضمنة خطة البحث، ومنهجه.

التمهيد: ويتضمن بيان المراد بالعبودية في اللغة والشرع.

الباب الأول: العبودية.

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: معالم في مقام العبودية لله تعالى.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العبودية غاية الحياة.

المبحث الثاني: العبودية منهج الرسل عليهم السلام.

المبحث الثالث: شرف مقام العبودية.

الفصل الثاني: أقسام العبودية.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أقسام العبودية باعتبار الكائنات.

المبحث الثاني: أقسام العبودية باعتبارالعموم والخصوص.

المبحث الثالث: أقسام العبودية باعتبار أعضاء الإنسان.

الفصل الثالث: ضوابط العبودية.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: توحيد الله تعالى والإيمان به.

المبحث الثاني: إخلاص النية.

المبحث الثالث: التزام الشرع.

الباب الثاني: عبودية القلب.

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: التعريف بالقلب وأهميته.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالقلب.

المبحث الثاني: لفظ القلب في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: أهمية القلب ومكانته.

الفصل الثاني: أركان عبودية القلب وتفاوت الناس فيها.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عبودية القلب بين الإيجاب والسلب.

المبحث الثاني: أركان عبودية القلب.

المبحث الثالث: منازل الناس في عبودية القلب.

الفصل الثالث: لوازم عبودية القلب وثمراتها والمؤثرات فيها.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: لوازم عبودية القلب ومقتضياتها.

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في حياة القلب.

المبحث الثالث: ثمرات عبودية القلب.

الباب الثالث: أنواع القلوب وأوصافها في القرآن الكريم.

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: القلوب الصحيحة.

ويشتمل على سبعة مباحث:

المبحث الأول: القلوب السليمة.

المبحث الثانـي: القلوب المطمئنة.

المبحث الثالـث: القلوب الوجلـة.

المبحث الرابـع: القلوب المخبتـة.

المبحث الخامـس: القلوب المنيبـة.

المبحث السـادس: القلوب اللينـة.

المبحث السابـع: القلوب المربوط عليها.

الفصل الثاني: القلوب الميتة.

ويشتمل على ثلاثة عشر مبحثا:

المبحث الأول: القلوب اللاهية.

المبحث الثانـي: القلوب القاسية.

المبحث الثالـث: القلوب المتكبرة.

المبحث الرابـع: القلوب المشمئزة.

المبحث الخامـس: القلوب المرتابة.

المبحث السـادس: القلوب المنكرة.

المبحث السابـع: القلوب الزائغة.

المبحث الثامـن: القلوب الغافلة.

المبحث التاسـع: القلوب العمي.

المبحث العاشـر: القلوب المكنونة.

المبحث الحادي عشر: القلوب المطبوع عليها.

المبحث الثاني عشر: القلوب المختوم عليها.

المبحث الثالث عشر: القلوب المقفلة.

الفصل الثالث: القلوب المريضة.

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: المراد بمرض القلب.

المبحث الثاني: وصف القلب بالمرض في القرآن الكريم.

الخاتمة: وتتضمن ملخصًا لأهم نتائج البحث.

منهج البحث:

يمكن إيجاز منهج البحث في الآتي:

١. دراسة كل جزء من أجزاء البحث دراسة موضوعية، وذلك بجمع الآيات الكريمة المتصلة به، وتحليلها، وترتيب عناصرها، بهدف تفصيل القضية المراد بيانها، وتحديد معالمها.

٢. الرجوع في تفسير الآيات إلى عدد من أمهات كتب التفسير، والاعتماد ـ غالبا ـ على الجمع بين منهج التفسير بالمأثور: تفسيراً للقرآن بالقرآن أو بالسنة أو بأقوال الصحابة والتابعين، ومنهج التفسير بالرأي: من خلال جمع أقوال المفسرين في المسألة الواحدة، والاستفادة من ذلك في التحليل الموضوعي لأجزاء البحث.

٣. يرتبط البحث أساسًا بالقرآن الكريم، لكن لما كانت السنة مبيّنة للقرآن، كانت الحاجة داعية في بعض الاحيان إلى الرجوع لما يتصل بالمسألة المراد بحثها من الحديث الشريف، وذلك على سبيل الاستشهاد، زيادة في التقرير والتأكيد، أو البيان والتوضيح، وكان المرجع في ذلك مجموعة من المصادر الحديثية التي تيسّر الاطلاع عليها.

٤. عزو النصوص إلى مصادرها على النحو التالي:

- كتابة الآيات برسمها القرآني، وتسجيل اسم السورة ورقم الآية بعدها مباشرة.

- عزو الحديث النبوي إلى من خرّجه من المحدثين، ممن تيسّر الرجوع إلى كتبهم، فإن كان في الكتب الستة يُذكر اسم الكتاب والباب، ثم رقم الجزء والصفحة، وإن كان في غيرها فالاكتفاء بذكر رقم الجزء والصفحة، إلا أن النص إذا كان في الصحيحين أو أحدهما يُكتفى بالعزو إليه، ويكون اللفظ في العادة لأول مصدر يُذكر في الهامش.

- نقل حكم بعض علماء الحديث على الرواية في غير الصحيحين، كالترمذي والمنذري والهيثمي وابن حجر والحاكم مع موافقة الذهبي وغيرهم، وكالألباني من المعاصرين.

- إذا كان النص من مراجع أخرى يُذكر المصدر في الهامش: اسم الكتاب، ثم رقم الجزء والصفحة، مع الإشارة إلى الاختصار أو التصرف إن حصل شيء من ذلك.

٥. محاولة الجمع في أسلوب الكتابة بين المنهج العلمي المعتمد على التوثيق، والمنهج الإنشائي المبني على الصياغة التعبيرية المخاطبة للوجدان، الباعثة على التأمل.

٦. بيان معاني بعض الألفاظ التي قد تحتاج إلى كشف وإيضاح.

٧. وضع ترجمة موجزة للتعريف بالأعلام الوارد ذكرهم أثناء البحث.

وأختم هذه المقدمة بتسجيل شكري وتقديري لفضيلة الشيخ المشرف، البروفيسور عمر يوسف حمزة، وأسأل الله جل وعلا أن يبارك في عمره، ويحفظه ويرعاه، ويجمع له بين خير الدنيا ونعيم الآخرة.

كما أدعو بخير الجزاء وأحسنه لكل من تتلمذت على يديه من أساتذتي ومشايخي، أكرم الله مثوبتهم وأجزل لهم العطاء.

وأدعوه سبحانه أن يهبني تسديدًا، وقبولاً، ورحمةً من عنده سبحانه.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله، نبينا وحبيبنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اقتفى أثره واهتدى بهداه.

التمهيد

(ويتضمن بيان المراد بالعبودية في اللغة والشرع)

لفظ العبودية في اللغة يتضمن معنى الذل والخضوع.

قال أهل اللغة: التعبد: التذلل، والتعبيد: التذليل، والبعير المعبّد: الذّلول، وطريق معبّد: أي مذلّل بكثرة الوطء والاستعمال.

وعبد الله يعبده عبادة: تأله له، والاسم العبودة والعبودية.

يقال فلان عبد بيّن العبودة والعبودية.

والعبادة: الطاعة مع الخضوع، وكل من دان لملك فهو عابد له[1].

قال صاحب القاموس: (العبدية والعبودية والعبودة والعبادة: الطاعة)[2].

ولا يبتعد معنى العبودية بمفهومها الشرعي عن هذا المعنى اللغوي، غير أنه يتميز باجتماع ثلاثة معالم، تحدّد باقترانها وتلازمها حقيقة العبودية في دين الله جل وعلا.

---

(١) انظر: الصحاح (تاج اللغة و صحاح العربية) للجوهري، ط٤، دار العلم: (٢/ ٥٠٣)، مقاييس اللغة لابن فارس، ط١، دار إحياء التراث ص: (٧٠١/ ٧٠٢)، لسان العرب لابن منظور، طبعة دار المعارف: (٤/ ٢٧٧٦ -٢٧٧٩)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز ابادي، طبعة المكتبة العلمية: (٤/ ٩).

(٢) ترتيب القاموس المحيط للفيروز ابادي، والترتيب للطاهر الزاوي: ط٣، دار الفكر: (٣/ ١٣٥).

أولها: أن هذا التذلل والخضوع مختص بالله تعالى وحده، كما قررته وآذنت به آية الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال ابن جرير[١] في تفسير: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (لك اللهم نخشع ونذل ونستكين، إقراراً لك ياربنا بالربوبية لا لغيرك)[٢] ثم بين ارتباط هذا التفسير بأصل معنى العبودية عند العرب، وهو التذلل.

وقال البغوي:[٣] (أي نوحدك ونطيعك خاضعين).[٤]

وثانيها: أن هذه العبودية مبناها على غاية الذل ونهاية الخضوع، ولا تكتمل إلا ببلوغ أقصى درجات التذلل والانطراح بين يدي الله جل شأنه،

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري، الإمام العلم المجتهد، كان رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه، علامة في التاريخ، عارفاً بالقراءات واللغة، توفي ببغداد سنة عشر وثلاث مئة، من مصنفاته: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وتهذيب الآثار. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، طبعة بيت الأفكار الدولية (٣/ ٣٣٦٦ - ٣٣٧٠)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، طبعة مكتبة القدسي: (٢/ ٢٦٠).

(٢) تفسير الطبري: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ط٢، مكتبة مصطفى البابي الحلبي: (١/ ٦٩).

(٣) هو الحسين بن مسعود بن محمد، أبو محمد الفراء البغوي، شيخ الإسلام، محي السنة، الشافعي الفقيه، المفسر المحدث، نسبته إلى بغا من قرى خراسان، من مصنفاته: معالم التنزيل في التفسير، ومصابيح السنة، توفي بمرو سنة ست عشرة وخمس مئة. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ١٥١٤ - ١٥١٥)، الأعلام لخير الدين الزركلي، طبعة دار العلم: (٢/ ٢٥٩).

(٤) تفسير البغوي (معالم التنزيل)، ط٢، دار المعرفة: (١/ ٤١)، وانظر مدارج السالكين في شرح منازل السائرين لابن القيم، ط١، المكتبة العصرية: (١/ ٦٧ - ٦٨).

باعثه تعظيم القلب للرب سبحانه، وتألهه للإله المعبود جل وعلا.

وبهذا شرح عدد من المفسرين لفظ العبادة في سورة الفاتحة:

يقول الزمخشري[١] وغيره: (العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل)[٢].

وقال الألوسي[٣]: (العبادة أعلى مراتب الخضوع)[٤].

فالعبودية لله تعالى تعني الانقياد لأمره، والإذعان لشرعه، والاستسلام لإرادته وحكمه ﷻ، إذ حقيقة العبادة امتثال الأمر والنهي[٥].

وثالثها: أن المعنى الشرعي للعبادة يقرن بين غاية التذلل وغاية المحبة

(١) هو محمود بن عمر بن محمد، أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي، جار الله، برع في النحو والبلاغة وسائر علوم العربية، وكان معتزلي الاعتقاد متظاهراً به، من مصنفاته الكشاف في التفسير، وأساس البلاغة، والفائق في غريب الحديث، توفي سنة ثمان وثلاثين وخمس مئة. انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، طبعة دار الثقافة: (٥/ ١٦٨ - ١٧٤)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٨٠٠).

(٢) تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، طبعة دار إحياء التراث: (١/ ٥٦)، وانظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ط١، دار المعرفة: (ص: ٣٢٢)، تفسير البيضاوي: (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): ط١، دار الكتب العلمية: (١/ ٩)، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، طبعة دار الكتاب العربي: (١/ ٥).

(٣) هو محمد بن عبد الله الحسيني الألوسي، شهاب الدين، مفسر محدث أديب، ولد ببغداد، وتوفي بها سنة سبعين ومئتين وألف، ونسبة أسرته إلى جزيرة آلوس في وسط نهر الفرات، من مصنفاته روح المعاني في التفسير. انظر: الأعلام: (٧/ ١٧٦-١٧٧)، التفسير والمفسرون لمحمد الذهبي: ط٢، دار الكتب الحديثة: (١/ ٣٥٢-٣٥٤).

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. طبعة دار الفكر: (١/ ٨٦).

(٥) انظر مدارج السالكين: (١/ ٨٣ - ٨٤).

لله تبارك وتعالى، وبذلك يجتمع شمل العبودية له جل شأنه خوفاً ورجاءً وحبّاً[١].

ومن ثمّ فإن عبادة الله جل وعلا تتضمن أمرين، لابد من انضمام أحدهما للآخر ليتحقق معناها، هما غاية التذلل وغاية المحبة، ثم يتمثلان في حركة العبد كمالاً في الطاعة والاستجابة، ولذا سمي ما يقوم به المكلفون من الطاعات عبادة لأنهم يفعلونها على وجه التذلل والمحبة لربهم سبحانه[٢].

يقول ابن تيمية[٣]: (لفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب)[٤].

ويقول: (من خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن له عابداً، كما قد يحب ولده وصديقه، ولهذا لا

(١) انظر العبادة في الإسلام للقرضاوي، ط٢، مؤسسة الرسالة: (ص: ٣٢ - ٣٣).

(٢) انظر: مدارج السالكين: (١/ ٦٦، ٣/ ٢٦، ٤٣)، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبد الله، ط٦، المكتب الإسلامي: (ص٤٦، ٤٧)، أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة لحافظ الحكمي، طبعة مكتبة الأقصى: (ص ١٨).

(٣) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، الحرّاني ثم الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية، شيخ الإسلام، مشهود له بالبراعة في التفسير والأصول، وسعة العلم في المنقول والمعقول، أوذي وسجن، وتوفي في معتقله سنة ثمان وعشرين وسبع مئة، من مصنفاته: منهاج السنة، والإيمان. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني، ط٢، مطبعة المدني: (١/ ١٥٤- ١٦٩)، الأعلام: (١/ ١٤٤).

(٤) العبودية لابن تيمية: ط٤، دار المغني: (ص٨٨) وانظر: (ص٢٢) الوابل الصيب لابن القيم، ط٣، مكتبة الرشد: (ص: ٣٧-٣٨)، روضة المحبين لابن القيم، ط١، مكتبة الرشد: (ص:٤١).

يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله)[١].

و نظم ذلك ابن القيم فقال:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان[٢]

وقد ورد في حدّ العبودية عبارات منها:

(معانقة ما أمرت به ومفارقة ما زجرت عنه)[٣].

(فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيمًا لربه)[٤].

(عبارة عما يجمع كمال المحبة والخوف والتعظيم)[٥].

وهذه العبارات متقاربة في الدلالة على المراد، غير أن لابن تيمية تعريفًا يمتاز بزيادة بيان وشمول.

(١) العبودية: (ص: ٢٣)، وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية، طبعة دار المعارف: (١٠/ ١٩، ١٥/ ١٦٢).

(٢) القصيدة النونية، ط١، دار الكتب العلمية: (١/ ٩٩).

(٣) الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري، طبعة المكتبة التوفيقية: (ص: ٢٩٠)، وانظر حدائق الحقائق لشمس الدين الرازي: ط١، دار الكتب العلمية: (ص: ٨٠).

(٤) التعريفات للجرجاني، ط٢، دار الكتاب العربي: (ص: ١٨٩).

(٥) تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، طبعة دار المعرفة: (١/ ٢٥).

يقول ابن تيمية: (العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة).[1]

ثم عرض عددًا من الأمثلة على أعمال القلب الباطنة، وأفعال الجوارح الظاهرة.

وهو بذلك يجمع كل مراتب الدين (الإسلام، الإيمان، الإحسان) ضمن دائرة العبادة.[2]

وقد نظم صاحب سلم الوصول هذا التعريف فقال:

ثم العبادة هي اسم جامع ... لكل ما يرضي الإله السامع[3]

ولما كانت طاعات المكلفين إما باطنة في القلب أو ظاهرة على الجوارح، وكل منهما إما قول أو عمل، كان التعريف شاملاً لهذه الأقسام.

يقول ابن القيم[4] (بني "إياك نعبد" على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

(١) العبودية: (ص: ١٧).

(٢) انظر العبودية: (ص٢١- ٢٢).

(٣) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول "في التوحيد" لحافظ الحكمي، طبعة دار ابن الهيثم: (١/ ٤٢٣ - ٤٢٤).

(٤) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب، أبو عبد الله الزرعي الدمشقي، شمس الدين، المعروف بابن قيم الجوزية، تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، واسع العلم، حسن الخلق، عارف بمذاهب السلف، توفي بدمشق سنة إحدى وخمسين وسبع مئة، من مصنفاته: مفتاح دار السعادة، زاد المعاد. انظر: الدرر الكامنة: (٤/ ٢١- ٢٣)، الأعلام: (٦/ ٥٦).

فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب (إياك نعبد) حقاً هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر والرضى، والموالاة والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة وإقرار بها)[1].

(١) مدارج السالكين: (١/ ٨٥)، (مع اختصار يسير).

الباب الأول:

العبودية

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: معالم في مقام العبودية لله تعالى.

الفصل الثاني: أقسام العبودية.

الفصل الثالث:ضوابط العبودية.

الفصل الأول:

معالم في مقام العبودية لله تعالى

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العبودية غاية الحياة.

المبحث الثاني: العبودية منهج الرسل عليهم السلام.

المبحث الثالث: شرف مقام العبودية.

المبحث الأول
العبودية غاية الحياة

أوضح الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم أنه جل وعلا لم يخلق الناس عبثًا بلا غاية، ولم يوجدهم هملًا بلا حكمة، ولم يتركهم كالأنعام بلا جزاء أو محاسبة، فقال ﷻ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾. [المؤمنون: ١١٥].

قال ابن عطية[١]: (عبثا) معناه: باطلا لغير غاية مرادة).[٢]

وقال القرطبي[٣]: (أي مهملين كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب عليها).[٤]

ولذلك قال الله تعالى في الآية التالية لهذه الآية: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾. [المؤمنون:١١٦].

---

(١) هو عبدالحق بن غالب بن عطية، أبو محمد الغرناطي الأندلسي القاضي، إمام في التفسير والحديث والفقه، علامة في اللغة والأدب، من مصنفاته: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، توفي سنة اثنتين وأربعين وخمس مائة. انظر سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢١٤٨)، طبقات المفسرين للسيوطي: (ص: ٦٠ -٦١).

(٢) تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، ط١، دار الكتب العلمية: (٤/ ٥٩) قال الراغب: (يقال لما ليس له غرض صحيح: عبث)، المفردات: (ص: ٣٢٣)، وانظر تفسير البغوي: (١٣/ ٢٣٠).

(٣) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر، أبو عبد الله الأنصاري القرطبي المالكي، إمام مفسر، من أوعية العلم، من مصنفاته: الجامع لأحكام القرآن، التذكرة بأمور الآخرة، توفي سنة إحدى وسبعين وست مائة. انظر شذرات الذهب: (٥/ ٣٣٥)، طبقات المفسرين للسيوطي: (ص: ٩٢).

(٤) تفسير القرطبي: (الجامع لأحكام القرآن) ط١، دار الكتب العلمية: (١٢/ ١٠٤).

قال ابن كثير[1]: (أي تقدس أن يخلق شيئا عبثا فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك).[2]

هذا المعنى ورد أيضًا في قول الله ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

قال النسفي[3]: (مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يبعث ولا يجازى).[1]

بل لله تعالى في الخلق حكمة قصدها، وغاية أرادها، صرحت بها الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. [الذاريات: ٥٦].

وقد أورد المفسرون في المعنى المراد أقوالاً أبرزها مايلي:

القول الأول:

أن الآية محمولة على المؤمنين، فلفظ الآية عام لكن معناها خاص بأهل

---

(١) هو إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء، عماد الدين البصري ثم الدمشقي، إمام حافظ، مؤرخ محدث، وفقيه مفسر، أخذ عن ابن تيمية فأكثر عنه، من مصنفاته: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية، توفي سنة أربع وسبعين وسبع مائة. انظر الدرر الكامنة: (١/ ٣٩٩ - ٤٠٠)، شذرات الذهب: (٦ / ٢٣١ - ٢٣٢).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٥٩).

(٣) هو عبد الله بن أحمد بن محمود، أبو البركات النسفي، فقيه مفسر، نسبته إلى نسف ببلاد السند بين جيحون وسمرقند، من مصنفاته: مدارك التنزيل في التفسير، والمنار في أصول الفقه، توفي سنة عشر وسبع مائة. انظر: الدرر الكامنة: (٢/ ٣٥٢)، الأعلام: (٤/ ٦٧-٦٨).

(٤) تفسير النسفي: (٣/ ٦٢٥)، وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، طبعة دار الكتب العلمية: (ص: ٥٠١)، تفسير الطبري: (٢٩/ ٢٠٠-٢٠١).

الإيمان والطاعة: أي وما خلقت السعداء إلا لعبادتي.

وهو قول جماعة منهم سعيد بن المسيب[1]، وزيد بن أسلم[2]، وسفيان[3]، والضحاك[4]، والفراء[5]، وابن قتيبة[6] [7].

---

(١) هو سعيد بن المسيب ـ بفتح الياء وقد يكسر ـ بن حزن ـ بسكون الزاي ـ بن أبي وهب، أبو محمد القرشي المخزومي، من الفقهاء الثقات، والأخيار الفضلاء، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه، توفي بالمدينة سنة أربع وتسعين. انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي، ط٣، دار المعرفة: (٢/ ٧٩-٨٢)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٨٢٢).

(٢) هو زيد بن أسلم، أبوعبد الله العدوي المدني، من علماء التابعين، فقيه عابد، وحجة قدوة، كانت له حلقة للعلم في مسجد رسول الله ﷺ، وله تفسير رواه عنه ابنه عبد الرحمن. توفي سنة ست وثلاثين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٧٣٧)، شذرات الذهب: (١/ ١٩٤).

(٣) هو سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله الثوري الكوفي، إمام حافظ، شيخ الإسلام، فقيه محدث، ورع عابد زاهد، معدود في صغار التابعين، سيد العلماء في زمانه، توفي سنة إحدى وستين ومائة. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ٣١٢ - ٣١٣)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٨٣٦ - ١٨٥١).

(٤) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، مفسر مشهور، من أوعية العلم، وثقه أحمد ويحي بن معين وغيرهما، توفي سنة اثنتين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٠٤٤-٢٠٤٥)، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ط١، دار الفكر: (٤/ ٣٩٧-٣٩٨).

(٥) هو يحي بن زياد بن عبد الله بن منظور، أبو زكريا الكوفي، مولى بني أسد، المعروف بالفراء، قيل لأنه يفري الكلام، بحر في اللغة والنحو، من مصنفاته: معاني القرآن، توفي سنة سبع ومئتين. انظر: سير أعلام النبلاء : (٣/ ٤١٦٤)، الأعلام: (٨/ ١٤٥-١٤٦).

(٦) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد، علامة ثقة فاضل، رأس في علم اللسان العربي، وفي أخبار الناس وأيامهم، من مصنفاته: تفسير غريب القرآن، وعيون الأخبار، توفي سنة ست وسبعين ومئتين. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٥٣٢-٢٥٣٣)، الأعلام: (٤/ ١٣٧).

(٧) انظر معاني القرآن للفراء: (٣/ ٨٩)، تفسير غريب القرآن، (ص: ٤٢٢)، تفسير الطبري: (٢٧/ ١١-١٢)، تفسير السمعاني، طبعة دار الوطن: (٥/ ٢٦٤)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٣٥)، زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ط١، دار الفكر: (٧/ ٢١٣-٢١٤)، تفسير القرطبي: (١٧/ ٣٧)، تفسير النسفي: (٣/ ٤٢٢)، تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ط٢، دار الفكر: (٨/ ١٤٣)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٣٩-٤٠)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٣٨).

وهذا القول مبني على التعارض في الظاهر بين هذه الآية والآية الأخرى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾. [الأعراف: ١٧٩].

وذلك باعتبار أن من خلق لجهنم لا يكون مخلوقاً للعبادة، بالإضافة إلى أن الكافر لا تقع منه العبادة فعلًا.

قال ابن حجر[١]: (وسبب الحمل على التخصيص وجود من لا يعبده فلو حمل على ظاهره لوقع التنافي بين العلة والمعلول).[٢]

القول الثاني:

أن معنى الآية: ما خلقتهم إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً، فالمؤمنون يعبدون الله تعالى باختيارهم، والكافرون خاضعون جبراً لقضاء الله سبحانه.

وهذا القول مروي عن ابن عباس[٣] رضي الله عنهما[٤]، ورجحه ابن جرير[٥]،

(١) هو أحمد بن علي بن محمد، أبو الفضل الكناني العسقلاني، المصري الشافعي، شهاب الدين، المعروف بابن حجر، الإمام الحافظ، أقبل على الحديث ورحل في طلبه، ولي قضاء مصر، مشهور في علم الرجال معول عليه، من مصنفاته: فتح الباري شرح صحيح البخاري، والإصابة في تمييز الصحابة، توفي سنة اثنتين وخمسين وثمان مائة. انظر: شذرات الذهب: (٧/ ٢٧٠-٢٧٣)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي، طبعة مكتبة القدسي: (٢/ ٣٦-٤٠).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية: (١٧/ ٢٣٠-٢٣١).

(٣) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، القرشي الهاشمي، أبو العباس، ابن عم رسول الله ﷺ، ترجمان القرآن، حبر الأمة، بحر العلم، قال عنه عمر رضي الله عنه: ذاكم فتى الكهول، له لسان سئول وقلب عقول، توفي بالطائف سنة ثمان وستين، انظر صفة الصفوة: (١/ ٧٤٦-٧٥٨)، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، دار الكتب العلمية: (٤/ ١٢١-١٣١).

(٤) انظر تفسير الطبري: (٢٧/ ١٢)، زاد المسير: (٧/ ٢١٣)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٤٩)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي، طبعة دار الفكر: (٧/ ٦٢٤)، تفسير القرطبي: (١٧/ ٣٨)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٣٨).

(٥) انظر تفسير الطبري: (٢٧/ ١٢).

واختاره البقاعي.[١][٢]

القول الثالث:

أن معنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: إلا لآمرهم بالعبادة وأدعوهم إليها.

وهذا القول مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٣]، ومجاهد[٤]، وعكرمة[٥]،

(١) هو إبراهيم بن عمر بن حسن، برهان الدين، أبو الحسن البقاعي، نسبة إلى البقاع في سورية، مؤرخ أديب، إمام في علم المناسبات، من مصنفاته: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، وعنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران، توفي بدمشق سنة خمس وثمانين وثمان مائة، انظر: طبقات المفسرين لأحمد الأدنه وي، ط١، مكتبة العلوم والحكم، (ص: ٣٤٧-٣٤٨) الأعلام: (١/ ٥٦).

(٢) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، ط٢، دار الكتب العلمية: (٧/ ٢٨٩).

(٣) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، القرشي الهاشمي، أبو الحسن، ابن عم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته فاطمة رضي الله عنها، رابع الخلفاء الراشدين، غزير العلم، عظيم الشجاعة والفروسية، شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ إلا غزوة تبوك، استشهد سنة أربعين، انظر صفة الصفوة: (١/ ٣٠٨-٣٣٥)، الإصابة: (٤/ ٤٦٤-٤٦٨).

(٤) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم، إمام ثقة، شيخ القراء والمفسرين، أخذ التفسير والفقه عن ابن عباس رضي الله عنهما، توفي سنة اثنتين ومائة، انظر صفة الصفوة: (٢/ ٢٠٨-٢١١)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣١٨٥-٣١٨٧).

(٥) هو عكرمة بن عبد الله، أبو عبد الله المدني، مولى ابن عباس رضي الله عنهما، بربري الأصل، من علماء التفسير المشهورين، توفي سنة أربع ومائة، انظر: صفة الصفوة: (٢/ ١٠٣-١٠٤)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٧٠٣-٢٧٠٩).

والربيع بن أنس[1][2]، واختاره الزجاج[3][4]، والواحدي[5][6]، وأيده ابن تيمية بقوة، قال: (وهو الذي عليه جمهور المسلمين، أن الله خلقهم لعبادته وهو فعل ما أمروا به)[7]، واستدل لهذا القول مناقشًا الأقوال الأخرى[8]، ومال إليه ابن كثير، فقد قال في تفسير الآية الكريمة: (أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم) ثم قال: (ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ومن عصاه

(١) هو الربيع بن أنس بن زياد البكري، بصري نزل خراسان، سمع من أبي العالية وأكثر عنه،كان عالم مرو في زمانه، توفي سنة تسع وثلاثين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٦٧٨)، تقريب التهذيب، طبعة دار المعرفة: (١/ ٢٤٣).

(٢) انظر تفسير البغوي: (٤/ ٢٣٥)، زاد المسير: (٧/ ٢١٣)، تفسير القرطبي: (١٧/ ٣٨)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ١٤٣)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٥١-٥٢).

(٣) هو إبراهيم بن محمد السّريّ، أبو إسحاق الزجاج، البغدادي، إمام في النحو، من مصنفاته: معاني القرآن، والاشتقاق، توفي سنة إحدى عشرة وثلاث مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ٦٩٥-٦٩٦)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ٥٢).

(٤) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ط١، عالم الكتب: (٥/ ٥٨).

(٥) هو علي بن أحمد بن محمد، أبو الحسن الواحدي، النيسابوري الشافعي، مفسر، عالم باللغة، من مصنفاته: أسباب النزول، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز. توفي سنة ثمان وستين وأربع مائة، انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٧٣٨-٢٧٣٩)، طبقات المفسرين للسيوطي: (٧٨ -٧٩).

(٦) تفسير الواحدي: (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، ط١، دار القلم: (٢/ ١٠٣٢).

(٧) مجموع الفتاوى: (٨/ ٥١).

(٨) مجموع الفتاوى: (٨/ ٣٩-٥٧).

عذبه أشد العذاب).[1]

وهو اختيار الشاطبي[2] في الموافقات، حيث قال: (المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدًا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا، والدليل على ذلك أمور، أحدها: النص الصريح الدال على أن العباد خلقوا للتعبد لله، والدخول تحت أمره ونهيه،كقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾. [الذاريات: ٥٦]).[3]

وهذا القول هو الأقرب في تفسير الآية الكريمة، والعلم عند الله تعالى.

يقول محمد الأمين[4]: (التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية الكريمة ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم بعبادتي، أي أختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وإنما قلنا أن هذا هو التحقيق في معنى الآية لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٣٨)، وانظر تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٠٨).

(٢) هو إبراهيم بن موسى بن محمد، اللخمي الغرناطي، أبو إسحاق الشاطبي، أصولي مفسر، وفقيه محدث، من أئمة المالكية في عصره، من مصنفاته: الموافقات في أصول الشريعة، والاعتصام، توفي سنة تسعين وسبع مائة. انظر الأعلام: (١/ ٧٥).

(٣) الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي، ط٦، دار المعرفة: (٢/ ٤٦٩).

(٤) هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر، الجكني الشنقيطي، من علماء شنقيط (موريتانيا)، مشهود له بالبراعة في الفقه والأصول والتفسير، استقر بالمدينة النبوية، ودّرس في المسجد النبوي، توفي بمكة سنة ثلاث وتسعين وثلاث مائة وألف، انظر: الأعلام: (٦/ ٤٥)، أضواء البيان: (١٠/ ٣-٦٤). (ترجمة تلميذه عطية محمد سالم، ملحقة بآخر الأضواء).

الله، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملاً، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم).[1]

وأجاب عن التعارض بين هذه الآية وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ بأن الإرادة في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ إرادة كونية قدرية، والإرادة في قوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إرادة دينية شرعية، ومن ثم فلا تعارض في الحقيقة[2].

قال ابن تيمية بعد أن بين الإرادة الواردة في القرآن بنوعيها الكوني والشرعي[3]: (وإذا كان كذلك فمقتضى اللام في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الإرادة الدينية الشرعية، وهذه قد يقع مرادها وقد لا يقع، والمعنى أن الغاية التي يحب لهم ويرضى لهم والتي أمروا بفعلها هي العبادة)[4].

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي، طبعة عالم الكتب: (٧/ ٦٧٣).

(٢) انظر دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب لمحمد الأمين الشنقيطي، طبعة عالم الكتب، (ص: ١٥٩-١٦٠).

(٣) انظر: الفرقان لابن تيمية، طبعة دار الكتب العلمية: (ص ٦٠ -٦١)، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ط١، دار البيان: (ص: ٥٦).

(٤) مجموع الفتاوى: (٨/ ١٨٩)، وانظر: (١٠/ ١٩).

وفي القرآن الكريم آيات أخرى تفسر هذه الآية الكريمة وتزيدها بياناً، ومن ذلك قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. [الإنسان: ٢].

قال البغوي: (نختبره بالأمر والنهي)[1].

وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. [هود: ٧].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. [الكهف: ٧].

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. [الملك: ٢].

قال ابن كثير: (معنى الآية انه أوجد الخلائق من العدم ليبلوهم أي: يختبرهم أيهم أحسن عملا)[2].

يقول محمد الأمين: (فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملا يفسر قوله: (ليعبدون) وخير ما يفسر به القرآن القرآن)[3].

(١) تفسير البغوي: (٤/ ٤٢٧)، وانظر تفسير النسفي: (٣/ ٦٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٩٦)، وانظر: (٢/ ٤٣٧-٤٣٨).

(٣) أضواء البيان: (٧/ ٦٧٣-٦٧٤)، وانظر: (٣/ ١٣).

وعلى هذا فإن تحقيق الإنسان للعبودية التي هي غاية الحياة ومهمة الوجود هو في واقع الأمر استجابة والتزام وإذعان للتكليف الإلهي المشتمل على الأوامر والنواهي، مما تتنزل به الشرائع على الرسل عليهم السلام، اختبارًا من الله ﷻ وابتلاءً للعباد[1].

ذلك أن العبودية حق لله تبارك وتعالى على الناس، يتحتم عليهم أداؤها والقيام بمقتضياتها، ماداموا يقضون آجالهم التي قدرها الله ﷻ لحياتهم على الأرض.

ففي حديث معاذ بن جبل[2] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (هل تدري ما حق الله على عباده) قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: (حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا).[3]

---

(١) انظر مدارج السالكين: (١/ ٨٣-٨٤).

(٢) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، أبو عبد الرحمن، الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها، بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن بعد غزوة تبوك، إمام في علم الحلال والحرام، توفي سنة ثماني عشرة وهو ابن أربع وثلاثين سنة أو نحوها، انظر: صفة الصفوة: (١/ ٤٨٩-٥٠٢)، الإصابة: (٦/ ١٠٧-١٠٩).

(٣) رواه البخاري في كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل: صحيح البخاري لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، ط٣، دار ابن كثير: (٥/ ٢٢٢٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً: صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، ط٢، دار سحنون: (١/ ٥٨)، وانظر فتح الباري: (٢٤/ ١٣٤)، شرح النووي على صحيح مسلم، ط٢، دار إحياء التراث العربي: (١/ ٢٣١).

المبحث الثاني
العبودية منهج الرسل عليهم السلام

لما كانت العبودية هي الغاية المقصودة من الخلق كان منهج الرسل عليهم السلام قائما على دعوة الناس إلى تحقيق مراد الله تعالى في عبادته جل وعلا، وتوحيد هذه العبادة له سبحانه.

ومن ثم كانت هذه القضية محورًا تنبثق عنه الرسالات، وقاعدة تتأسس عليها الشرائع، مهما تنوعت وتعددت، ومهما اختلفت بعد ذلك في الفروع والأحكام.

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تبرز هذا الجانب وتؤكده.

ويمكن تقسيم هذه الآيات إلى قسمين:

القسم الأول:

نصوص عامة توضح اتفاق الرسل عليهم السلام جميعًا في هذا المنهج الذي شرعه الله تعالى لهم، ومن ذلك قول الله ﷻ:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾. [النحل: ٣٦].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾. [الأنبياء: ٢٥].

﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً

﴿يُعْبَدُونَ﴾.[الزخرف: ٤٥].

قال ابن كثير: (أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له).[1]

وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.[الأحقاف: ٢١].

قال ابن الجوزي[2]: (أي: قد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده بإنذار أممها ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، والمعنى: لم يبعث رسول قبل هود ولا بعده إلا بالأمر بعبادة الله وحده).[3]

وقال تبارك وتعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.[النحل: ٢].

والمراد بالروح في هذه الآية الوحي الذي تتنزل به الملائكة على من

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٣٠).

(٢) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد، جمال الدين، أبو الفرج ابن الجوزي، القرشي البغدادي الحنبلي، رأس في الوعظ والتذكير، بحر في التفسير، علامة في السير والتاريخ، من مصنفاته: زاد المسير في علم التفسير، وصفة الصفوة، توفي سنة سبع وتسعين وخمس مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢١٩٢ - ٢١٩٧)، الأعلام: (٣/ ٣١٦ - ٣١٧).

(٣) زاد المسير: (٧/ ١٤٠)، وانظر تفسير القرطبي: (١٦/ ١٣٥)، تفسير القاسمي (محاسن التأويل) ط٢، دار الفكر: (١٥/ ٢٠-٢١).

يشاء الله من عباده وهم الرسل عليهم السلام.[1]

قال السعدي[2]: (وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي: على معرفة الله وتوحيده في صفات العظمة التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل بها كتبه وأرسل بها رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها).[3]

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.[الأنبياء:٩٢].

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.[المؤمنون: ٥١ - ٥٢].

(١) انظر تفسير الطبري: (١٤/ ٧٦-٧٧)، تفسير الواحدي: (١/ ٦٠٠)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٦١)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ١٠٥)، تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) طبعة دار إحياء التراث العربي: (٥/ ٩٥).

(٢) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي، الناصري التميمي الحنبلي، قرأ على صالح ابن عثمان قاضي عنيزة ومحمد الأمين الشنقيطي صاحب الأضواء، وغيرهما، وإليه انتهت رئاسة العلم في القصيم، كان منقطعًا للعلم والتعليم، من مصنفاته: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، والقواعد الحسان لتفسير القرآن. انظر: مشاهير علماء نجد لعبد الرحمن ابن عبداللطيف، ط١، دار اليمامة: (٢/ ٤٢٢ - ٤٣١)، علماء نجد خلال ستة قرون لعبد الله البسام ط١، مكتبة النهضة: (ص: ٢٥٦-٢٦١).

(٣) تفسير السعدي: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، طبعة دار المدني: (٣/ ٤٧).

قال ابن كثير: (أي: دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له).[1]

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾.[الشورى: ١٣].

قال ابن كثير: (والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له).[2]

ويزيد هذا المعنى بيانًا حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (.. والأنبياء إخوة لعلات[3]، أمهاتهم شتى ودينهم واحد).[4]

قال ابن حجر: (معنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٤٧)، وانظر: (٣/ ١٩٤)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٢١٩ــ٢٢٠)، (١٤/ ٣٢٧).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٠٩)، وانظر الفرقان: (ص: ٣٦-٣٧)، تفسير القاسمي: (١٤/ ٢٩٩).

(٣) العَلاَّت بفتح العين وتشديد اللام: الضرائر، وأولاد العلات الإخوة من الأب وأمهاتهم مختلفة، قال ابن الأثير: (أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، طبعة دار الفكر: (٣/ ٢٩١)، وانظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ط١، دار النفائس: (٢/ ٣١٥-٣١٦)، فتح الباري: (١٣/ ٢٤٩)، بدائع الفوائد لابن القيم، ط١، مكتبة الصفا: (٣/ ١٦٨- ١٦٩).

(٤) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ...﴾ (٣/ ١٢٧٠)، ومسلم بنحوه في كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام: (٢/ ١٨٣٧).

وإن اختلفت فروع الشرائع).[1]

ويقول ابن كثير: (أي: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم،كقوله جل وعلا: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. [المائدة: ٤٨].[2]

القسم الثاني:

نصوص خاصة تؤكد اهتمام رسول معين من الرسل عليهم السلام بالدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده.

١- في مقدمة هذا الركب الكريم يأتي أول الرسل نوح عليه السلام[3] يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. [هود: ٢٥-٢٦].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾. [المؤمنون: ٢٣].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.[نوح: ١ - ٣].

---

(١) فتح الباري: (١٣/ ٢٤٩)، وانظر شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ١٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٠٩).

(٣) انظر تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٦٨).

٢- ويقوم هود عليه السلام بنفس المهمة، ويسير على ذات المنهج:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.[الأعراف: ٦٥].

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾. [هود: ٥٠].

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾. [المؤمنون: ٣١ - ٣٢][1].

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾. [فصلت: ١٣-١٤].

﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾.[الأحقاف: ٢١].

٣- وصالح عليه السلام:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾. [الأعراف: ٧٣].

(١) والآيات تتناول قصة عاد قوم هود عليه السلام في قول عدد من المفسرين. انظر تفسير البغوي: (٣/ ٣٠٨)، زاد المسير: (٥/ ٣٢١)، تفسير الفخر الرازي: (التفسير الكبير: مفاتيح الغيب) طبعة المطبعة البهية المصرية: (٣٢/ ٩٧)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٣٢).

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾. [هود: ٦١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾. [النمل: ٤٥].

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾. [فصلت: ١٣ - ١٤].

٤- وشعيب عليه السلام:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾. [الأعراف: ٨٥].

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾. [هود: ٨٤].

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾. [العنكبوت: ٣٦].

٥- وإبراهيم عليه السلام:

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾. [العنكبوت: ١٦ - ١٧].

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. [الشعراء: ٧٥ - ٧٧].

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾. [الأنبياء: ٦٦ - ٦٧].

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾.[الصافات:٩٥- ٩٦].

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾. [مريم: ٤٢].

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾.[مريم: ٤٤].

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾. [الممتحنة: ٤].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾. [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾. [إبراهيم: ٣٥].

٦- ويعقوب عليه السلام:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا

وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾. [البقرة: ١٣٣].

٧- ويوسف عليه السلام:

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾. [يوسف: ٤٠].

٨- وإلياس عليه السلام:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾. [الصافات: ١٢٣ - ١٢٦].

٩- وموسى عليه السلام:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾. [البقرة: ٨٣][1].

١٠- وعيسى عليه السلام:

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾.[مريم: ٣٠ - ٣١].

﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾.[المائدة:٧٢].

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾.[المائدة: ١١٧].

---

(١) قال الألوسي: (هذا الميثاق ما أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم عليهم السلام) روح المعاني: (١/ ٣٠٧)، وانظر تفسير ابن عطية: (١/ ١٧٢).

﴿ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾. [آل عمران: ٥٠ - ٥١].

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾. [مريم: ٣٦].

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾. [الزخرف: ٦٣ - ٦٤][1].

١١- أما عن العبودية كمنهج لرسولنا ﷺ فإن كمًا كبيرًا من الآيات الكريمة تناولت هذه القضية إجمالاً وتفصيلاً.

والإشارة هنا إلى بعض النصوص فقط على سبيل التمثيل.

- **أمر الله ﷻ رسوله ﷺ بالعبادة:**

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾. [الزمر: ٢].

﴿ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾. [مريم: ٦٥].

- **وأمره أن يعلن منهجه:**

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾. [الرعد: ٣٦].

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٩١].

---

(١) قال القرطبي: "أي عبادة الله صراط مستقيم وما سواه معوج لا يؤدي سالكه إلى الحق" تفسير القرطبي: (١٦/ ٧٢).

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾. [الزمر: ١١].

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾. [الزمر: ١٤].

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾. [يونس: ١٠٤].

- **وأمره جل وعلا أن يلازم هذا المنهج ويستمر عليه حياته كلها:**

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾.[1] [الحجر: ٩٩].

- **وتنزلت عليه الآيات الكريمات تدعو الناس إلى عبادة الله وحده فبلّغ وحي الله إليه:**

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. [البقرة: ٢١].

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾. [الأنعام: ١٠٢].

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾. [آل عمران: ٦٤][2].

---

(١) واليقين الموت، تفسير غريب القرآن: (ص٢٤٠)، قال الرازي: (المراد منه: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ في زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات حياتك عن هذه العبادة) تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ٢١٦)، وانظر نظم الدرر: (٤/ ٢٤١ - ٢٤٢).

(٢) قال القرطبي: "المعنى أجيبوا إلى ما دعيتم إليه وهو الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميل عن الحق وقد فسرها بقوله ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾" تفسير القرطبي: (٤/ ٦٨).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. [الكهف: ١١٠].

- **إن نزول القرآن بتمامه على رسولنا ﷺ إنما كان لتحقيق منهج العبودية لله وحده سبحانه.**

يقول تبارك وتعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. [هود: ١ - ٢].

قال محمد الأمين: (هذه الآية الكريمة فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها هي أن يعبد الله جل وعلا وحده، ولا يشرك به في عبادته شيء لأن قوله جل وعلا: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.[هود: ١ - ٢] صريح في أن آيات هذا الكتاب فصلت من عند الحكيم الخبير لأجل أن يعبد الله وحده).[1]

(١) أضواء البيان: (٣/ ٧)، وانظر تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٣٥)، تفسير أبي السعود: (٤/ ١٨٣).

المبحث الثالث

شرف مقام العبودية

إذا اختار الإنسان طريق التذلل والخضوع لله تبارك وتعالى، وولج باب العبودية له سبحانه، كان ذلك إيذانًا بارتقاء سلم الشرف، وبلوغ منازل الرفعة، وحيازة مراتب التكريم.

وكلما علا في درجات العبودية، وتدرج في مقام الإسلام والإذعان لربه ﷻ، ازداد ذلك الشرف، وتأصل ذلك التكريم.

ومن ثم يصبح الوصف بالعبودية مستلزمًا لشرف الموصوف، ورفعة قدره، وعلو مرتبته.

يقول ابن كثير: (العبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى)[1].

ويقول ابن تيمية: (كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته)[2].

وقال ابن القيم: (والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه وأقربهم إليه..)[3].

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٢٥)، وانظر: الرسالة القشيرية: (ص٢٩٢)؛ حدائق الحقائق: (ص٨١).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٧٦)، وانظر أحكام القرآن: (٣/ ١١٣٨).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٨٦)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٥٠، ١٧٦ - ١٧٩).

وقال الرازي[1] عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا .. ﴾ [الفرقان: ٦٣].: (خص اسم العبودية بالمشتغلين بالعبودية فدل ذلك على أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات)[2].

وفيما يلي عرض لجملة من الآيات الكريمات المشتملة على تشريف الرسل عليهم السلام والمؤمنين بوصف العبادة، وذلك في مسألتين:

المسألة الأولى:

الرسل عليهم السلام:

لما كان الرسل عليهم السلام أعظم الناس التزاماً بمنهج العبادة وتحقيق معانيها، وأكثرهم اجتهاداً في الطاعة والخضوع للرب جل شأنه، فقد وصفهم الله تبارك وتعالى بصفة العبودية تشريفًا لهم وتفضيلًا، وإعزازًا لهم وتكريمًا[3].

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ

(١) هو محمد بن عمر بن الحسين، أبو عبد الله القرشي الشافعي، الطبرستاني الأصل، فخر الدين الرازي، نسبة إلى مدينة الرّي، مفسر أصولي، معروف بتوقد الذكاء، من مصنفاته: مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير أو تفسير الفخر الرازي، والمحصول في علم الأصول، توفي سنة ست وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٦١٠)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ٢١٣-٢١٤).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٠٧).

(٣) انظر تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ١٨٥).

ٱلْمَنصُورُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٢]. ففي الآية الكريمة وصف الله ﷻ رسله عليهم السلام بالعبودية على سبيل التشريف، ثم أضافهم إلى ذاته سبحانه (لعبادنا) زيادة في التكريم والتخصيص.

وقد وصف الله تبارك وتعالى بذلك بعض رسله تخصيصًا في مواضع كثيرة من كتابه جل وعلا، وفي مقدمتهم سيد الخلق وأفضل الرسل وخاتمهم رسولنا ﷺ.

يقول ابن كثير: (سمى الله رسوله ﷺ بعبده في أشرف مقاماته)[1].

هذه الحالات الشريفة لرسول الله ﷺ والتي وصفه الله تعالى فيها بالعبودية يمكن تضمينها في ثلاث حالات:

الحال الأولى: نزول القرآن الكريم عليه ﷺ.

١- يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾. [الكهف: ١].

قال أبو السعود[2]: (وفي التعبير عن الرسول ﷺ بالعبد مضافًا إلى

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٢٥)، وانظر مجموع الفتاوى: (١/ ٦٦ - ١٠/ ١٥٢)، مدارج السالكين: (١/ ٨٧ - ٣/ ٢٦ - ٣٤٢)، روضة المحبين: (ص: ٤٢).

(٢) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، أبو السعود، علامة مفسر، ولي قضاء القسطنطينية وغيرها، معروف بسرعة البديهة وحضور الذهن، من مصنفاته: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، والمشهور بتفسير أبي السعود، توفي سنة اثنتين وثمانين وتسع مائة. انظر شذرات الذهب: (٨/ ٣٩٨-٢٤٠٠)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ٣٩٨ -٣٩٩).

ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه ﷺ إلى أعلى معارج العبادة وتشريف له أي تشريف)[1].

٢- وقال جل وعلا: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾. [الفرقان: ١].

قال ابن كثير: (وقوله (على عبده) هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته كما وصفه بها في أشرف أحواله).[2]

٣- وقال سبحانه: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾. [الأنفال: ٤١].

قال الألوسي: ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ، وفي التعبير عنه بذلك ما لا يخفى من التشريف والتعظيم)[3].

٤- وقال جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾. [الحديد: ٩].

---

(١) تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٠٢)، وانظر التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزيّ الكلبي، ط٢، دار الكتاب العربي: (٢/ ١٦٦)، نظم الدرر: (٤/ ٤٤٢)، تفسير ابن عاشور: (التحرير والتنوير)، طبعة الدار التونسية: (١٥/ ٢٤٧).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٠٨)، وانظر التسهيل: (٣/ ٧٤)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٢٠٠).

(٣) روح المعاني: (١٠/ ٥).

والمراد بالعبد هنا رسولنا ﷺ، والمقصود بالآيات آيات القرآن[1].

قال ابن جُزَي[2]: (والعبودية هنا للتشريف والاختصاص)[3].

٥- وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾. [البقرة: ٢٣].

قال أبو السعود: (وفي ذكره ﷺ بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به ﷺ وانقياده لأوامره تعالى ما لا يخفى)[4].

الحال الثانية: الإسراء والمعراج.

١. يقول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾. [الإسراء: ١].

قال الرازي: (لولا أن العبودية أشرف المقامات لما وصفه الله بهذه الصفة في أعلى مقامات المعراج)[5].

---

(١) انظر تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٥٩).

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد، أبو القاسم، ابن جُزَيّ الكَلْبي، فقيه لغوي مفسر، من أهل غرناطة، من مصنفاته: التسهيل لعلوم التنزيل، القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية. توفي سنة إحدى وأربعين وسبع مائة، انظر: الأعلام: (٥/ ٣٢٥).

(٣) التسهيل: (٤/ ٩٦).

(٤) تفسير أبي السعود: (١/ ٦٤)، وانظر تفسير القرطبي: (١/ ١٦١).

(٥) تفسير الفخر الرازي: (١/ ٢٥١)، وانظر التسهيل: (٢/ ١٦٦)، نظم الدرر: (٤/ ٣٢٨).

وقال محمد الأمين: (والتعبير بلفظ العبد في هذا المقام العظيم يدل دلالة واضحة على أن مقام العبودية هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها، إذ لو كان هناك وصف أعظم منه لعبر به في هذا المقام العظيم)[1].

٢. ويقول سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾. [النجم: ١٠].

والمعنى: أوحى الله تبارك وتعالى إلى عبده محمد ﷺ، وذلك ليلة المعراج[2].

الحال الثالثة: العبادة والدعوة

١. يقول الله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾. [العلق: ٩-١٠].

قال ابن عطية: (لم يختلف أحد من المفسرين في أن الناهي أبوجهل وان العبد المصلي محمد ﷺ)[3].

والملاحظ في الآية الكريمة تنكير اللفظ المتضمن وصف الرسول ﷺ بالعبودية (عبدًا).

قال البيضاوي[4]: (ولفظ العبد وتنكيره للمبالغة في تقبيح النهي

(١) أضواء البيان: (٣/ ٣٩٧-٣٩٨)، و انظر أحكام القرآن لابن العربي: (٣/ ١١٩٢)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٣٥)، تفسير أبي السعود: (٥/ ١٥٤).

(٢) انظر تفسير البغوي: (٤/ ٢٤٦)، تفسيرالزمخشري: (٤/ ٤٢١)، تفسير القرطبي: (١٧/ ٦١)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ١٥٨)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٤٩)، فتح الباري: (١٨/ ٢٤٣).

(٣) تفسير ابن عطية: (٥/ ٥٠٢).

(٤) هو عبد الله بن عمر بن محمد، الشيرازي، ناصر الدين البيضاوي، علامة مفسر، ولي قضاء شيراز، من مصنفاته: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المشهور بتفسير البيضاوي، والمنهاج في أصول الفقه، توفي سنة خمس وثمانين وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٤٤٦)، الأعلام: (٤/ ١١٠).

والدلالة على كمال عبودية المنهي)[1].

وقال القاسمي[2]: (ولفظ العبد وتنكيره لتفخيمه ﷺ)[3].

٢. ويقول تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾. [الجن: ١٩].

وعبد الله في الآية هو رسول الله ﷺ.

قال ابن جزي: (ووصفه بالعبودية اختصاصًا له وتقريبًا وتشريفًا)[4].

٣. ويقول سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾. [الزمر: ٣٦] وهذه قراءة الجمهور (عبده) على الإفراد[5].

(١) تفسير البيضاوي: (٢/ ٦١٠).

(٢) هو جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، إمام الشام في عصره، مفسر محدث أديب، من مصنفاته: محاسن التأويل في التفسير، وقواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، توفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة وألف. انظر الأعلام: (٢/ ١٣٥).

(٣) تفسير القاسمي: (١٧/ ٢٠٩).

(٤) التسهيل: (٤/ ١٥٤)، وقد اختلف المفسرون في المراد بقيامه ﷺ على قولين، **الأول**: قيامه بعبادة الله تعالى صلاة وتلاوة للقرآن. **والثاني**: قيامه بالدعوة إلى الله تعالى، وبناء على ذلك اختلفوا في عود الضمير في (كادوا) فمنهم من قال بعوده إلى الجن، ومنهم من قال بعوده إلى كفار قريش أو إلى الكفار من الجن والإنس، انظر: تفسير الطبري: (٢٩/ ١١٧-١١٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٠٤-٤٠٥)، تفسير القرطبي: (١٩/ ١٦)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، طبعة دار الأرقم: (٥/ ٣١٩-٣٢٠).

(٥) قرأ عامة القراء السبعة (عبده) على الإفراد، والمراد به رسولنا ﷺ، وذكر بعض المفسرين احتمال أن يكون للجنس ويدخل فيه الرسول ﷺ دخولاً أوليا، وقرأ حمزة والكسائي (عباده) بالجمع، ويكون المراد الأنبياء ﷺ جميعًا، أو الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين. انظر: سراج القارئ المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهي لأبي القاسم العذري، ط٣، مكتبة مصطفى البابي الحلبي. مصر: (ص: ٣٣٨)، النشر في القراءات العشر لابن الجزري، ط١، دار الكتب العلمية: (٢/ ٢٧١)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٧-١٦٨)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٣٢٥-٣٢٦)، فتح القدير: (٤/ ٤٦٢).

قال البغوي: (يعني محمدًا ﷺ)[1].

يقول أبو حيان[2]: (وفي إضافته إليه تشريف عظيم لنبيه)[3].

وكما وصف رسولنا ﷺ بالعبودية تشريفًا له، فقد وصف بذلك أيضًا عدد ممن سبقه من المرسلين عليهم السلام على سبيل التخصيص في عدد من آيات الكتاب العزيز، وفيما يلي ذكرهم عليهم السلام:

١- نوح عليه السلام:

يقول الله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾. [الإسراء: ٣].

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾. [الصافات: ٧٩ - ٨١].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾. [القمر: ٩].

قال أبو السعود: (وفي ذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه الصلاة والسلام ورفع لمحله)[4].

---

(١) تفسير البغوي: (٤/ ٧٩- ٨٠).

(٢) هو محمد بن يوسف بن علي، أبو حيان الأندلسي الغرناطي، مفسر مؤرخ، إمام في النحو واللغة، من مصنفاته: البحر المحيط في التفسير، ونحاة الأندلس. توفي سنة خمس وأربعين وسبع مائة. انظر: شذرات الذهب: (٦/ ١٤٥-١٤٦)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ٢٧٨-٢٨٠).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٢٩).

(٤) تفسير أبي السعود: (٨/ ١٦٩)، وانظر تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ١٤٤)، التسهيل: (٤/ ٨٠)، روح المعاني: (٢٣/ ٩٩)، تفسير القاسمي: (١٥/ ٢٦٦).

٢- نوح ولوط عليهما السلام:

يقول الله جل وعلا: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾. [التحريم: ١٠].

والمراد من التصريح بالعبودية تعظيم نوح ولوط عليهما السلام[1].

٣- داود عليه السلام:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. [ص: ١٧].

قال القرطبي: (وقوله [عبدنا] إظهارًا لشرفه بهذه الإضافة)[2].

وقال الرازي: (وصفه بكونه عبدًا له، وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم، وذلك غاية التشريف)[3].

٤- سليمان عليه السلام:

يقول الله جل شأنه: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. [ص: ٣٠].

ذكره جل وعلا بصفة العبودية على سبيل الثناء والتقريب[4].

---

(١) انظر تفسير البيضاوي: (٢/ ٥٠٧)، روح المعاني: (٢٨/ ١٦٣)، فتح الرحمن: (ص: ٣٥٩).

(٢) تفسير القرطبي: (١٥/ ١٠٤).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ١٨٤)، والأيد القوة. انظر معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٢٣)، الدر المنثور: (٧/ ١٤٨)، قال الشوكاني: (والمراد ما كان فيه عليه السلام من القوة على العبادة)، فتح القدير: (٤/ ٤٢٢).

(٤) انظر تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٠٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ٢٠٣)، تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ١١٠).

٥- أيوب عليه السلام:

يقول الله سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾. [ص: ٤١].

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾. [ص: ٤٤].

قال السعدي: (نعم العبد) الذي كمل مراتب العبودية في حال السراء والضراء والشدة والرخاء)[1].

٦- زكريا عليه السلام:

يقول الله تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾. [مريم: ٢].

قال ابن جزي: (وصفه بالعبودية تشريفًا له وإعلامًا بتخصيصه وتقريبه)[2].

٧- إبراهيم عليه السلام:

يقول الله ﷻ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٩ - ١١١].

قال القرطبي: (أي: من الذين أعطوا العبودية حقها حتى استحقوا الإضافة إلى الله)[3].

٨- إبراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى

(١) تفسير السعدي: (٤/ ٢٩٥)، وانظر تفسير القاسمي: (١٤/ ١٧٤).

(٢) التسهيل: (٣/ ٢).

(٣) تفسير القرطبي: (١٥/ ٧٤).

ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[1]. [ص: ٤٥][2].

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾. [الأنبياء: ٧٢ - ٧٣][3].

وصفهم بالعبادة الخالصة لله وحده في سياق مدحهم والثناء عليهم[4].

٩- يوسف عليه السلام:

يقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾. [يوسف: ٢٤].

(١) قرأ ابن كثير: (عبدنا) بالإفراد، وقرأ باقي القراء السبعة: (عبادنا) على الجمع. انظر سراج القارئ: (ص: ٣٣٦)، النشر: (٢/ ٢٧٠)، وعلى قراءة الإفراد: (عبدنا) يكون المراد إبراهيم عليه السلام، وتخصيصه على هذا لمزيد الشرف، وذكر بعض المفسرين احتمال أن يكون لفظ (عبدنا) للجنس والثلاثة بدل منه فتتفق القراءتان، انظر تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٠١)، روح المعاني: (٢٣/ ٢١٠)، فتح القدير: (٤/ ٤٣٥).

(٢) قال ابن كثير في معنى ﴿ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾(يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٠)، وانظر الدر المنثور: (٧/ ١٩٧-١٩٨).

(٣) والمراد بقوله (كلا) ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ ﴾ إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وهذا اختيار ابن جرير، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي. انظر تفسير الطبري: (١٧/ ٤٨-٤٩)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٥٢)، زاد المسير: (٥/ ٢٥٥)، تفسير القرطبي: (١١/ ٢٠٢)، بينما اختار أبو حيان، وأبو السعود، والألوسي، ورجحه محمد الأمين: أن المراد يشمل الثلاثة إضافة إلى لوط عليه السلام. انظر تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٢٩)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٧٧)، روح المعاني: (١٧/ ٧١)، أضواء البيان: (٤/ ٥٩٢).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود: (٦/ ٧٧)، فتح القدير: (٣/ ٤٢٢)، تفسير السعدي: (٣/ ٢٩٠).

١٠- إلياس عليه السلام:

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. [الصافات: ١٣١ - ١٣٢].

١١- موسى وهارون عليهما السلام:

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. [الصافات: ١٢١ - ١٢٢].

١٢- الخضر عليه السلام:

يقول الله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾. [الكهف: ٦٥] والمراد بالعبد في الآية الخضر عليه السلام[1].

قال أبو السعود: (التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف)[2].

وفي حديث أُبي ابن كعب رضي الله عنه[3]، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) انظر معاني القرآن لأبي جعفر النحاس، ط١، مركز إحياء التراث بجامعة أم القرى: (٤/ ٢٦٧)، تفسير البغوي: (٣/ ١٧٢)، فتح القدير: (٣/ ٣٠٣)، واختلف في نبوة الخضر. وممن رجح نبوته ابن عطية والقرطبي وابن كثير ومحمد الأمين. انظر تفسير ابن عطية: (٣/ ٥٢٩)، تفسير القرطبي: (١١/ ١٢)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٩٢)، أضواء البيان (٤/ ١٥٨-١٦٢)، ومال البغوي إلى عدم نبوته. تفسير البغوي: (٣/ ١٧٣)، وانظر زاد المسير: (٥/ ١١٧-١١٨)، فتح الباري: (١٨/ ٢١).

(٢) تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٣٤).

(٣) هو أُبي بن كعب بن قيس، الأنصاري، أبو المنذر، سيد القراء، شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها، كان عمر رضي الله عنه يسميه سيد المسلمين، ويسأله عن النوازل ومعضلات الأمور، توفي سنة ثلاثين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٤٧٤-٤٧٧)، الإصابة: (١/ ١٨٠-١٨٢).

(بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال موسى عليه السلام: لا، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: بل عبدنا خضر...) الحديث[1].

قال ابن حجر: (والإضافة فيه ـ أي في لفظ عبدنا ـ للتعظيم)[2].

١٣- عيسى عليه السلام:

يقول الله سبحانه: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾. [مريم: ٣٠][3].

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾. [الزخرف: ٥٩][4].

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾. [النساء: ١٧٢].

قال القاسمي: (أي: لن يأنف من أن يكون عبدًا لله فإن عبوديته شرف يتباهى به)[5].

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى الخضر: (١/ ٤٠).

(٢) فتح الباري: (١/ ٢٦٥).

(٣) انظر روح المعاني: (١٦/ ٨٩)، تفسير السعدي: (٣/ ١٩٩).

(٤) انظر روح المعاني: (٢٥/ ٩٣).

(٥) تفسير القاسمي: (٥/ ٦٨١)، وانظر تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) لمحمد رشيد رضا، طبعة دار المعرفة: (٦/ ٩٥)، تفسير السعدي: (١/ ٤٤٥)، مدارج السالكين: (١/ ٨٦).

وقال الألوسي: (والاقتصار على ذكر عدم استنكافه ﷺ عن ذلك مع أن شأنه ﷺ المباهاة به كما تدل عليه أحواله وتفصح عنه أقواله لوقوعه في موضع الجواب عما قاله الكفرة)[1].

المسألة الثانية: المؤمنون

وصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بصفة العبودية، وأضافهم إليه جل وعلا على سبيل التكريم والتشريف في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

ذلك أن الإضافة إلى الشريف تضفي على المضاف الشرف والرفعة.

قال الرازي:(وفرق بين العبد مطلقًا وبين المضاف إلى الله تعالى، فإن الإضافة إلى الشريف تكسو المضاف شرفًا، تقول: بيت الله، فيكون فيه من الشرف مالا يكون في قولك البيت)[2].

ويعتبر أبو السعود أن تخصيص ذلك بالمؤمنين هو عادة القرآن الكريم.

يقول أبو السعود: (وإضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن الكريم)[3].

ويقرر الشوكاني[4] كذلك: (أن إضافة العباد إليه يراد بها المؤمنون لما في

(١) روح المعاني: (٦/ ٣٧)، وانظر تفسير أبي السعود: (٢/ ٢٦٠).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ٦٣)، وانظر تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٤).

(٣) تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٥٩)، وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، وانظر تفسير الفخر الرازي: (٢٥/ ٢٤٩)، الكليات لأبي البقاء الكفوي، ط٢، دار الكتاب الإسلامي: (٣/ ٢٦٩)، تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ١١٠).

(٤) هو محمد بن علي بن محمد، الشوكاني، فقيه مجتهد، من كبار علماء اليمن في عصره، ولي قضاء صنعاء، من مصنفاته: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، وفتح القدير الجامع لفني الراوية والدراية من علم التفسير، توفي سنة خمسين ومائتين وألف. انظر: الأعلام: (٦/ ٢٩٨)، التفسير والمفسرون: (٢/ ٢٨٥-٢٨٦).

الإضافة من التشريف)[1].

لكن هذا التعميم يرد عليه أن هناك آيات كريمات تضمنت لفظ (العباد) مضافًا إلى الله تعالى مقصوداً به الكافرين، كقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾. [الفرقان: ١٧][2].

ويمكن الجواب على هذا الاعتراض والجمع بين النصوص من وجوه:

الأول: أن تخصيص ذلك بالمؤمنين هو باعتبار الغالب.

قال الشوكاني عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]: (ووجه تخصيص العباد بالمؤمنين أن الغالب في القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم)[3].

الثاني: أن المخصوص بالتشريف بصفة العبودية هم أهل العبادة الخاصة لا العامة، الاختيارية لا الاضطرارية، عبيد الإلوهية لا الربوبية[4]، ويمكن تحديد المراد من خلال السياق القرآني ذاته.

قال ابن جزي: (والعبودية على وجهين: عامة، وهي التي بمعنى الملك، وخاصة، وهي التي يراد بها التشريف والتخصيص، وهي من

(١) فتح القدير: (٣/ ٢٤٧)، وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ١٨٩-١٩٠).

(٣) فتح القدير: (٤/ ٢٥٤)، وانظر الكليات: (٣/ ٢٦٩)، تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ١١٠).

(٤) سيأتي الحديث عن هذا التقسيم في الفصل الثاني من هذا الباب بمشيئة الله وعونه.

أوصاف أشراف العباد)[1].

وهذا معنى قول ابن عطية عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]: (وعباد الله هنا خصوص في المؤمنين الناعمين لأن جميع الخلق عباده)[2].

وهو معنى كلام ابن تيمية أيضًا حين قال بعد إيراده بعض الآيات في هذه المسألة، ومنها قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]: (والمراد بعبده عابده المطيع لأمره، وإلا فجميع المخلوقين عباده بمعنى أنهم معبدون مخلوقون مدبرون)[3].

يقول السعدي في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ﴾ [مريم: ٦١]: (والعباد في هذه الآية المراد عباد إلهيته الذين عبدوه والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفًا لهم كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] ونحوه.

(بخلاف عباده المماليك فقط الذين لم يعبدوه فهؤلاء إن كانوا عبيدًا لربوبيته لأنه خلقهم ورزقهم ودبرهم فليسوا داخلين في عبيد إلهيته، العبودية الاختيارية التي يمدح صاحبها، إنما عبوديتهم عبودية اضطرار لا

(١) التسهيل: (١/ ٤١).

(٢) تفسير ابن عطية: (٥/ ٤١٠)، وانظر تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٣٥)، أضواء البيان: (٣/ ٦١٠).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٥٠٣)، وانظر: (١/ ٤٣-٤٤).

مدح لهم فيها)[1].

الثالث: أن وصف الكفار بالعبودية المضافة إلى الله تعالى في الآية المذكورة هو وصف مقيد بالإشارة [أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء]، وهذه التسمية المقيدة بالإشارة ونحوها ـ كما ذكر ابن القيم ـ يمكن أن يوصف بها الكفار، أما التسمية المطلقة فهي خاصة بالمؤمنين.

يقول ابن القيم: (ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء) يقصد أهل الطاعة والولاية لله سبحانه[2].

وفيما يلي عرض لجملة من الآيات الكريمة المتضمنة وصف العبودية مضافاً إلى الله تعالى تشريفًا للمؤمنين، وذلك على سبيل التمثيل.

- يقول الله جل وعلا: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾. [الإنسان: ٦].

قال ابن جزي: (وصفهم بالعبودية، وفيه معنى التشريف والاختصاص)[3].

- ويقول سبحانه: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾. [الصافات: ١٦٠، ١٢٨، ٧٤، ٤٠].

في الآية الكريمة قراءتان: الأولى بفتح اللام في لفظ [المخلصين]

(١) تفسير السعدي: (٣/ ٢١١)، وانظر: (٣/ ٤٤٩- ٤٥٠).

(٢) مدارج السالكين: (١/ ٨٩)، وانظر تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ١١٠- ١١١).

(٣) التسهيل: (٤/ ١٦٧).

والثانية بكسرها[1]، والمعنى على القراءة الأولى: أي الذين أخلصهم الله تعالى لدينه وعبادته، وعلى الثانية: أي الذين اخلصوا لله العبادة[2].

قال الألوسي: (و[المخلصين] صفة مدح حيث كانت الإضافة للتشريف)[3].

- ويقول تبارك وتعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال القرطبي:(أضافهم إلى عبوديته تشريفاً لهم)، ثم قال: (فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذي يستحق اسم العبودية)[4].

يقول السعدي: (العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيدالله مربوبون مدبرون ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ

(١) قرأ عاصم وحمزة و الكسائي ونافع بفتح اللام، وباقي القراء السبعة بكسرها. انظر سراج القارئ: (ص: ٢٥٧)، النشر: (٢/ ٢٢١).

(٢) انظر معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٠٧)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٥٢)، فتح القدير: (٤/ ٣٩١)، حجة القراءات لابن زنجلة، ط ٥، مؤسسة الرسالة: (ص: ٣٥٨ – ٣٥٩).

(٣) روح المعاني: (٢٣/ ٨٥).

(٤) تفسير القرطبي: (١٣/ ٤٦)، وانظر تفسير الزمخشري: (٣/ ٢٩٦)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٥١٢).

عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣]، وعبودية لألوهيته وعبادته ورحمته، وهي عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه [الرحمن] إشارة إلى أنهم وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت)[1].

- ويقول ﷻ: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ [الزمر: ١٠].

قال أبو السعود: (وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة)[2].

- ويقول تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨].

قال الرازي:(وصفهم بالعبودية، وهذا تشريف عظيم)[3].

- ويقول سبحانه:﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[الإسراء:٥٣].

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥].

قال ابن عطية:(خصهم باسم العبادة وإن كان اسمًا عامًا لجميع الخلق من حيث قصد تشريفهم والتنويه بهم)[4].

(١) تفسير السعدي: (٣/ ٤٤٩-٤٥٠)، وانظر نظم الدرر: (٥/ ٣٣٤).

(٢) تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٤٦)، وانظر: (٧/ ٤٥)، فتح القدير: (٤/ ٣١٢).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (٢٧/ ٢٢٥)، وانظر تفسير أبي السعود: (٨/ ٥٤).

(٤) تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٧١)، وانظر معاني القرآن للنحاس: (٤/ ١٧٤)، تفسير البيضاوي: (١/ ٥٧٦).

وقال أبو حيان: (والإضافة إليه تعالى في [إن عبادي] إضافة تشريف، والمعنى: المختصين بكونهم عبادي لا يضافون إلى غيري)[1].

• ويقول ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٣].

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١].

أثنى عليهم الله تبارك وتعالى بوصف العبودية.

قال السعدي: (والعباد في هذه الآية المراد عباد إلهيته الذين عبدوه والتزموا شرائعه فصارت العبودية وصفًا لهم...)[2].

(١) تفسير البحر المحيط: (٦/ ٥٩)، وانظر: (٦/ ٤٩)، روح المعاني: (١٥/ ٩٤).

(٢) تفسير السعدي: (٣/ ٢١١).

الفصل الثاني:

أقسام العبودية

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أقسام العبودية باعتبار الكائنات.

المبحث الثاني: أقسام العبودية باعتبار العموم والخصوص.

المبحث الثالث: أقسام العبودية باعتبار أعضاء الإنسان.

المبحث الأول

أقسام العبودية باعتبار الكائنات

الكون كله يعبد الله جل وعلا، يسبحه ويعظمه، ويسجد لـه ويخـضع، ويشهد له بالوحدانية سبحانه.

هذا ما ينص عليه القرآن الكريم في مثل قول الله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾. [الإسراء: ٤٤].

فهذه الآية الكريمة صريحة في الدلالة على أن جميع المخلوقات مسبحة لله ﷻ عابدة له، إذ قررت الآية أن السماوات والأرض تسبح الله تعـالى، ثـم خصصت بالذكر العقلاء المكلفين من الملائكة والإنس والجـن، ثـم عمـت بعد ذلك الأشياء كلها ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾.[1]

قال ابن كثير: (وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات).[2]

ومثل هذه الآية في الدلالة على المراد قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحج: ١٨].

---

(١) انظـر: تفـسير ابـن عطيـة: (٣/ ٤٥٩)، تفـسير القرطبـي: (١٠/ ١٧٣)، تفـسير أبي الـسعود: (٥/ ١٧٥).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٤١).

وقوله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور: ٤١].[1]

وقوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨ - ٤٩].

والمراد بالدابة في الآية كل ما يدب على الأرض مكلفًا أو غير مكلف، عاقلاً أو غير عاقل.[2]

قال الضحاك: (كل شيء فيه روح: دابة يسجد لله ﷻ).[3]

ومن الآيات الكريمة التي تشير إلى ذلك أيضًا قول الله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [البقرة: ١١٦].

قال ابن عطية: (معنى الآية أن المخلوقات كلها تقنت لله أي تخضع وتطيع).[4]

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦].

---

(١) انظر تفسير الطبري: (١٨/ ١٥٢)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٩٧)، قال ابن عطية: (٤/ ١٨٨) (قال المفسرون: قوله: ﴿ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ عامة لكل شيء، من له عقل وسائر الجمادات، لكنه لما اجتمع ذلك عبر عنه بـ ﴿مَن﴾ تغليبًا لحكم من يعقل).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٠/ ٧٥)، التسهيل: (٢/ ١٥٥)، تفسير السعدي: (٣/ ٦٣).

(٣) معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٧١)، وانظر: الدر المنثور: (٥/ ١٣٦).

(٤) تفسير ابن عطية: (١/ ٢٠١)، وانظر: تفسير الطبري: (١/ ٥٠٧، ٥٠٨)، تفسير القرطبي: (٢/ ٥٩)، تفسير ابن كثير: (١/ ١٦٠)، الدر المنثور: (١/ ٢٧٠).

قال ابن كثير: (أي ملكه وعبيده ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أي خاضعون خاشعون طوعًا وكرهًا).[1]

هذه الكائنات العابدة لله ﷻ منها ما هو مكلف عاقل ومنها ما ليس بعاقل، وفي المطلبين التاليين بيان ذلك:

المطلب الأول: المكلفون العقلاء.

ويشمل ذلك الإنس والجن والملائكة، ويمكن الإشارة إلى عبوديتهم في المسألتين التاليتين:

المسألة الأولى:

الإنس والجن

خلق الله تعالى الإنس والجن لعبادته ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن لم يعبد الله تعالى من الثقلين طوعًا واختيارًا سيعبده كرهًا واضطرارًا: خضوعًا لقهره ومشيئته سبحانه، وذلة لسلطانه وإرادته جل وعلا.

والرسل عليهم السلام وأتباعهم من المؤمنين رغبوا في عبودية الله اختيارًا، واتجهوا إلى الإسلام طوعًا، فوعدهم الله تعالى بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، والقرآن الكريم مليء بدلائل ذلك وشواهده.

والجن كالإنس في ذلك.[2] فمنهم المؤمن العابد طوعًا، ومنهم الكافر

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٣٠)، وانظر: تفسير الطبري: (٢١/ ٣٤-٣٥).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (٤/ ٢٣٣ ـ ٢٣٧، ١٣/ ٧٩ ـ ٨٠، ٨٥ ـ ٨٧).

العابد كرهًا، كما قال جل وعلا حكاية عنهم ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن: ١١].

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤].

وقد نص القرآن الكريم على دعوة الرسول ﷺ لهم، وعلى استماعهم للقرآن، وإيمان فريق منهم بعد تأثرهم ويقينهم أنه من عند الله ﷻ.

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].[1]

عن ابن عباس ﷺ قال: (انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ[2] وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب) وفيه (فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة[3] وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه

(١) انظر: الفرقان: (ص: ٧٩، ٨١)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٧١)، الدر المنثور: (٧/ ٤٥٢- ٤٥٣، ٨/ ٢٩٦- ٢٩٧).

(٢) بضم العين وتخفيف الكاف، و هو موضع بقرب الطائف كانت تقام به في الجاهلية سوق تجتمع فيه قبائل العرب فيتعاكظون أي يتفاخرون ويتناشدون. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٢٨٤)، المغني لمحمد طاهر الهندي، طبعة دار الكتاب العربي: (ص: ١٧٧)، الروض الأنف للسهيلي، طبعة دار الفكر: (٢/ ١٦٩).

(٣) بفتح النون وسكون الخاء: موضع بين مكة والطائف. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٤٩)، فتح الباري: (١٨/ ٣٢٠)، ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ٣٤٤).

صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].[1]

ومن حديث ابن مسعود[2] ﷺ قال: (كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا استطير أو اغتيل[3]، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاءٍ من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: [أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن].[4]

وعن جابر[5] ﷺ قال: (خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الجن: (٤/ ١٨٧٣ ـ ١٨٧٤)، ومسلم بنحوه في كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن: (١/ ٣٣١ ـ٣٣٢)، وانظر تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٧٨).

(٢) هو عبد الله بن مسعود بن غافل، أبو عبد الرحمن الهذلي، حليف بني زهرة، أحد السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بالقرآن بمكة، شهد بدرا والمشاهد كلها، لازم النبي ﷺ وأكثر من رواية الحديث عنه، وكان من القراء المشهورين، توفي سنة اثنتين وثلاثين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٣٩٥- ٤٢٢)، الإصابة: (٤/ ١٩٨- ٢٠١).

(٣) (أي ذُهِب به بسرعة، كأن الطير حملته، أو اغتاله أحد. والاستطارة والتطاير: التفرق والذهاب) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١٥٢).

(٤) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن: (١/ ٣٣٢).

(٥) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، أبو عبد الله الأنصاري، من بني سلمة، شهد بيعة العقبة الثانية وكان أصغرهم يومئذ سنًّا. أحد المكثرين عن النبي ﷺ، توفي سنة ثمان وسبعين، وكان آخر أصحاب رسول الله ﷺ موتًا بالمدينة. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٦٤٨ – ٦٤٩)، الإصابة: (١/ ٥٤٦ – ٥٤٧).

سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: [لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودا[1] منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد].[2]

المسألة الثانية:

الملائكة عليهم السلام

وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام بأنهم عباده فقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف: ١٩] وذلك في معرض الرد على أباطيل المشركين.

كما أثنى عليهم جل وعلا بصفة العبودية وشرف بها مقامهم ومنزلتهم عنده سبحانه.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

---

(١) (أي أحسن ردًا وجوابًا لما تضمنه الاستفهام التقريري المتكرر فيها) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري، ط١، دار الحديث: (٨/ ٢٧٦).

(٢) رواه الترمذي (سنن الترمذي، ط٢، دار سحنون) في كتاب التفسير، باب ومن سورة الرحمن: (٥/ ٣٩٩)، وقال: حديث غريب، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي: المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، ط١، دار الكتب العلمية: (٢/ ٥١٥)، وصححه الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة، ط١، مكتبة المعارف: (ص: ٥٣٢)، وانظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، طبعة دار الفكر: (٧/ ٢٥٤)، الدر المنثور: (٧/ ٦٨٩)، تحفة الأحوذي: (٨/ ٢٧٧).

وبين تبارك وتعالى أنهم عليهم السلام لا يأنفون أو يتكبرون عن الخضوع والاستسلام لعبوديته جل وعلا: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧٢].

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩].

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ [الأنبياء: ١٩].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

والمراد بـ ﴿ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ الملائكة عليهم السلام.[1]

ومن مظاهر عبوديتهم لله تعالى التسبيح والتحميد، والتمجيد والتعظيم، والصلاة والسجود ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢].

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ٢٢٦، ١١/ ١٨٤)، زاد المسير: (٣/ ٢١٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ١٤٨)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٧٥، ٢/ ٢٨٢).

وقد فسر قتادة[1] تسبيح الملائكة بالتسبيح المعلوم في اللغة وهو تنزيه الله تعالى عن صفات النقص.[2]

قال القرطبي: (وهو الصحيح)[3] مستشهدا بحديث أبي ذر[4] ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: [ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده].[5]

والتقديس (التطهير والتعظيم)[6] فمعنى ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (أي نعظمك ونمجدك ونطهر ذكرك عما لا يليق بك).[7]

وعلى هذا فالتسبيح والتقديس متقارب في المعنى.

قال الزمخشري: (التسبيح تبعيد الله عن السوء، وكذلك تقديسه).[8]

---

(١) هو قتادة بن دعامة، أبو الخطاب السدوسي البصري، حافظ مفسر ثقة، من أوعية العلم، اشتهر بقوة الحفظ، توفي سنة سبع عشرة ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٢٥٩)، تهذيب التهذيب: (٨/ ٣١٥-٣١٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١/ ٢١١)، تفسير ابن عطية: (١/ ١١٨)، الدر المنثور: (١/ ١١٣).

(٣) تفسير القرطبي: (١/ ١٩١)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٥٤).

(٤) هو جندب ـ بضم الجيم وسكون النون وضم الدال وفتحها ـ بن جنادة ـ بضم الجيم ـ بن سكن، أبو ذر الغفاري، من السابقين إلى الإسلام، ثم كان سبباً في إسلام قبيلة غفار، أعلن إسلامه فأوذي، وعاء مليء علمًا، زاهد صادق اللهجة، توفي سنة إحدى وثلاثين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٥٨٤ –٦٠٠)، الإصابة: (٧/ ١٠٥ – ١٠٩).

(٥) رواه مسلم في كتاب الذكر، باب فضل سبحان الله وبحمده: (٣/ ٢٠٩٣).

(٦) تفسير الطبري: (١/ ٢١١)، وانظر: تفسير ابن عطية: (١/ ١١٨).

(٧) تفسير القرطبي: (١/ ١٩١).

(٨) تفسير الزمخشري: (١/ ١٥٤).

أما سجود الملائكة المعطوف على التسبيح في قوله جل وعلا: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ فالمراد به الصلاة.[1]

وقال ﷻ أيضًا في تسبيح الملائكة عموماً وحملة العرش والحافين به من الملائكة خصوصًا: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

فهم يجمعون بين التسبيح المتضمن تنزيه الله ونفي صفات النقص عنه سبحانه، والتحميد المتضمن إثبات صفات المدح والثناء له جل وعلا.[2]

ويقول تبارك وتعالى أيضًا حكاية عنهم قولهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤ - ١٦٦].

أي أن لكل ملك في السماوات مكانًا معلومًا وموضعًا مخصوصًا يعبد الله تبارك وتعالى فيه، وأن من أعمال الملائكة عليهم السلام الوقوف صفوفًا خضوعًا وإجلالاً لله تعالى، يسبحونه ويعظمونه ويصلون له جل وعلا.[3]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٦٨)، زاد المسير: (٣/ ٢١٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٧١)، وانظر: القولين في الآية الأولى وعلاقة الثانية بها في تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٤٧، ٥/ ٢٦)، تفسير القرطبي: (١٦/ ٥)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٥٠٨)، أضواء البيان: (٧/ ١٥٣).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣١٦)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٥)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٣)، الدر المنثور: (٧/ ١٣٥ – ١٣٨)، فتح القدير: (٤/ ٢١٣).

عن حذيفة[1] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة] الحديث.[2]

وفي حديث جابر بن سمرة[3] ﷺ أن رسول الله ﷺ (خرج علينا فقال: [ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟] فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: [يتمون الصفوف الأُوَل ويتراصون في الصف].[4]

قال النووي[5] في شرح هذا الحديث: (وفيه الأمر بالسكون في الصلاة والخشوع فيها والإقبال عليها، وأن الملائكة يصلون، وأن صفوفهم على

(١) هو حذيفة بن اليمان العبسي (واسم اليمان حسيل بن جابر)، أبو عبد الله، شهد أحدًا وما بعدها، كان يكثر من سؤال رسول الله ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه، وكان صاحب سره في المنافقين، ولاه عمر ﷺ على المدائن، توفي سنة ست وثلاثين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٦١٠ – ٦١٦)، الإصابة: (٢/ ٣٩ – ٤٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة: (١/ ٣٧١).

(٣) هو جابر بن سَمُرة ـ بضم الميم ـ بن جُنادة العامري السُّوائي، حليف بني زهرة، سكن الكوفة وشهد فتح المدائن، توفي سنة أربع وسبعين. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ١٢٧٦)، الإصابة: (١/ ٥٤٢ – ٥٤٣).

(٤) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة: (١/ ٣٢٢).

(٥) هو يحي بن شرف الحوراني، محي الدين النواوي، الشافعي، أبو زكريا، فقيه مجتهد، عارف بالحديث ورجاله، شيخ الإسلام، عابد زاهد ورع، ولد في نوا من قرى حوران بسورية، وإليها نسبته، من مصنفاته: شرح صحيح مسلم، وشرح المهذب للشيرازي، توفي سنة ست وسبعين وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٤١٧٤ – ٤١٧٦)، الأعلام: (٨/ ١٤٩ – ١٥٠).

هذه الصفة. والله أعلم).[1]

وعن عمر[2] ﷺ أنه: كان (إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال: أقيموا صفوفكم واستووا فإنما يريد الله بكم هدي الملائكة، يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾.[3]

وفي حديث أبي ذر ﷺ إشارة إلى عظم عبودية الملائكة لله جل شأنه مع كثرة عددهم في السماء، قال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ: [إني أرى مالا ترون، وأسمع مالا تسمعون، أطت[4] السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله].[5]

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (٤/ ١٥٤).

(٢) هو عمر بن الخطاب بن نفيل، القرشي العدوي، أبو حفص الفاروق أمير المؤمنين، كان إسلامه فتحًا على المسلمين، هاجر جهرًا، وشهد بدرًا والمشاهد كلها، شهدت خلافته فتوحات عظيمة، استشهد سنة ثلاث وعشرين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٢٦٨ – ٢٩٣)، الإصابة: (٤/ ٤٨٤ – ٤٨٦).

(٣) تفسير الطبري: (٢٣/ ١١٢).

(٤) بفتح الهمزة وشد الطاء أي صوّتت من ثقل ما عليها من ازدحام الملائكة عليهم السلام، من الأطيط وهو صوت الإبل وما عليها من الرحل. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٥٤)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، طبعة دار المعرفة: (١/ ٥٣٦)، تحفة الأحوذي: (٦/ ١٨٥).

(٥) رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً): (٤/ ٥٥٦)، وقال هذا حديث حسن غريب، وابن ماجة (سنن ابن ماجه، طبعة دار الكتب العلمية) في كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء: (٢/ ١٤٠٢)، وأحمد في المسند، ط٢، دار سحنون: (٥/ ١٧٣)، والحاكم في المستدرك: (٤/ ٦٢٣)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه أيضًا المناوي في فيض القدير: (١/ ٥٣٧)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٢٤٥).

وكذلك ما تضمنه حديث الإسراء من قوله عليه الصلاة والسلام [فرفع لي البيت المعمور فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم].(١)

إن هذه العبودية من الملائكة عليهم السلام دائمة بلا انقطاع، مستمرة دون ملل أو كلل، لا يصاحبها سأم أو فتور، ولا يحصل معها إعياء أو حسور.

يقول الله جل وعلا في وصف ملائكته عليهم السلام: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠].

قال الزجاج: (يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيا).(٢)

فهم دائبون في عبادة الله تعالى وتسبيحه في جميع أوقاتهم وفي كل أحوالهم، لا يعيون ولا يضعفون ولا يملون. كما قال سبحانه: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ [فصلت: ٣٨].

قال أبو حيان: (أي لا يملون ذلك).(٣)

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة: (٣/ ١١٧٣ - ١١٧٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ: (١/ ١٤٩ - ١٥١).

(٢) معاني القرآن: (٣/ ٣٨٧)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ١٤٩)، تفسير القرطبي: (١١/ ١٨٤)، الدر المنثور: (٥/ ٦٢١).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٩٩)، وانظر: المفردات: (ص: ٢٢٦).

ومع هذا الدأب العظيم في العبادة، فهم على حال عظيم من الخوف والوجل والإشفاق، تعظيمًا ومهابة وإجلالاً لربهم سبحانه، فيزدادون له تسبيحًا وتحميدًا.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٤٩ - ٥٠].

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ (١) بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣].

﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالملائكة عليهم السلام يخشون الله تعالى، وبسبب هذه الخشية البالغة يشفقون منه سبحانه حذرًا من معصيته المستوجبة للعقوبة.

قال الشوكاني: (والخشية الخوف مع التعظيم، والإشفاق الخوف مع التوقع والحذر، أي لا يأمنون مكر الله).(٢)

---

(١) قال البغوي في تفسيره: (٣/ ١١) (أكثر المفسرين على أن الرعد اسم ملك يسوق السحاب). انظر: معاني القرآن للزجاج: (٣/ ١٤٣)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٤٨٢ - ٤٨٣)، تفسير الواحدي: (١/ ٥٦٧)، تفسير السمعاني: (٣/ ٨٣)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٠٣)، التسهيل: (٢/ ١٣٢) وهذا القول مروي عن عدد من الصحابة والتابعين. انظر: الدر المنثور: (٤/ ٦٢٠-٦٢٣)، ويؤيده ما رواه أحمد في المسند: (١/ ٢٧٤)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الرعد: (٥/ ٢٩٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: أن يهود سألت رسول ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال: [ملك من الملائكة موكل بالسحاب] الحديث. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٥٧٧ - ٥٧٨). وعلى هذا فعطف الملائكة في الآية الكريمة من باب عطف العام على الخاص. انظر: فتح القدير: (٣/ ٧٥).

(٢) فتح القدير: (٣/ ٤١٠)، وانظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٧).

وفي حديث أبي هريرة[1] ﷺ قال: إن نبي الله ﷺ قال: [إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعانًا[2] لقوله، كأنه سلسلة على صفوان[3]، فإذا فزع عن قلوبهم[4]، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير].[5]

فهذا الحديث يؤكد خضوع الملائكة لأمر الله تعالى، وانتظارهم لما يتنزل من وحي الله، في حال من الوجل والخوف هيبةً وتعظيمًا لربهم جل وعلا.[6]

ويدل هذا الحديث الصحيح على أن الضمير في لفظ ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ

(١) هو أبو هريرة بن عامر الدَّوْسي، واختلف في اسمه فقيل عمير وقيل عبد الرحمن وقيل غير ذلك، وكني بأبي هريرة لهرة كان يحملها، أسلم بين الحديبية وخيبر، كان أكثر الصحابة ﷺ حديثًا عن رسول الله ﷺ، ومن أشدهم حفظًا، وكان ملازمًا له عليه الصلاة والسلام، توفي سنة سبع وخمسين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٦٨٥ – ٦٩٤)، الإصابة: (٧/ ٣٤٨ – ٣٦٢).

(٢) (خُضْعانا) بضم الخاء وسكون الضاد: مصدر بمعنى خاضعين منقادين. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٤٣)، فتح الباري: (١٨/ ١٥٦).

(٣) (كأنه سلسلة على صفوان) أي صوت الملك بالوحي، والصفوان هو الحجر الأملس، كقوله في الحديث الآخر [مثل صلصلة الجرس] انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤١)، فتح الباري: (١٨/ ١٥٦ – ١٥٧).

(٤) أي (كشف الفزع عن قلوبهم) معاني القرآن للزجاج: (٤ / ٢٥٣).

(٥) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ...﴾ (٤/ ١٨٠٤).

(٦) انظر: فتح الباري: (١٣/ ٤٥٦)، ط دار الفكر.

ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] يعود إلى الملائكة عليهم السلام.

قال ابن حجر: (والمراد بهم الملائكة، وهو المطابق للأحاديث الواردة في ذلك فهو المعتمد).[1]

وهو ما رجحه عدد من المفسرين كابن جرير[2] والزجاج[3] وابن عطية[4] وأبي حيان.[5]

ومن سمات الملائكة عليهم السلام في دائرة عبوديتهم لله تعالى الطاعة المطلقة، والتنفيذ الكامل، والامتثال المستمر، لما يتنزل عليهم من التكاليف.

قال الله تعالى عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ – ٢٨].

(١) فتح الباري: (١٣/ ٤٥٦)، وانظر: (٤٥٥، ٤٥٩)، ط، دار الفكر.

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٩٠ – ٩٢).

(٣) انظر: معاني القرآن: (٤/ ٢٥٣).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ٤١٨).

(٥) انظر: تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢٧٦ – ٢٧٧).

قال ابن قتيبة في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ (لا يقولون حتى يقول ويأمر وينهى ثم يقولون عنه).[1]

فهم عليهم السلام لا يتجاوزون أمر الله سبحانه، ولا يتعدون إذنه، ولا يتقدمون بين يديه بأمر أو نهي، بل يتبعون قوله، ويلتزمون وحيه جل وعلا.

المطلب الثاني: غير العقلاء

أثبت الله تعالى لمخلوقاته من غير العقلاء تسبيحًا وسجودًا له جل وعلا.

ومن الآيات المشتملة على ذلك قول الله سبحانه:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

(١) تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٨٥)، وانظر تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٠٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٧٦)، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الدمشقي، ط١، دار البيان: (ص: ٢٧٣-٢٧٥).

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فهذه الآيات الكريمات تبين أن جميع المخلوقات، ومنها الحيوان والطير والنبات وسائر الجمادات، تسبح الله تعالى وتعظمه وتنزهه عما لا يليق من الصفات.

والتسبيح في هذه الآيات جاء التعبير عنه بلفظ الفعل الماضي والمضارع.

قال أبو حيان: (وكله يدل على الديمومة والاستمرار، وأن ذلك ديدن من في السماوات والأرض).[1]

وبالإضافة إلى هذه الآيات العامة المقررة لعبودية المخلوقات من غير المكلفين هناك آيات أخرى خصت بالذكر تسبيح وسجود بعض المخلوقات لله تبارك وتعالى.

وفي المسألتين التاليتين إيراد لبعض تلك النصوص، وأهم الأقوال في توجيه المراد من ذلك التسبيح:

المسألة الأولى: بعض الآيات الواردة في عبودية غير العقلاء تنصيصًا.

١. يقول الله جل وعلا: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فهذه الآية الكريمة صريحة في تسبيح السماوات والأرض لله تعالى.

(١) تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢١٧)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٧٠)، الروض الريان في أسئلة القرآن لشرف الدين الحسين بن ريان، ط١، مكتبة العلوم والحكم: (ص: ٤٧٤)، فتح الرحمن: (ص: ٣٤٠).

٢. ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

فالآية الكريمة تقرر أن الطير يسبح الله تعالى ويعظمه ويخضع له، والمراد بقوله ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي في حال طيرانها قد اصطفت أجنحتها في الهواء.[1]

قال ابن كثير: (أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة، ولهذا قال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله ﷻ).[2]

٣. ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨ - ١٩].

تتضمن هذه الآيات الكريمات أمر الجبال والطير بالتسبيح مع داود عليه السلام ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ أي رجّعي معه التسبيح كلما سبح.[3]

(١) انظر تفسير ابن عطية: (٤/ ١٨٨)، تفسير القرطبي: (١٢/ ١٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٩٧).

(٣) انظر: غريب القرآن وتفسيره لليزيدي، ط١، عالم الكتب: (ص: ٣٠٥)، معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٢٤٣)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٨٠)، تفسير القرطبي: (١٤/ ١٧٠)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٥٢٧).

قال ابن عطية: (أي يسبح هو وترجع هي معه التسبيح أي ترده بالذكر).[1]

وكان ذلك معجزة لداود عليه السلام، أن ذلل الله تعالى له الجبال والطير، تجاوبه بالتسبيح إذا سبح عليه السلام وتتابعه فيه ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي أول النهار وآخره ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي تجتمع إليه الطير فتسبح الله تعالى معه عليه السلام[2]، ومن ثَم تشترك الجبال والطير مع داود عليه السلام في الأوبة إلى عبادة الله جل وعلا وتسبيحه، ولذلك قال سبحانه ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

قال الشوكاني: (أي كل واحد من داود والجبال والطير رجاع إلى طاعة الله وأمره).[3]

٤. ويقول تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨].

تذكر الآية الكريمة أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والحيوانات، كل ذلك يسجد لخالقه تبارك وتعالى، طائعًا خاشعًا منقادًا

(١) تفسير ابن عطية: (٤/ ٤٠٧).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٧٩)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٠٥)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٩، ٣٠).

(٣) فتح القدير: (٤/ ٤٢٣)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ١٣٨)، معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٣٢٤)، زاد المسير: (٦/ ٣٢٤).

عابدًا.

وقد ورد سجود الشمس خاصة في حديث أبي ذر ﷺ في الصحيحين (قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: [تدري أين تذهب] قلت: الله ورسوله أعلم، قال: [فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها] الحديث.[1]

وفي رواية لمسلم[2]: [إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها] الحديث.[3]

٥. ويقول جل شأنه: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ٦].

في الآية الكريمة تصريح بسجود النجم والشجر لله تعالى.

وقد اختلف المفسرون في المراد بالنجم في الآية على قولين:

الأول: أن المراد بالنجم النبات الذي لا ساق له، سمي نجمًا لأنه

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان: (٣/ ١١٧٠)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان: (١/ ١٣٩)، وانظر: فتح الباري: (١٣ / ٤١٤) ط دار الفكر.

(٢) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم، أبو الحسين القشيري النيسابوري، إمام حافظ حجة، صاحب الصحيح، أجمعوا على جلالته وإمامته وورعه وإتقانه، ارتحل في طلب الحديث وسماعه إلى العراق والحرمين ومصر والشام وغيرها، توفي بنيسابور سنة إحدى وستين ومائتين. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ٥٦٤ – ٥٦٨)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٨٣٥ – ٣٨٤٠).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان: (١/ ١٣٨)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٩٧)، فتح الباري: (١٣/ ١٩، ١٨/ ١٦١).

ينجم من الأرض أي يظهر ويطلع.

وعلى هذا القول أكثر المفسرين، وذلك باعتبار مناسبته للشجر المذكور في الآية، ومقابلته لما في الآية السابقة من ذكر الشمس والقمر.

وممن اختار هذا القول أو رجحه اليزيدي، وابن قتيبة، وابن جرير، والبغوي، والزمخشري، والرازي، وأبو حيان، وأبو السعود.[1]

الثاني: أن المراد بالنجم في الآية نجوم السماء.

ورجح هذا القول ابن كثير، وتابعه محمد الأمين، وذلك باعتبار اجتماع النجم والشجر في آية سورة الحج.[2]

وجوز الزجاج أن يكون المراد ما يشمل القولين معا، قال: (ويجوز أن يكون النجم هاهنا يعني به ما نبت على وجه الأرض، وما طلع من نجوم السماء، يقال لكل ما طلع قد نجم).[3]

٦. ويقول ﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥].

(١) انظر: غريب القرآن: (ص: ٣٦٠)، تفسير غريب القرآن: (ص: ٤٣٦)، تفسير الطبري: (٢٧/ ١٧)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٦٧)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٤٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٨٩)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ١٨٩)، تفسير أبي السعود: (٨/ ١٧٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٧٠)، أضواء البيان: (٧/ ٧٣٧).

(٣) معاني القرآن: (٥/ ٩٦)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٢٤)، زاد المسير: (٧/ ٢٥٥)، تفسير القرطبي: (٧/ ١٠٠ – ١٠١).

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨].

والشاهد في الآيتين الكريمتين ما تضمنتهما من سجود الظلال لله تعالى.

وذلك يشمل ظل الإنسان مؤمنًا كان أو كافرًا ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[1] أي: وتسجد ظلالهم لله سبحانه.[2]

عن مجاهد قال: (ظل المؤمن يسجد طوعًا وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعًا وهو كاره).[3]

كما يشمل ذلك ظل الأشياء والأجسام القائمة التي لها ظل كالجبال والأشجار ونحوهما[4] ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ أي: يميل ويرجع من جانب إلى جانب، ويكون أول النهار على حال وآخر النهار على حال أخرى[5] ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ فكما أن هذه الأشياء والأجرام داخرة أي صاغرة خاضعة لله تعالى فإن

(١) الغدو أول النهار، والأصيل آخره ما بين العصر إلى غروب الشمس، وتخصيص الوقتين لازدياد ظهور الظلال فيهما. انظر: تفسير البيضاوي: (١/ ٥٠٤).

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٣/ ١٤٤)، زاد المسير: (٤/ ٢٣٥).

(٣) تفسير الطبري: (١٣/ ١٣١)، تفسير البغوي: (٣/ ١٢)، وانظر: الدر المنثور: (٤/ ٦٣).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٩٧)، تفسير القرطبي: (١٠/ ٧٤)، فتح القدير: (٣/ ١٧١).

(٥) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٤٣)، تفسير الطبري: (١٤/ ١١٤)، زاد المسير: (٤/ ٣٣٠).

ظلالها أيضًا تسجد لله جل وعلا.[1]

المسألة الثانية: المراد من تسبيح غير العقلاء

في توجيه المراد من تسبيح غير العقلاء ثلاثة أقوال رئيسة[2]، يمكن إيجاز الحديث عنها فيما يلي:

القول الأول:

أن تسبيح غير العقلاء تسبيح بلسان الحال لا بلسان المقال، وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة، والمعنى أن حال هذه المخلوقات من الحيوان والنبات والجماد يشهد على وحدانية الله وجلاله، وذلك فيما يظهر عليها من آثار الإبداع في الصنع، والإتقان في الخلق، والحكمة في التقدير، بما يدل على عظيم قدرة الله جل شأنه، فهي في ذاتها لا إدراك لها، لكنها تدعوا المتأمل فيها من ذوي الإدراك إلى تسبيح الله وتمجيده جل وعلا.

وإلى هذا القول مال الرازي، وحجته أن تسبيح المقال مبني على تحقق النطق والإدراك الذي يفتقده غير العقلاء.

يقول الرازي: (اعلم أن الحي المكلف يسبح الله بوجهين. الأول: بالقول كقوله باللسان: سبحان الله، والثاني: بدلالة أحواله على توحيد الله تعالى وتقديسه وعزته.

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١١٦)، تفسير الزمخشري: (٢/ ٥٦٩)، تفسير النسفي: (٢/ ٢٠٧-٢٠٨)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٤٩٨).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٥٩)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٧٣)، أضواء البيان: (٨/ ١٥-١٦).

فأما الذي لا يكون مكلفًا مثل البهائم، ولا يكون حيّاً مثل الجمادات، فهي إنما تسبح الله تعالى بالطريق الثاني، لان التسبيح بالطريق الأول لا يحصل إلا مع الفهم والعلم، والإدراك والنطق، وكل ذلك في الجماد محال، فلم يبق حصول التسبيح في حقه إلا بالطريق الثاني).[1]

القول الثاني:

أن العموم الوارد في تسبيح المخلوقات معناه الخصوص في الكائنات التي تتصف بالحياة والنمو من حيوان أو نبات، ومن ثمّ فلا يشمل ذلك الجمادات التي لا حياة فيها ولا نماء.

ويُستدلّ لهذا القول بما ورد في الحديث من رواية ابن عباس ﷺ قال: (مرّ النبي ﷺ بقبرين، فقال: [إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة] ثم أخذ جريدة رطبة[2] فشقها نصفين، فغرز في كل قبر واحدة. قالوا: يا رسول الله،لم فعلت هذا قال: [لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا].[3]

(١) تفسير الفخر الرازي: (٢٠/ ٢١٨)، وانظر: (٢٠/ ١١٩ - ٢٢٠، ٢٤/ ١٠، ٢٩/ ٢٠٦-٢٠٧)، فتح الرحمن: (ص: ١٨٨).

(٢) الجريدة السّعَفَة، وجمعها جريد، والرّطب بفتح الراء وسكون الطاء خلاف اليابس. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٥٧)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ١٦٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول: (١/ ٨٨)، ومسلم بنحوه في كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه: (١/ ٢٤٠ - ٢٤١).

ووجه الاستدلال أنهما يسبحان مادام فيهما خضرة وحياة، فإذا يبسا صارا جماداً وانقطع تسبيحهما.[1]

القول الثالث:

أن اللفظ باق على عمومه، وأن تسبيح غير العقلاء كائن بلسان المقال على سبيل الحقيقة، وأنها تنطق به بإدراك يعطيهم الله تعالى إياه، وبكيفية يعلمها الله جل شأنه، إذ نصت الآية الكريمة على أن كل شيء يسبح تسبيحًا لا يفقهه البشر: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وهذا القول هو الراجح في المسألة، وبه قال جمع من المفسرين، وعزاه ابن عطية إلى الجمهور.[2]

قال السمعاني[3]: (ذكر بعضهم أن تسبيح الجمادات هو أثر الصنع فيها، والأصح أن التسبيح حقيقة، وهو قول أهل السنة، لأنه لو كان المراد منه

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٥٩)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٧٣)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤١)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ٢٠٢)، فتح الباري: (١/ ١١٠).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٨٨).

(٣) هو منصور بن محمد بن عبد الجبار، أبو المظفر المروزي السمعاني الشافعي، إمام عصره، مفتي خراسان، حجة أهل السنة، محدث مفسر، وأصولي فقيه، كان بحرًا في الوعظ، من مصنفاته: المنهاج لأهل السنة، وتفسير القرآن العزيز (تفسير السمعاني)، توفي سنة تسع وثمانين وأربع مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٩٥٧ - ٣٩٥٨)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ١٤٣-١٤٤).

أثر الصنع لم يكن لقوله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ معنى، لأن أثر الصنع يعلمه ويفهمه كل واحد).[1]

وقال البغوي: (مذهب أهل السنة والجماعة أن لله تعالى علمًا في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء، لا يقف عليه غير الله، فلها صلاة وتسبيح وخشية، فيجب على المرء الإيمان به، ويكل علمه إلى الله ﷻ).[2]

وقال القرطبي: (ذلك تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال).[3]

وقال أيضًا بعد إيراده جملة من الأحاديث (الصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك، ولو كان ذلك التسبيح دلالة فأي تخصيص لداود[4]، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا، وقد مضت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء، فالقول به أولى).[5]

---

(١) تفسير السمعاني (تفسير القرآن العزيز) طبعة دار الوطن: (٥/ ٣٦٤)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٥/ ١٢١)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٥٩)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٧٣).

(٢) تفسير البغوي: (١/ ٨٥- ٨٦) (مع اختصار يسير)، وانظر: (٣/ ١١٧)، تفسير السمعاني: (١/ ٩٦، ٣/ ٢٤٤)، وكلام إسحاق بن راهويه: جامع العلوم والحكم لابن رجب، ط٧، مؤسسة الرسالة: (٢/ ١٧٢ – ١٧٣).

(٣) تفسير القرطبي: (٥/ ١٠٥)، وانظر: (١٧/ ١٥٣).

(٤) يعني ما ورد في الآية الكريمة ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

(٥) تفسير القرطبي: (١٠/ ١٧٤)، وانظر: (١٤/ ١٧٠)، الروح لابن القيم، ط١، دار الفكر: (ص: ٩٤- ٩٥).

وقال النووي: (المحققون على أنه يسبح حقيقة، وقد أخبر الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] وإذا كان العقل لا يحيل جعل التميز فيها، وجاء النص به، وجب المصير إليه).[1]

وقال ابن كثير في تفسير آية الإسراء: (أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين)[2] ثم استدل لذلك ببعض الأحاديث في هذا الباب.

وقال الثعالبي[3]: (اختلف في هذا التسبيح هل هو حقيقة أو مجاز، والصواب أنه حقيقة ولولا خشية الإطالة لأتينا من الدلائل على ذلك بما يثلج له الصدر).[4]

وقال محمد الأمين: (هذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن تسبيح الجمادات المذكور فيها، وفي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ٢٠٢)، وانظر: (١٥/ ٣٦ – ٣٧)، مجموع الفتاوى: (١/ ٤٧).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٤١).

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، أبو زيد الثعالبي المالكي، من أعيان الجزائر، إمام علامة مفسر، من مصنفاته: الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي)، وجامع الأمهات في أحكام العبادات، توفي سنة ست وسبعين وثمان مائة. انظر: طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ٣٤٢)، الأعلام: (٣/ ٣٣١).

(٤) تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، طبعة مؤسسة الأعلمي: (٢/ ٣٤٤).

﴿ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ ونحو ذلك تسبيح حقيقي، يعلمه الله ونحن لا نعلمه).[1]

وفي السنة الشريفة أيضًا ما يفيد تسبيح الكائنات من غير العقلاء، وما يدل على أن لها نطقًا وإدراكًا خاصًا، بها ومن ذلك ما يلي:

- عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [قرصت نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح].[2]

قال ابن حجر: (استدل به على أن الحيوان يسبح الله تعالى حقيقة).[3]

- وعن أبي هريرة ﷺ قال: (صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس فقال: [بينما رجل يسوق بقرة، إذ ركبها فضربها فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث] فقال الناس: سبحان الله، بقرة تكلم، فقال: [فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر ـ وما هما ثَمّ[4]ـ

(١) أضواء البيان: (٧/ ٨٠٤)، وانظر: (٤/ ٦٧٣- ٦٧٤، ٦/ ٢٤٥، ٦٠٥، ٨/ ١٦- ٢٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق: (٣/ ١٠٩٩)، ومسلم بنحوه في كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل: (٢/ ١٧٥٩).

(٣) فتح الباري: (١٣/ ٩٥)، وانظر: صحيح القصص النبوي لعمر الأشقر، طبعة دار النفائس: (ص: ١٦٧- ١٦٨).

(٤) من كلام الراوي، والمقصود أن أبا بكر وعمر ﷺ لم يكونا حاضرين، (قال العلماء: إنما قال ذلك ثقة بهما، لعلمه بصدق إيمانهما، وقوة يقينهما، وكمال معرفتهما لعظيم سلطان الله وكمال قدرته. ففيه فضيلة ظاهرة لأبي بكر وعمر ﷺ) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ١٥٦)، وثم بفتح الثاء اسم بمعنى هناك. انظر: ترتيب القاموس: (١/ ٤٢٠).

وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب هذا: استنقذتها مني فمن لها يوم السَّبُع، يوم لا راعي لها غيري][1] فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم. قال: [فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر] وما هما ثَمّ).[2]

- وعن عبد الله بن جعفر[3] ﷺ: (أن رسول الله ﷺ دخل حائطا[4] لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنّ وذرفت عيناه فأتاه النبي ﷺ، فمسح ذفراه[5] فسكت، فقال: [من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟] فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله، فقال: [أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه

(١) السبع بضم الباء وسكونها، أي الأسد، والمعنى: من لها يوم يتعرض لها الأسد فتفر أنت منه، وأتخلف بعده لا راعي لها حينئذ غيري. وقيل غير ذلك. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ١٥٦- ١٥٨)، فتح الباري: (١٤/ ١٥٩- ١٦٠)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٣٦- ٣٣٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء ﷺ، باب (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم): (٣/ ١٢٨٠)، ومسلم بنحوه في كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ: (٢/ ١٨٥٧- ١٨٥٨)، وانظر صحيح القصص النبوي: (ص: ١٩٢ – ١٩٤).

(٣) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب، أبو جعفر القرشي الهاشمي، حبشي المولد، مدني الدار، له صحبة ورواية، ويعدّ في صغار الصحابة، استشهد أبوه يوم مؤته، فكفله النبي ﷺ ونشأ في حجره، كان كبير الشأن، مشهورًا بالكرم والجود، توفي سنة ثمانين. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٣٦٠- ٢٣٦١)، الإصابة: (٤/ ٣٥ – ٣٩).

(٤) الحائط (البستان من النخيل إذا كان عليه حائط وهو الجدار) النهاية في غريب الحديث: (١/ ٤٦٢)، وانظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي، طبعة دار الحديث: (٥/ ٥٠).

(٥) ذفرى البعير: أصل أذنه، أو مؤخرة رأسه، انظر النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١٦١)، معالم السنن للخطابي، طبعة دار المعرفة: (٣/ ٣٨٧)، بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني لأحمد البنا الساعاتي، طبعة دار إحياء التراث العربي: (٢٢/ ٤٨).

شكى إليّ أنك تجيعه وتدئبه[1]].[2]

- وعن جابر بن عبد الله ﷺ: (أن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار، أو رجل: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبرًا؟ قال: [إن شئتم] فجعلوا له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمها إليه، تئن أنين الصبي الذي يُسَكَّن. قال: [كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها].[3]

قال ابن حجر: (في الحديث دلالة على أن الجمادات قد يخلق الله لها إدراكاً كالحيوان، بل كأشرف الحيوان، وفيه تأييد لقول من يحمل ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ على ظاهره).[4]

- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلّ الماء، فقال: [اطلبوا فضلة من ماء] فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: [حي على الطهور المبارك، والبركة من

(١) (أي تكدّه وتتعبه)، النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٩٥)، وانظر: عون المعبود: (٥/ ٥١).

(٢) رواه أبو داود (سنن أبي داود) طبعة دار سحنون، في كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم: (٣/ ٥٠)، وأحمد في المسند: (١/ ٢٠٥)، والحاكم في المستدرك: (٢/ ١٠٩)، وصححه، ووافقه والذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (ص: ٣٦٩-٣٧٠)، وانظر: المواهب اللدنية: (٢/ ٢٧٥ – ٢٧٦).

(٣) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: (٣/ ١٣١٤).

(٤) فتح الباري: (١٤/ ٩٦)، و انظر المواهب اللدنية: (٢/ ٢٦٩ – ٢٧٣).

الله] فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل).[1]

- وعن جابر بن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ [إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن].[2]

- وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: (كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله).[3]

- وعن معاذ بن أنس[4] ﷺ، عن رسول الله ﷺ (أنه مر على قوم وهم

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: (٣/ ١٣١٢)، وانظر: فتح الباري: (١٤/ ٨١- ٨٢).

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة: (١/ ١٧٨٢)، وانظر: شرح النووي: (١٥/ ٢٦).

(٣) رواه الترمذي في كتاب المناقب، باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله ﷻ به: (٥/ ٥٩٣) وقال هذا حديث غريب، ورواه الدارمي (سنن الدارمي) طبعة دار سحنون: (١/ ١٩-٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (ص: ٦٥٧)، وانظر: كلام النووي: (٤/ ١٧١) في شرحه لحديث ابن مسعود ﷺ وقد سئل عمن آذن رسول الله ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن، قال: (آذنته بهم شجرة) وهو في صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن: (١/ ٣٣٣).

(٤) هو معاذ بن أنس الجهني، حليف الأنصار، صحابي نزل بمصر والشام، روى عن النبي ﷺ أحاديث، وروى عنه ابنه سهل بن معاذ وحده، بقي إلى خلافة عبد الملك بن مروان. انظر: الإصابة: (٦/ ١٠٧).

وقوف على دواب لهم ورواحل[1]، فقال لهم: [اركبوها سالمة[2]، ودعوها سالمة[3]، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرًا لله تبارك وتعالى منه].[4]

هذه الأحاديث وغيرها[5] تفيد أن الكائنات من غير العقلاء تسبح الله و تذكره، وأن لها نطقًا وتمييزًا خاصًا بها، بكيفية يعلمها من وهبها إياه جل شأنه.

وهي بذلك تقرر ما تضمنته آيات الكتاب العزيز، وتؤكد ما نصّت عليه، وتزيده بيانًا، والعلم عند الله تعالى.

---

(١) جمع راحلة وهي البعير القوي على الأسفار والأحمال، والذكر والأنثى فيه سواء. انظر النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٠٩).

(٢) (أي خالصة عن الكدّ والإتعاب) بلوغ الأماني: (١٩/ ٨٥).

(٣) (أي اتركوها ورفهوا عنها إذا لم تحتاجوا إلى ركوبها) بلوغ الأماني: (١٩/ ٨٥).

(٤) رواه أحمد في المسند: (٣/ ٤٣٩)، قال الهيثمي: إسناده حسن. مجمع الزوائد: (١٠/ ٢٠٥)، ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير (مع فيض القدير)، طبعة دار المعرفة: (١/ ٤٧٨).

(٥) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، ط١، دار الفكر: (١/ ٣٠٣ – ٣١٣).

المبحث الثاني
أقسام العبودية باعتبار العموم والخصوص

يوصف عموم الخلق بأنهم عبيد لله تعالى، وذلك وصف لازم لهم، شاءوا أم أبوا، أحبوا أم كرهوا.

لكن المؤمنين يختصون بعبوديتهم لله تعالى عن محبة واختيار.

وبهذا الاعتبار يمكن تقسيم العبودية لله تعالى إلى قسمين، أعرض لهما بمشيئة الله جل وعلا في المسألتين التاليتين:

المسألة الأولى:
العبودية العامة

هذه العبودية لله جل وعلا تعم الناس جميعًا، وتشمل المؤمن والكافر، ويشترك فيها الموحد والمشرك، فالكل أمام الله سبحانه عبد ذليل، خاضع صاغر.

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣].

فلا يمكن لأحد من الخلق أن يخرج عن وصف العبودية.

ومن المفسرين من حمل الإتيان الوارد في هذه الآية على أحوال الناس يوم القيامة[1]، لكن الرازي اعتبر المعنى عامًا، إذ لا تخصيص في الآية.[2]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٦/ ١٣٢)، تفسير البغوي: (٣/ ٢١٠)، زاد المسير: (٥/ ١٨٥)، تفسير القرطبي: (١١/ ١٠٦).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٢١/ ٢٥٥)، وانظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ٤٨)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٣٩).

يقول أبو السعود في تفسير الآية الكريمة: (أي ما منهم أحد من الملائكة والثقلين: ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ إلا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبودية والانقياد).[1]

وقال البقاعي: (أي منقاد له طوعًا أو كرهًا، في كل حالة وكل وقت).[2]

فالجميع مربوبون لله جل وعلا، مذللون معبدون، مقهورون مدبرون، يجري عليهم قدر الله تعالى، وهم تحت مشيئة الله وقدرته تبارك وتعالى.

يقول ابن القيم: (العبودية العامة عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك).[3]

إذ الكل ملك له سبحانه، مستسلم لأمره، منقاد لإرادته، خاضع لقضائه وتقديره، لا يقوى على الانفكاك عن ربوبيته، ولا يقدر على الممانعة لحكم الله وتدبيره جل شأنه.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

(١) تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٨٣).

(٢) نظم الدرر: (٤/ ٥٥٩)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢١٠).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٨٨).

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

قال الزمخشري: (منقادون لا يمتنع شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته).[1]

فالآيتان الكريمتان تقرران قنوت المخلوقات كلها لله تبارك وتعالى، وهو قنوت عام يتضمن معاني الذلة والانقياد والخضوع.[2]

ولا ريب أن الناس بمجموعهم متصفون بذلك، مقرون لله تعالى بالعبودية حتى وإن تمردت ظواهرهم، إذ تشهد أجسامهم على ربوبية الله جل وعلا ووحدانيته، وأنه سبحانه ربهم وخالقهم، لا يقدر أحد منهم على معارضة قضاء الله تبارك وتعالى في نوعه أو أجله، أو عوارض حياته، أو أقدار الله ﷻ فيه.

يقول ابن جرير: (وأولى معاني القنوت في قوله: ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ الطاعة والإقرار لله ﷻ بالعبودية بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصنعة والدلالة على وحدانية الله ﷻ، وأن الله تعالى ذكره بارئها وخالقها).[3]

(١) تفسير الزمخشري: (١/ ٢٠٧)، وانظر: (٣/ ٤٨١)، التسهيل: (١/ ٥٨)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٤٠).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٢٠١، ٤/ ٣٣٤- ٣٣٥)، مدارج السالكين: (١/ ٩٠).

(٣) تفسير الطبري: (١/ ٥٠٧)، وانظر: (٢١/ ٣٥)، معاني القرآن للزجاج: (١/ ١٩٨، ٤/ ١٨٣)، تفسير الثعالبي: (١/ ١٠٢)، الدر المنثور: (١/ ٢٧٠).

وأمر الله تعالى إما شرعي ديني، أو قدري كوني، وإذا كان من الناس من يعصي ويخالف أمر الله الشرعي، فإن عموم الناس منقادون طائعون لأمر الله الكوني، مستكينون لحكمه القدري لا يقدرون على ممانعته أو مخالفته سبحانه.[1]

ولفظ العبادة يتأسس في أصله اللغوي على معنى التذلل، وهو أساس يشترك فيه الخلق جميعًا، يصف حالهم مع الله، فالكل عبيد لربوبيته جل شأنه.

يقول ابن القيم: (وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع، يقال طريق معبد، إذا كان مذلَّلًا بوطء الأقدام، لكن أولياءه خضعوا له وذلوا له طوعًا واختيارًا، وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداءه خضعوا له قهرًا ورغمًا).[2]

ومن ثم فإن عبودية الكافر عبودية اضطرارية لا تقوم على اختياره، ولا ترتبط بمحبته، بل هو مضطر إليها اضطرارًا، ويكره عليها كرهًا.

يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥].

(١) انظر ما ذكره ابن كثير في معنى القنوت: (١/ ١٦٠).

(٢) مدارج السالكين: (١/ ٩٠) (مع حذف يسير)، وانظر: الكواشف الجلية عن معاني الواسطية لعبد العزيز السلمان، ط١١، (ص: ٦٤١ - ٦٤٢).

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقد أورد المفسرون عدة أقوال[1] فيما تضمنته الآيتان الكريمتان من السجود والاستسلام كرهًا لله جل وعلا، أبرزها ما يلي:

القول الأول:

أن المراد الإقرار بربوبية الله تعالى.

عن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال: (هو كقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].[2]

قال ابن عطية: (فالمعنى أن إقرار كل كافر بالصانع هو إسلام كرهًا).[3]

وعن أبي العالية[4] قال: (كل آدمي أقر على نفسه بأن الله ربي وأنا عبده، فمن أشرك في عبادته فهذا الذي أسلم كرهًا، ومن أخلص لله تعالى فهو الذي أسلم طوعًا).[5]

(١) انظر: زاد المسير: (١/ ٣٥٣، ٤/ ٢٣٥).

(٢) تفسير الطبري: (٣/ ٣٣٦)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣٧٨)، الدر المنثور: (٢/ ٢٥٥).

(٣) تفسير ابن عطية: (١/ ٤٦٦).

(٤) هو رفيع - بالتصغير - بن مِهْران، أبو العالية الرياحي البصري، كان مولى لامرأة من بني رياح، تابعي ثقة، أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب وأسلم في خلافة الصديق ﷺ، من أعلام القراء والمفسرين، توفي سنة تسعين. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٦٩٥ - ١٦٩٧)، تقريب التهذيب: (١/ ٢٥٢).

(٥) تفسير الطبري: (٣/ ٣٣٦)، الدر المنثور: (٢/ ٢٥٥)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٢/ ٥١٥).

القول الثاني:

أن إسلام الكاره كان حين أخذ الله الميثاق على بني آدم[1] أن يقروا بربوبيته ويعبدوه وحده تبارك وتعالى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ قال: (حين أخذ الميثاق).[2]

القول الثالث:

أن المراد بالكره سجود ظل الكافر وهو كاره.

عن قتادة قال: (أما المؤمن فيسجد طائعًا، وأما الكافر فيسجد كارهًا: يسجد ظله).[3]

وعن مجاهد قال: (سجود المؤمن طائعًا، وسجود ظل الكافر وهو كاره).[4]

---

(١) المراد بذلك ما ورد في الآية الكريمة ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وانظر: فتح القدير: (٢/ ٢٦٠ – ٢٦١).

(٢) تفسير الطبري: (٣/ ٣٣٦)، وانظر: تفسير البغوي: (١/ ٣٢٣)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣٧٨)، الدر المنثور: (٢/ ٢٥٤).

(٣) الدر المنثور: (٤/ ٦٣٠).

(٤) تفسير الطبري: (٣/ ٣٣٦ – ٣٣٧)، تفسير القرطبي: (٤/ ٨٢)، التسهيل: (٢/ ١٣٣)، الدر المنثور: (٤/ ٦٢٩ – ٦٣٠).

القول الرابع:

أن المراد بالكره من دخل في الإسلام من أهل النفاق خوفاً من القتل، فهم في الظاهر مسلمون ساجدون لله تعالى، وفي حقيقة الأمر باقون على كفرهم، يسلمون وهم كارهون، ويسجدون وهم كارهون.

عن الحسن[1] في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾.

قال: (أكره أقوام على الإسلام، وجاء أقوام طائعين).[2]

وعن ابن زيد[3] في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾.

قال: (من دخل طائعًا هذا طوعًا، وكرهًا: من لم يدخل إلا بالسيف).[4]

---

(١) هو الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد البصري، مولى الأنصار، من أئمة التابعين، وأحد العلماء الفقهاء، معروف بفصاحته وشجاعته، وزهده وعبادته، توفي بالبصرة سنة عشر ومائة، انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٢٣٣ – ٢٣٧)، سير أعلام النبلاء: (١/ ١٤٥٦ – ١٤٦٢).

(٢) تفسير الطبري: (٣/ ٣٣٦ – ٣٣٧)، وانظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٤٦٦)، تفسير النسفي: (١/ ٢٣١، ٢/ ١٤٢)، الدر المنثور: (٢/ ٢٥٥)، تفسير أبي السعود: (٢/ ٥٤).

(٣) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، العُمَري المدني، أخذ التفسير عن والده زيد بن أسلم، توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢١٧٩)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ١١).

(٤) تفسير الطبري: (١٣/ ١٣١)، وانظر: تفسير الزمخشري: (١/ ٤٠٧)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٠٥)، التسهيل: (٢/ ١٣٣)، الدر المنثور: (٤/ ٦٣٠).

وعلى هذا القول يكون العموم في الآيتين الكريمتين مرادًا به الخصوص، لأن من الكفار من بقي على كفره ولم يدخل الإسلام أصلًا، ولم يسجد لله تعالى لا طوعًا ولا كرهًا.[1]

القول الخامس:

أن المراد بإسلام وسجود الكافرين كرهًا خضوعهم لمشيئة الله تبارك وتعالى، وذلتهم وانقيادهم لتقديره، واستسلامهم واستكانتهم لقضائه وتدبيره، فإن إرادته جل وعلا فيهم نافذة، ومشيئته سبحانه في أقدارهم متحققة، لا يقدرون في كل ذلك على الممانعة والمغالبة، كما يشمل ذلك دعائهم إياه في المصائب، وتوجههم إليه عند الاضطرار.

وهو معنى قول الشعبي[2] في الآية الكريمة: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ قال: (استقادتهم له).[3]

وهذا القول مبني على أن الإسلام والسجود الوارد في الآيتين الكريمتين يقصد بهما المعنى اللغوي العام.

---

(١) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٣٢٣، ٣/ ١٢)، تفسير القرطبي: (٩/ ١٩٨)، فتح القدير: (١/ ٣٦٢)، أضواء البيان: (٣/ ٩٩- ١٠٠).

(٢) هو عامر بن شراحيل، أبو عمرو الهمْداني الشعبي، من أئمة التابعين، علامة عصره، فقيه مفسر، مشهور بقوة الحفظ، توفي سنة أربع ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٧٥ – ٧٧)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢١٠٠ – ٢١٠٦).

(٣) تفسير ابن عطية: (١/ ٤٦٦)، وانظر: زاد المسير: (١/ ٣٥٣)، الدر المنثور: (٢/ ٢٥٥).

قال القرطبي: (﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ أي استسلم وانقاد وخضع وذل، وكل مخلوق فهو منقاد مستسلم، لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج عنه).[1]

ويقول النحاس[2]: (السجود في اللغة الخضوع والانقياد، وليس شيء إلا وهو يخضع لله وينقاد له).[3]

ولذا قال ابن القيم في السجود الوارد في الآية: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾: (هو سجود الذل والقهر والخضوع، فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته، مقهور تحت سلطانه).[4]

وهذا القول هو أقرب الأقوال في المراد بالكره، والعلم عند الله تعالى، ويؤيده جمع من المفسرين.

يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ (أي ينقادون لإحداث ما أراده فيهم من أفعاله شاءوا أو أبوا).[5]

---

(١) تفسير القرطبي: (٤/ ٨٢).

(٢) هو أحمد بن محمد بن إسماعيل، أبو جعفر المرادي المصري النحوي، المشهور بالنحاس، إمام في العربية وأخذ النحو عن الأخفش والزجاج وغيرهما، من مصنفاته: إعراب القرآن، الناسخ والمنسوخ، توفي سنة ثمان وثلاثين وثلاث مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ٩١٢)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ٧٢، ٣٢٤ – ٣٢٥).

(٣) معاني القرآن للنحاس: (٣/ ٤٨٧)، وانظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٢٦)، المفردات: (ص: ٢٢٩).

(٤) مدارج السالكين: (١/ ٩٠).

(٥) تفسير الزمخشري: (٢/ ٤٩١)، وانظر: فتح الرحمن: (ص: ٥٧، ١٧٦).

وقال أبو حيان بعد عرضه عددًا من الأقوال في المعنى المراد: (والذي يظهر أن مساق هذه الآية إنما هو أن العالم كله مقهور لله تعالى، خاضع لما أراد منه، مقصور على مشيئته، لا يكون منه إلا ما قدر تعالى).[1]

وقال أبو السعود: (فالوجه حمل السجود على الانقياد).[2]

ويقول ابن كثير في قوله ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾: (والكافر مستسلم لله كرهًا، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع).[3]

وقد رجح ابن كثير هذا المعنى، إذ قال بعد عرضه عددًا من الأقوال: (ولكن المعنى الأول للآية أقوى).[4]

قال ابن تيمية: (ذكر إسلام الكائنات طوعًا وكرهًا لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبّد العام سواء أقر المقر بذلك أو أنكره، وهم مدينون مدبرون، فهم مسلمون له طوعًا وكرهًا، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره وقضاه، ولا حول ولا قوة له إلا به، وهو رب العالمين ومليكهم، يصرفهم كيف يشاء، هو خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم،

(١) تفسير البحر المحيط: (٥/ ٣٧٨)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (١/ ٤٣٨، ٣/ ١٤٤).
(٢) تفسير أبي السعود: (٥/ ١١)، وانظر: روح المعاني: (١٣/ ١٢٦).
(٣) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٧٨)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٨/ ١٣٠- ١٣١، ١٩/ ٣٠)، تفسير القرطبي: (٩/ ١٩٨)، تفسير القاسمي: (٤/ ١٢٤، ٩/ ٢٤٧).
(٤) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٧٨).

وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع مفطور فقير محتاج معبد مقهور، وهو الواحد القهار الخالق البارئ المصور).[1]

وقال أيضًا في سجود الكافرين كرهًا: (والصحيح أنه انقيادهم لحكمه القدري بغير اختيارهم).[2]

إن الناس مفطورون على معرفة الله تعالى، مقرون بربوبيته جل شأنه، وإن كفر به بعضهم شرعًا ودينًا، وأشركوا به عبادة وتوجها، لكنهم يشعرون في دواخلهم بحاجتهم إليه، وافتقارهم إلى غناه سبحانه، ولذلك فهم يتجهون إليه حين الشدائد، ويلجأون إليه عند الأزمات، يسألونه ويتضرعون إليه وقت الملمات، كما قال ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾[العنكبوت: ٦٥]، وهم في كل الأحوال مستسلمون لأقدار الله ونوازله فيهم، وقد يعبدونه مع عبادتهم غيره جل وعلا.

يقول ابن تيمية: (وعامة السلف على أن المراد بالاستسلام استسلامهم له بالخضوع والذل، لا مجرد تصريف الرب لهم، كما في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [الرعد: ١٥] وهذا الخضوع والذل هو أيضًا لازم لكل عبد، لابد له من ذلك، وإن كان قد يعرض له أحيانًا

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢٠٠)، وانظر: (١٠/ ١٥٤- ١٥٥).
(٢) مجموع الفتاوى: (٨/ ٤٩)، وانظر: نظم الدرر: (٢/ ١٢٠، ٤/ ١٣٥).

الإعراض عن ربه والاستكبار، فلا بد له عند التحقيق من الخضوع والذل، لكن المؤمن يسلم له طوعًا فيحبه ويطيع أمره، والكافر إنما يخضع له عند رغبة ورهبة، فإذا زال ذلك أعرض عن ربه، كما قال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس: ١٢].

وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]).[1]

ولذا وصف المشركون بالإنابة إلى الله جل شأنه في مثل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [الزمر: ٨] والمقصود الإنابة العامة لا الخاصة.

يقول ابن القيم: (والإنابة إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم: ٣٣] فهذا عام في حق كل داع أصابه ضرر كما هو الواقع.

(١) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٣٠ - ٣١)، وانظر: (١/ ٤٤- ٤٥، ١٠/ ١٥٦).

وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ [الروم: ٣٣ - ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم، والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لألوهيته، إنابة عبودية ومحبة).[1]

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تضمنت لفظ العبد بهذا المعنى العام الذي يشمل الناس جميعًا، ومنها على سبيل التمثيل قول الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٨].

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٣٩].

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣٠].

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣١].

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٢٩)، وانظر: طريق الهجرتين لابن القيم، طبعة دار الحديث: (ص: ١٦٩).

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١].

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

المسألة الثانية:

العبودية الخاصة

إذا كان الكافرون منقادين لله تعالى كرهًا، مستسلمين له جبرًا، عبيدًا لربوبيته اضطرارًا، وهم في دائرة التكوين تحت مشيئته القدرية وأمره الكوني، فإن المؤمنين يختصون باستجابتهم لله تعالى طوعًا، وسجودهم له اختيارًا، وعبوديتهم له رغبة ومحبة، فهم في دائرة التكليف منقادون لقضاء الله وأمره الشرعي، مستسلمون لمشيئته وإرادته الدينية، يتبعون شرعه، ويقبلون دينه، ويطيعون أمره، ويتذللون لتكليفه، ويصبرون على أقداره، ويخضعون لحكمه، وهم في هذه الخصوصية متفاوتون بحسب أحوالهم في درجات الإيمان ومراتبه.

يقول ابن تيمية وهو يتناول لفظ العبودية: (فإن العبد تارة يُعنى به المعبد فيعم الخلق، كما في قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] وتارة يُعنى به العابد فيخص، ثم يختلفون، فمن كان أعبد علمًا وحالا كانت عبوديته أكمل، فكانت الإضافة في حقه أكمل، مع أنها حقيقة في جميع المواضع).[1]

(١) مجموع الفتاوى: (٥/ ١٠٥)، وانظر: (١٤/ ٢٩ - ٣٠).

وبهذه العبودية الخاصة وصف المؤمنون في القرآن الكريم، وبها كان الثناء والمدح لهم في مثل قول الله تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٣].

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨].

فهؤلاء المؤمنون المشمولون في هذه الآيات ونحوها هم عبيد الله تعالى، بمعنى العابدين له جل وعلا طوعًا، الذين يألهونه سبحانه حبًا وإجلالًا وتعظيمًا، فيجمعون بين الخضوع للحقيقة الكونية، اعترافًا بربوبية الله جل شأنه، واستسلامًا لقضائه وإرادته الكونية، وبين الخضوع للحقيقة الدينية القائمة على ألوهية الله تبارك وتعالى، عبادة واستعانة به ﷻ وحده،

وانقيادًا لأمره وإرادته الشرعية، عن محبة واختيار، وخوف ورهبة، ورجاء ورغبة.

يقول ابن القيم: (فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته).[1]

ويقول أيضًا: (فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه في قوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ومن عداهم عبيد القهر والربوبية، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه، وإضافة أولئك كإضافة البيت الحرام إليه، وإضافة ناقته إليه، وداره التي هي الجنة إليه، وإضافة عبودية رسوله إليه بقول: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن:١٩]).[2]

(١) مدارج السالكين: (١/ ٨٩).

(٢) الفوائد: (ص: ٤٧)، وانظر: تفسير السعدي: (٣/ ٢١١، ٤٤٩ – ٤٥٠).

المبحث الثالث

أقسام العبودية باعتبار أعضاء الإنسان

خلق الله تعالى الإنسان فأبدع خلقه، وأحسن صورته وهيئته، وأنعم عليه بأن جعله سويًا مستقيمًا، منتصب القامة معتدلا، وهيأ له من الأعضاء والحواس ما يكون به عاقلا مدركًا، يميز بين الخير والشر، والنفع والضر، ذا قدرة وحركة وإرادة.

يقول الله جل وعلا:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ – ٧].

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢].

ولذلك أمر تبارك وتعالى عباده أن يشكروا نعمته سبحانه، باستعمال هذه الأعضاء والقوى في معرفة ربهم وتوحيده جل وعلا، وفي استغلال هذه الحواس في طاعة الله، واتباع شرعه، وإخلاص العبادة له تبارك وتعالى.

يقول ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

قال ابن كثير: (وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن من عبادة ربه تعالى فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه).[1]

وأنكر تبارك وتعالى على من لم يستفد من هذه الأعضاء في طاعة الله، وذم من لم يشكر نعمته فكفر به وعصاه.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].[2]

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٧٩).

(٢) والآية الكريمة في شأن عاد قوم هود عليه السلام.

وقد أخبرنا القرآن أن العبد راع على جوارحه وحواسه، وهو مؤاخذ ومحاسب عنها، سيسأل يوم القيامة فيما إذا كان قد استعملها في الطاعة أو المعصية.

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

والمعنى أن الإنسان مسؤول يوم القيامة عن هذه الأعضاء.[1]

كما نص القرآن أيضًا على أن الجوارح ذاتها تشهد يوم القيامة على أفعال صاحبها، إقامة للحجة عليه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

يقول السعدي: (فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته، أن يعد للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله وإخلاص الدين، وكفها عما يكرهه الله تعالى).[2]

(١) انظر: تفسير الزمخشري: (٢/ ٦٢٤)، تفسير الفخر الرازي: (٢٠/ ٢١٠)، أضواء البيان: (٣/ ٥٩٠).

(٢) تفسير السعدي: (٣/ ١٠٨).

وقد أثنى الله جل شأنه في الحديث القدسي على أوليائه من عباده المتقين، الذين تقربوا إليه تبارك وتعالى بالفرائض والنوافل، فارتقوا بمحبة الله تعالى ومعيته لهم، إلى مرتبة عالية في مقام العبودية، بحيث تتحرك أعضاؤهم فيما يحبه الله ويرضاه، بنور منه سبحانه وتوفيق.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها..].(١)

قال ابن كثير: (معنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله ﷻ، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله، أي ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله ﷻ، مستعينًا بالله في ذلك كله).(٢)

ذلك أن (لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة، وله به منفعة ولذة، فإن قام لله في ذلك العضو بأمره، واجتنب فيه نهيه، فقد أدى شكر نعمته عليه فيه، وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه، عطله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع: (٢/ ٢٣٨٥).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٧٩)، وانظر: الفوائد: (ص: ٤٤، ٦٢، ٨٠، ٨٥)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ٣٤٥ – ٣٤٧)، المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية لأبي القاسم المقدسي، ط١، مؤسسة علوم القرآن: (ص: ٨٦– ٨٧).

أكبر أسباب ألمه ومضرته).(١)

وقد ذكر ابن القيم أن بناء العبودية يقوم (على أربع قواعد: التحقّق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب (إياك نعبد) حقاً هم أصحابها).(٢)

ولما كان عمل المؤمن في دائرة التقرب إلى الله تعالى يتضمن الاعتقاد ونحوه بالقلب، أو القول باللسان، أو الفعل بالجوارح، ساغ تقسيم العبودية بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام، يمكن الإشارة إليها في المسائل التالية:

المسألة الأولى:

عبودية القلب

وظيفة القلب ومهمته أن يعبد الله جل وعلا، وتكليفه بذلك يسبق تكليف الجوارح، إذ أن عبودية القلب هي الأصل، وعبودية الجوارح تبع لها، فإذا عبد القلب ربه تبارك وتعالى، بصدق ويقين، ومحبة وإخلاص، أثر ذلك في بقية الأعضاء، فتحركت بما يرضي الله، وصدر عنها ما يحبه الله من القول والعمل، إذ القلب ملك والأعضاء جنود.

(١) الفوائد: (ص: ٢٣٤)، وانظر: إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، طبعة المكتبة العصرية: (١/ ١٢ – ١٣)، أحكام القرآن لابن العربي، طبعة دار المعرفة: (٢/ ٨٤٩)، مجموع الفتاوى: (٩/ ٣٠٧ – ٣٠٨).

(٢) مدارج السالكين: (١/ ٨٥).

ولهذا اهتم رسول الله ﷺ بصلاح القلب، حتى يكون ملك الأعضاء قائماً بعبودية الله جل شأنه.

فمن حديث النعمان بن بشير[1] ﷺ عنه يقول عليه الصلاة والسلام: [ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب].[2]

قال ابن حجر: (خص القلب بذلك لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه).[3]

وأول المهمات للرسل عليهم السلام، وأصل العلوم التي بعثوا بها، تعريف الناس بربهم سبحانه، والارتقاء بهم إلى العلم به تبارك وتعالى، والطريق الأول لذلك هو القلب قبل اللسان والجوارح، حين يتألّه القلب لله جل وعلا، تذلُّلا وحبًا، وخوفًا ورجاءً، وذلك هو أول ما تعنيه كلمة التوحيد (لا إله إلا الله).

---

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد، أبو عبد الله، الأنصاري الخزرجي، له ولأبيه صحبة، كان أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهرًا، ولي قضاء دمشق، وولاية الكوفة في عهد معاوية ﷺ، توفي سنة خمس وستين. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٤٠٣٠)، الإصابة: (٦/ ٣٤٦ - ٣٤٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه: (١/ ٢٩)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات: (٢/ ١٢٢٠).

(٣) فتح الباري: (١/ ٢١١).

وأوامر الله تعالى لعباده نوعان: أحدهما ظاهر على اللسان والجوارح، والآخر باطن يتمثل في أعمال القلب، وهذا النوع الثاني بمثابة الركيزة والأساس للأول، إذ بدون عبودية القلب تبقى عبودية الجوارح الظاهرة نفاقًا لا صدق فيه ولا إخلاص.

يقول أبو حامد الغزالي[1]: (شرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه، التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره، وفي الآخرة عدته وذخره، وإنما استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه، فالقلب هو العالم بالله، وهو المتقرب إلى الله، وهو العامل لله، وهو الساعي إلى الله، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية، فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله، وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرد على الله تعالى، وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره ، وبإظلامه واستنارته تظهر

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، زين الدين، أبو حامد الغزالي الطوسي، حجة الإسلام، نسبته إلى صناعة الغزل، أو إلى غزالة (إحدى قرى طوس)، برع في الفقه، ومهر في الكلام والجدل، وألف في الأصول وتزكية النفوس، صاحب ذكاء وفطنة، من مصنفاته: إحياء علوم الدين، والمستصفى، توفي سنة خمس وخمس مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٦٧٦ - ٣٦٨١)، الأعلام: (٧/ ٢٢ - ٢٣).

محاسن الظاهر ومساوئه، إذ كل إناء ينضح بما فيه).[1]

ومن ثم فإن حظ القلب من العبودية عظيم، وفي مقدمة ذلك أعظم الواجبات على المكلفين، وهو الإيمان بالله جل وعلا، فمن باب الاعتقاد الصحيح والتصديق الجازم بالله تعالى يلج المرء دائرة الإيمان.

ففي حديث جبريل المشهور يفسر رسول الله ﷺ الإيمان بالاعتقادات الباطنة التي هي من عمل القلب، وذلك حين سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الإيمان ، فقال عليه الصلاة السلام: [أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره].[2]

والإحسان، وهو أعلى مراتب الدين، يقوم كذلك في قاعدته وأساسه على عبودية القلب، ويمكن تأمل هذا المعنى من خلال تفسير رسول الله ﷺ للإحسان في الحديث ذاته بقوله عليه الصلاة والسلام: [أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك].[3]

وفي هذا التفسير النبوي الشريف بيان: (أن العبد يعبد الله على هذه الصفة، وهي استحضار قربه، وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٣) مع اختصار يسير.

(٢) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ الطويل في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان: (١/ ٣٦ - ٣٧).

(٣) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ الطويل في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان: (١/ ٣٦ - ٣٧).

الخشية والخوف والهيبة والتعظيم).[1]

وهذه المعاني كلها من أخص مظاهر العبودية للقلب.

ذلك أن بنيان عبودية القلب يقوم على ثلاث ركائز أساسية، هي محبة الله جل وعلا، ورجاؤه، والخوف منه تبارك وتعالى، وباجتماعها تلتئم أركان العبادة القلبية.

ثم ينبثق عن تلك الأسس أنواع كثيرة من أعمال القلوب، كالإخلاص، والصبر على طاعة الله وعن معصيته، والصبر على أقداره، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والثقة به، والإنابة إليه، والوجل من ذكره سبحانه، ومحبة رسوله ﷺ، والحب في الله والبغض فيه، والرغبة والرهبة، وتعظيمه والتذلل إليه جل شأنه، والخشوع عند سماع كلامه ﷻ، وكراهية الكفر، والفرح بالحسنة، والندم على السيئة.

ومن عبودية القلب كذلك سلامته من الرياء، والعجب والخيلاء، والحسد، والحقد، والكبر، واليأس والقنوط، وشهوة المحرمات، وكراهية ما يحبه الله ورسوله.[2]

ثم ما من عمل من أعمال البدن قولاً أو فعلاً إلا ولعبودية القلب فيه مدخل وعلاقة، بل جوهر وأساس.

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ١٢٦).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (١/ ٣٢)، مدارج السالكين : (١/ ٨٥)، فتح الباري: (١/ ١٠٥).

يقول ابن تيمية: (وكل ما أوجبه الله على العباد لابد أن يجب على القلب، فإنه الأصل، وإن وجب على غيره تبعًا، فالعبد المأمور المنهي إنما يعلم بالأمر والنهي قلبه، وإنما يقصد الطاعة والامتثال القلب).[1]

فالنية الخالصة ـ على سبيل التمثيل ـ عبادة قلبية، لكنها مرتبطة بشكل وثيق بكل عبادة من عبادات الجوارح: قولية أو فعلية، بدنية أو مالية.

ومن ثم يظهر الباعث على اهتمام الأئمة بحديث[إنما الأعمال بالنيات] وتعظيمهم لقدره، واحتفاؤهم به.

يقول عبد الرحمن بن مهدي[2]: (ينبغي أن يجعل هذا الحديث رأس كل باب).[3]

ويقول الشافعي[4] وغيره: (هذا الحديث ثلث العلم).[5]

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٤/ ١١٤).

(٢) هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان، أبو سعيد العنبري البصري، حافظ حجة، إمام في الحديث، قدوة في العلم والعمل، توفي بالبصرة سنة ثمان وتسعين ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٤/ ٥ - ٧)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٢٤٢ - ٢٢٤٦).

(٣) فتح الباري: (١/ ٣١)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٣/ ٥٣ - ٥٤)، جامع العلوم والحكم: (١/ ٦١).

(٤) هو محمد بن إدريس بن العباس، أبو عبد الله القرشي، ثم المطّلبي، الشافعي المكي، الإمام المحدث الفقيه، عالم عصره، ارتحل في طلب العلم، وصنف في أصول الفقه وفروعه، من مصنفاته: كتاب الأم، والرسالة، توفي سنة أربع ومائتين. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ١١٠ - ١٣٦)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٢٧ - ٣٢٩٧).

(٥) جامع العلوم والحكم: (١/ ٦١)، وانظر: فتح الباري: (١/ ٣١)، شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد، مؤسسة دار العلوم: (ص: ٤٢).

(ووجه البيهقي[1] كونه ثلث العلم بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة، وأرجحها، لأنها قد تكون عبادة مستقلة، وغيرها يحتاج إليها).[2]

والمقصود أن عمل الجوارح مفتقر إلى نية القلب الخالصة ليصبح عبادة مقبولة، بينما يمكن للنية أن تكون عبادة مستقلة مثابًا عليها، وذلك في حال تعذر العمل الصالح لسبب خارج عن المكنة مع خلوص النية.

المسألة الثانية:

عبودية اللسان

يأتي اللسان في المرتبة الثانية بعد القلب من حيث الأهمية في عبودية الله تعالى، إذ هو المترجم عمّا في القلب والمعبر عنه، وله أثره في حركة الجوارح إيجابا أو سلبا، ولها به أسوة واتباع.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ[3]: [إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها

---

(١) هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي، نسبة إلى بيهق بنيسابور، حافظ علامة، محدث فقيه، من مصنفاته: شعب الإيمان، ودلائل النبوة، توفي سنة ثمان وخمسين وأربع مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ٧٧٠ - ٧٧٢)، الأعلام: (١/ ١١٦).

(٢) فتح الباري: (١/ ٣١)، وانظر: شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد : (ص: ٤٢).

(٣) هو سعد بن مالك بن سنان، أبو سعيد الخدري، الأنصاري الخزرجي، مشهور بكنيته، استصغر بأحد، واستشهد أبوه بها، وشهد الخندق والمشاهد بعدها، كان من المكثرين من الحديث عن رسول الله ﷺ، توفي سنة خمس وستين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٧١٤ - ٧١٥)، الإصابة: (٣/ ٦٥ - ٦٧).

تكفر اللسان[1]، فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا).[2]

قال ابن القيم: (إنما خضعت للسان لأنه بريد القلب وترجمانه والواسطة بينه وبين الأعضاء).[3]

ومن ثم قال يونس بن عبيد[4]: (ما من الناس أحد يكون لسانه منه على بال إلا رأيت ذلك صلاحا في سائر عمله).[5]

وأول وظائف العبودية للسان النطق بالشهادتين، التي هي أول أركان الإسلام الخمسة وأهمها، وبهذه الشهادة اللسانية يدخل المرء في دين الله جل وعلا.

---

(١) أي تخضع له وتتواضع، من التكفير: وهو الذل والخضوع، انظر النهاية في غريب الحديث: (٤/ ١٨٨)، بلوغ الأماني: (١٩/ ٢٥٧).

(٢) رواه الترمذي مرفوعًا وموقوفًا، ورجح وقفه، في كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان: (٤/ ٦٠٥ - ٦٠٦)، وأحمد في المسند: (٣/ ٩٦)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير، فيض القدير: (١/ ٢٨٧)، قال محقق المسند حمزة الزين، طبعة دار الحديث: (١٠/ ٣٠١)، (إسناده صحيح وحكمه حكم المرفوع قطعًا)، وانظر: تحفة الأحوذي: (٦/ ٢٧٧- ٢٧٨).

(٣) الفوائد: (ص: ٨٦).

(٤) هو يونس بن عبيد بن دينار، أبو عبد الله البصري العبدي، مولى عبد القيس، من صغار التابعين وفضلائهم، معروف بالزهد والورع، توفي سنة تسع وثلاثين ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٣٠١ - ٣٠٨)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٤٢٩٤- ٤٢٩٧).

(٥) صفة الصفوة: (٣/ ٣٠٧)، وانظر: حلية الأولياء لأبي نعيم، طبعة دار الكتاب العربي: (٣/ ٢٠).

فمن حديث ابن عمر رضي الله عنهما[1] يقول رسول الله ﷺ: [بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله...] الحديث.[2]

وباللسان تتحقق عبودية القراءة والذكر والكلام الشرعي على اختلاف صوره.

فمن ذلك تلاوة القرآن، والتسبيح والتحميد ونحوهما، والدعاء، والاستغفار، والسلام ورده، وصدق الحديث، وأداء الشهادة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبليغ القرآن ونشر السنة، والدعوة إلى الله، وتعليم العلم، والذب عن دين الله جل وعلا.

ومن ذلك أيضًا ترك الكذب، وشهادة الزور، والتلفظ بالحرام، والسب، والقذف، والقول على الله بلا علم، والأذى القولي للمسلمين.[3]

ثم إن عبودية اللسان تدخل في معظم عبادات الجوارح كالصلاة والحج وغيرهما.

ولذا كانت دعوة الرسول ﷺ إلى الاهتمام بأمر اللسان، والحرص على

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن القرشي العدوي، كان من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ، عابدًا عالمًا ورعًا شديد الحرص على متابعته عليه الصلاة والسلام، توفي سنة ثلاث وسبعين. انظر: الاستيعاب: (٣/ ٩٥٠ - ٩٥٣)، الإصابة: (٤/ ١٥٥- ١٦١).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الإيمان: (١/ ١٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام: (١/ ٤٥).

(٣) انظر: مدارج السالكين: (١/ ٩٥ -٩٦).

استقامته، حتى يرتقي به المسلم في درجات العبودية، ويحذر من انحرافه عن هذا المسار الشريف.

ومن ذلك قوله ﷺ: [إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالاً، يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم].[1]

ومن حديث أبي هريرة ﷺ يقول عليه الصلاة والسلام: [ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت].[2]

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي[3] ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: [قل آمنت بالله ثم استقم].[4]

وفي رواية الترمذي[5]: قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف علي؟

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب الرقاق. باب حفظ اللسان: (٥/ ٢٣٧٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب (من كان يؤمن بالله..): (٥/ ٢٢٤٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار: (١/ ٦٨).

(٣) هو سفيان بن عبد الله بن أبي ربيعة، الثقفي الطائفي، أسلم بعد غزوة حنين مع وفد ثقيف، استعمله الرسول ﷺ على الطائف، واستعمله عمر ﷺ على صدقاتها، روى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ٣١٤)، الإصابة: (٣/ ١٠٤).

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام: (١/ ٦٥).

(٥) هو محمد بن عيسى بن سَوْرة، السلمي الترمذي، من أئمة علماء الحديث، معروف بالحفظ والزهد والورع، تتلمذ للبخاري، وشاركه في بعض شيوخه، رحل في طلب العلم، من مصنفاته: الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذي، وكتاب الشمائل، توفي سنة تسع وسبعين ومائتين. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٦٢٦ - ٣٦٢٧)، الأعلام: (٦/ ٣٢٢).

فأخذ بلسان نفسه ثم قال: [هذا].[1]

ومن حديث معاذ بن جبل ﷺ بعد أن علمه رسول الله ﷺ كثيرًا من أبواب الخير وواجبات الإسلام قال له: [ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟][2] قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: [كف عليك هذا] فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟

فقال: [ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم][3].[4]

قال ابن رجب[5]: (هذا يدل على أن كف اللسان وضبطه وحبسه هو

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان: (٤/ ٦٠٧) وقال هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة: (٢/ ١٣١٤)، وأحمد في المسند: (٣/ ٤١٣)، والدارمي: (٢/ ٦٠٧)، والحاكم في المستدرك: (٤/ ٣٤٩)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه أيضًا البنا وغيره، انظر بلوغ الأماني: (١٩/ ٢٥٨)، تحفة الأحوذي: (٦/ ٢٧٩) (الهامش).

(٢) بكسر الميم، والملاك: قوام الشيء وما يعتمد عليه فيه. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٣٥٨)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٢٨).

(٣) حصائد الألسنة: ما يقتطع من الكلام الذي لا خير فيه، تشبيها بما يحصد من الزرع، والمراد جزاء الكلام المحرم وعقوبته. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٩٤)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ١٤٧).

(٤) رواه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة: (٥/ ١١ - ١٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة: (٢/ ١٣١٤ - ١٣١٥)، وأحمد في المسند: (٥/ ٢٣٧)، وصححه شعيب الأرناؤوط وغيره. انظر: جامع العلوم والحكم: (٢/ ١٣٤) (الهامش)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٢٦) (الهامش).

(٥) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، زين الدين، أبو الفرج الحنبلي، البغدادي ثم الدمشقي، إمام حافظ، فقيه محدث واعظ، ارتحل في طلب العلم، ثم اشتغل به تصنيفًا وتدريسًا وإفتاءً، من مصنفاته: جامع العلوم والحكم، والقواعد الفقهية، توفي سنة خمس وتسعين وسبع مائة. انظر: طبقات الحفاظ للسيوطي، ط١، دار الكتب العلمية: (ص: ٥٤٠)، الأعلام: (٣/ ٢٩٥).

أصل الخير كله، وأن من ملك لسانه فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه) ثم قال: (وظاهر حديث معاذ يدل على أن أكثر ما يدخل به الناس النار النطق بألسنتهم، فإن معصية النطق يدخل فيها الشرك، وهو أعظم الذنوب عند الله ﷻ، ويدخل فيها القول على الله بغير علم، وهو قرين الشرك، ويدخل فيها شهادة الزور التي عدلت الإشراك بالله ﷻ، ويدخل فيها السحر والقذف، وغير ذلك من الكبائر والصغائر، كالكذب والغيبة والنميمة. وسائر المعاصي الفعلية لا يخلو غالبًا من قول يقترن بها يكون معينًا عليها).[1]

ومن الخير للمسلم أن يستغل لسانه في العبودية المستمرة، استجابة لدعوة رسول الله ﷺ، حين قال له رجل: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به.[2] قال: [لا يزال لسانك رطبا[3] من ذكر الله].[4]

(١) جامع العلوم والحكم: (٢/ ١٤٦ - ١٤٧)، وانظر: منهاج العابدين للغزالي، طبعة دار الجيل: (ص: ٦٤ -٦٦)، تسلية أهل المصائب لمحمد المنجي، ط٤،دار البيان: (ص: ٢٠٤- ٢٠٦)، أدب الدنيا والدين: (ص: ٢٨٣ - ٢٨٨).

(٢) أي أتعلق به وأتمسّك. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٤٣٩)، تحفه الأحوذي: (٨/ ٣٧٨).

(٣) الرطب بفتح الراء وسكون الطاء: اللين، خلاف اليابس. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ١٦٨)، والمعنى: (طرياً مشتغلاً قريب العهد منه، وهو كناية عن المداومة على الذكر) تحفة الأحوذي: (٨/ ٣٧٨).

(٤) رواه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن بُسر ﷺ في كتاب الدعاء، باب ما جاء في فضل الذكر: (٥/ ٤٥٨)، وابن ماجة في كتاب الأدب، باب فضل الذكر: (٢/ ١٢٤٦)، وأحمد في المسند: (٤/ ١٨٨)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٦٧٢ - ٦٧٣) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه من المعاصرين عصام الصبابطي في تخريج أحاديث الترمذي: تحفة الأحوذي: (٨/ ٣٧٨) (الهامش).

المسألة الثالثة:

عبودية الجوارح[1]

يعبر بالجوارح عن الأعضاء والحواس التي بها يتم الاكتساب والاستمتاع، كاليد والرجل والفم والسمع والبصر ونحوها.

وعبادات الجوارح هي الأعمال الظاهرة التي يتقرب بها المؤمن إلى ربه تبارك وتعالى، عن طريق توظيف حواسه وأعضائه فيما يرضي الله جل وعلا.

وقد ورد تفسير الإسلام بالعمل الظاهر في حديث ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان].[2]

وإذا كان النطق بالشهادتين أعلى عبادات اللسان، فإن الأركان الأربعة الباقية تمثل الدعائم والأسس الرئيسة لعبودية الجوارح.

هذه الأسس وغيرها من أعمال الجوارح يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: العبادات البدنية: كالصلاة، والصيام، والمشي إلى المساجد وحلق العلم، والوضوء، والطواف، والاستماع إلى قراءة القرآن وخطبة الجمعة والعلم النافع، والنظر والتأمل في آيات الله في الكون، وأكل ما يعين على طاعة الله سبحانه، ونحو ذلك.

(١) الجوارح: جمع جارحة، والمراد أعضاء الإنسان التي تكتسب، من جرح، واجترح، بمعنى: اكتسب. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ١٩٦)، المفردات: (ص: ٩٧)، ترتيب القاموس المحيط: (١/ ٤٧٠)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٣٧٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الإيمان: (١/ ١٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام: (١/ ٤٥).

القسم الثاني: العبادات المالية: كإيتاء الزكاة، والنفقة على العيال، والصدقة على المساكين، والإنفاق على الدعاة والمجاهدين، ونحو ذلك.

القسم الثالث: العبادات المشتركة بين البدن والمال: كالحج، والجهاد، وصلة الرحم، والزواج بنية الإعفاف، والهجرة، والسفر لغرض شرعي، ونحو ذلك.

وعلى كل حال فإن المؤمن مدعو شرعًا إلى أن يستعمل أعضائه وحواسه في أداء الواجبات الشرعية، وفي الحرص على المستحبات، وأن يحفظها من التنزل عن المباحات، سواء كان ذلك في مشيه أو ركوبه، في لمسه أو بطشه، في ذوقه أو شمه، في استماعه أو نظره، وفي سائر حواسه وقواه.[1]

(١) انظر: مدارج السالكين: (١/ ٩٧ - ١٠١).

الفصل الثالث

ضوابط العبودية

ويشتمل على المباحث التالية

المبحث الأول: توحيد الله تعالى والإيمان به.

المبحث الثاني: إخلاص النية.

المبحث الثالث: التزام الشرع.

توطئة

هناك عدد من الضوابط[1] يجب تحققها ليصبح العمل عبادة مقبولة، إذ لابد أن يكون مبنيًا على توحيد وإيمان، وأن يصاحبه إخلاص في النية والقصد، وأن يتأسس على قدوة واتباع لرسول الله ﷺ، وباستكمال هذه الأمور ـ صحة الاعتقاد والنية والوسيلة ـ يكون العمل صحيحًا مقبولا، ظاهرًا وباطنًا، يصح ظاهره بالمتابعة، ويصح باطنه بالتوحيد والإخلاص.

وبيان هذه الضوابط في المباحث التالية:

(١) الضوابط جمع ضابط، وأصله في اللغة من ضبط الشيء يضبطه ضبطًا: أي حفظه بقوة وحزم، ولزمه دون مفارقة، انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٥٨٥)، ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٨).
والمراد بالضوابط هنا ما يجمع فروع العبودية، وينظم صورها، ويضبطها لتُعرف فلا تختلط بغيرها، انظر: شرح الكوكب المنير لابن النجار، طبعة دار الفكر: (ص: ٣٠).

المبحث الأول

توحيد الله تعالى والإيمان به

يتضمن القرآن الكريم عددًا كبيرًا من الآيات الكريمة التي تدعو إلى توحيد الله ﷻ في العبادة، وإلى إفراد التوجه إليه بالطاعات والأعمال الصالحة.

وتأتي في المقدمة تلك الآية الجامعة في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، متضمنة تخصيص العبادة لله تبارك وتعالى وحده.

قال الزمخشري وغيره: (المعنى نخصك بالعبادة).[1]

وفي الآية الكريمة قدم المفعول ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعل ﴿نَعْبُدُ﴾ وذلك لإفادة الاختصاص والحصر، أي أن جميع أنواع العبادة ينبغي أن تكون لله ﷻ وحده دون سواه.

قال ابن كثير: (وقدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾ وكرر للاهتمام والحصر، أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

(١) تفسير الزمخشري: (١/ ٥٦)، تفسير النسفي: (١/ ٥).

فالأول: تبرؤ من الشرك.

والثاني: تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله ﷻ).[1]

ومن ثم فإن هذه الآية الكريمة تشتمل على جانبي النفي والإثبات الذي تتضمنه كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، إذ إن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تعني البراءة من الشرك بالله جل وعلا وإثبات التوجه في أعمال العبادة إليه تبارك وتعالى وحده.

وهذا المعنى هو ما تضمنه أيضًا قول الله سبحانه

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد بين الله جل وعلا في القرآن الكريم أن العمل الصالح لا ينفع ولا يثمر، ولا يجد القبول عنده سبحانه، ما لم يكن قلب صاحبه عامرًا بيقين ثابت، وعقيدة صحيحة، وتصديق جازم بالله تباك وتعالى.

يقول الله سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٢٥).

كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

فهذه الآيات تضمنت اشتراط الإيمان في قبول الله تعالى سعي الآخرة من الأعمال الصالحة، وأن وعد الله تعالى بشكر هذا السعي والجزاء عليه وعدم رده وإبطاله مقيد بذلك القيد (وهو مؤمن).

يقول الرازي: (وهذا الشرط معتبر، لأن الشرط في كون أعمال البر موجبة للثواب تقدم الإيمان، فإذا لم يوجد الشرط لم يحصل المشروط).[1]

فإذا حقق الإنسان هذا الشرط، والتزم بهذا القيد، بأن كان مؤمنًا مصدقًا بقلبه موحدًا لربه جل وعلا، فإن سعيه في العمل الصالح لا يكفر ولا يجحد، وجهده في الطاعات لا يضيع ولا يهضم، وكدحه في البر والخير لا يبخس ولا يظلم، بل كل ذلك مشكور مقبول، محفوظ مدخر لصاحبه عند الله تعالى، لا يخاف نقصا في ثواب الطاعات، أو زيادة في السيئات.[2]

(١) تفسير الفخر الرازي: (٢٠/ ١٧٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٦٠، ١٧/ ٨٦)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٦٥)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٥٤، ١١/ ١٦٥، ١١/ ٢٢٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٦٦، ٣/ ١٩٤)، نظم الدرر: (٤/ ٣٧٢، ٥/ ١١٢).

ويتكرر قيد الإيمان في آيات أخرى أيضًا يقرر الله تعالى فيها أن الجنة والحياة الطيبة والجزاء الأحسن هو ثمرة العمل الصالح وعاقبته، لكن ذلك مشروط بسبق الإيمان.

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠].

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١) ﴾ [النساء: ١٢٤].

قال ابن عطية: (قيد الأمر بالإيمان، إذ لا ينفع عمل دونه).(٢)

ومن الآيات التي تدل على هذا الشرط أيضًا قول الله ﷻ:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ

(١) والنقير: النقطة التي تكون في النواة، ويضرب به المثل في الشيء الطفيف. انظر معاني القرآن للنحاس: (٢/ ٢٠٠)، المفردات: (ص: ٥٠٥)، بصائر ذوي التمييز: (٥/ ١١٣).

(٢) تفسير ابن عطية: (٢/ ١١٧)، وانظر تفسير القرطبي: (٥/ ٣٩٩)، نظم الدرر: (٢/ ٣٢٣).

ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ [البلد: ١١ – ١٨].

فقد ذكرت هذه الآيات الكريمات عملين صالحين، وطاعتين عظيمتين، هما العتق و الإطعام، باعتبارهما من أسباب النجاة والفوز في الآخرة، ثم قيدت الآيات قبول هذين العملين وحصول التأثير بهما بقيد الإيمان: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

قال البغوي: (بين أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان).(١)

ومن جملة الآيات السابقات يُفهم أن الإيمان بالله جل وعلا شرط لقبول الطاعات، وأن فقد هذا الشرط يمنع الأثر الإيجابي للعمل الصالح فيما يتعلق بقبوله عند الله تعالى والجزاء الحسن عليه.

ويدل على هذا المعنى أيضًا ويؤكده ما ورد في القرآن الكريم من آيات تقرر أن الكفر والشرك بالله تعالى مانع من قبول العمل الصالح.

يقول الله سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ

(١) تفسير البغوي: (٤/ ٤٩٠)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٣١/ ١٨٧)، تفسير القرطبي: (٢٠/ ٤٧) . و(ثم) في الآية الكريمة (للتراخي في الرتبة لا في الزمان، وفيها إشارة إلى أن الإيمان أعلى من العتق والإطعام، ولا يصح أن يكون للترتيب في الزمان، لأنه لا يلزم أن يكون الإيمان بعد العتق والإطعام، ولا يقبل عمل إلا من مؤمن) التسهيل (٤/ ٢٠١)، وانظر تفسير الزمخشري: (٤/ ٧٦٠).

هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ [النور: ٣٩].

﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥ - ١٦].

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد: ١].

﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٥٤].

المبحث الثاني

إخلاص النية

المراد بالإخلاص إفراد الله تعالى بالنية والقصد في الأعمال الصالحة، ويقابله الرياء وهو: (إرادة العباد بطاعة الله)[1] بمعنى أن يظهر الإنسان العبادة للناس قاصدًا الثناء والحمد منهم.[2]

وقد أمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يجرد له النية في الطاعة، وأن يخلص له العبادة، وأن يجعل قصده وباعثه في تطبيق شريعة الله جل وعلا هو طلب مرضاته ومثوبته سبحانه.

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢ - ٣].

﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ١١].

﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [الزمر: ١٤].

والأمر لرسولنا ﷺ أمر وخطاب لأمته.

يقول الرازي: (وإنما خص الله تعالى الرسول ﷺ بهذا الأمر لينبّه على أن

---

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٨١)، وهو مصدر، يقال: رآى فلان فلانا بعمله مراءاة ورياء. انظر: تهذيب الآثار: (٢/ ١٢٧).

(٢) انظر: الرسالة القشيرية: (ص: ٣٠٠)، مدارج السالكين: (٢/ ٧٨ - ٧٩)، فتح الباري: (٢٤/ ١٣٠).

غيره بذلك أحق)[1]

وكما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بإخلاص الدين عمومًا فقد أمره بالإخلاص في بعض العبادات على سبيل التخصيص.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢].

﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر: ٦ - ٧].

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وخاطب الله تعالى الناس جميعًا وأمرهم بما أمر به رسوله ﷺ من الإخلاص في عبادة الله تعالى، وإفراد القصد له سبحانه.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].

﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ١٤].

﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [غافر: ٦٥].

والمراد بالدين طاعة الله وعبادته جل وعلا.[2]

والملاحظ في الآيات الكريمات أن الأمر بالعبادة مقترن بحال الإخلاص لله تعالى، فالعبادة المأمور بها شرعًا هي عبادة يصاحبها

(١) تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ٢٥٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٥/ ٢١٤)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٧٣).

الإخلاص لله وحده، غير مجردة عنه، مما يدل على أهمية الإخلاص في العبادة، وأن فعل الطاعات دون تحرير النية وخلوصها لله وحده سبحانه دون سواه لا يثمر ولا ينفع، ولا يجد القبول عنده تبارك وتعالى.

ومن الأدلة كذلك على أن الإخلاص شرط في قبول العمل الصالح قول الله ﷻ:

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

إذ تبين الآية أن كل ما يقوم به المسلم من عمل صالح، قلبي أو بدني أو مالي، لا بد أن يتحقق فيه صلاح في النية، قائم على إرادة الله وحده بذلك العمل الصالح، ولابد من الخلوص من الشرك، سواء كان شركًا أكبر بصرف شيء من العبادة إلى غير الله تعالى، أو كان شركًا أصغر بالرياء وقصد الثناء والمدح من الناس: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾.

وكثير من المفسرين على أن المراد بالشرك في العبادة هنا مراءاة الناس في العمل الصالح[1]، لكن لفظ الآية يعم مظاهر الشرك جميعًا، ولذلك قال محمد الأمين: (والتحقيق أن قوله: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ أعم من الرياء وغيره، أي لا يعبد ربه رياء وسمعة، ولا يصرف شيئًا من حقوق

(١) تفسير الطبري: (١٦/ ٤٠)، وانظر: تفسير البغوي: (٣/ ١٨٧)، تفسير القرطبي: (١١/ ٤٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٠٨)، الدر المنثور: (٥/ ٤٦٩ - ٤٧١).

خالقه لأحد من خلقه).[1]

ومن الآيات التي أوردت شرط الإخلاص أيضًا قول الله جل وعلا:

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾[لقمان: ٢٢].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[النساء: ١٢٥].

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

والمراد بإسلام الوجه لله تعالى في هذه الآيات الكريمات إخلاص النية في العبادة لله وحده لا شريك له.[2]

وبدون تحقق شرط الإخلاص يفسد العمل، وتبطل العبادة، ويضيع الأجر، ويترتب الإثم والوزر. ذلك أن إخلاص العمل لله تعالى هو في الواقع تحقيق لشهادة أن لا إله إلا الله، لأن مقتضى هذه الشهادة أن لا يعبد إلا الله وحده، وأن لا يقصد أو يراد بالعبادة إلا هو سبحانه، وذلك هو

(١) أضواء البيان: (٤/ ١٩٩)، وانظر: التسهيل: (٢/ ١٩٧)، نظم الدرر: (٤/ ٥١٣)، فتح القدير: ((٣/ ٣٢٣).

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي: (٤/ ٤)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٥٠)، تفسير ابن كثير: (١/ ١٥٤)، تفسير الثعالبي: (١/ ٤١٧)، نظم الدرر: (٢/ ٣٢٤)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٧٣، ٤٩٥)، شرح حديث: (إنما الأعمال بالنيات) لابن تيمية، طبعة مكتبة السلام العالمية: (ص: ١٤)، مدارج السالكين: (٢/ ٧٦).

الإخلاص.

يقول ابن كثير: (وأما إن كان العمل موافقا للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله تعالى فهو أيضًا مردود على فاعله وهذا حال المرائين والمنافقين).[1]

وقد جاء وصف المنافقين بفساد النية وخبث القصد في قول الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ [الماعون: ٤ - ٦].[2]

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [النساء: ٣٨].[3]

ولذلك كان من توبة المنافق أن ينخلع من وصف الرياء، وأن يلتزم بإخلاص الدين لله جل وعلا.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥ ﴾

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ١٥٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٣١١، ٣١٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٥/ ٨٧ - ٨٨).

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء: ١٤٥ - ١٤٦].

وقد نهى الله سبحانه المؤمنين عن التشبه بالمنافقين الموصوفين بالرياء المبطل للعمل الصالح.(١)

فقال تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فالإنفاق على المحتاجين عمل صالح، لكن الرياء يبطله ويفسده، وقد ضرب الله تعالى لذلك مثلاً بالصفوان، وهو الحجر الأملس يعلوه تراب فيصيبه الوابل، وهو المطر الشديد، فيصبح ذلك الصفوان صلدًا: أي نقيًا، ليس عليه بقية من تراب أو غبار، وكذلك المنافقون المراءون لا يجدون لصنيعهم نفعًا، ولا يلقون لعملهم ثوابًا.(٢)

قال ابن جرير في تفسيره للآية الكريمة: (ثم رجع تعالى ذكره إلى ذكر المنافقين الذين ضرب المثل لأعمالهم، فقال: فكذلك أعمالهم بمنزلة

(١) انظر: تفسير الطبري: (٣/ ٦٤،٦٦).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٢٥٠- ٢٥١)، زاد المسير: (١/ ٢٧٦)، تفسير أبي السعود: (١/ ٢٥٩)، نظم الدرر: (١/ ٥١٧).

الصفوان الذي كان عليه تراب، فأصابه الوابل من المطر، فذهب بما عليه من التراب، فتركه نقيا لا تراب عليه ولا شيء، يراهم المسلمون في الظاهر أن لهم أعمالا، كما يرى التراب على هذا الصفوان، بما يراؤونهم به، فإذا كان يوم القيامة وصاروا إلى الله اضمحل ذلك كله، لأنه لم يكن لله، كما ذهب الوابل من المطر بما كان على الصفوان من التراب، فتركه أملس لا شيء عليه، فذلك قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ ﴾ يعني به الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، يقول: لا يقدرون يوم القيامة على ثواب شيء مما كسبوا في الدنيا، لأنهم لم يعملوا لمعادهم، ولا لطلب ما عند الله في الآخرة، ولكنهم عملوا رئاء الناس، وطلب حمدهم، وإنما حظهم من أعمالهم ما أرادوه وطلبوه بها).(١)

وفي السنة الشريفة أحاديث كثيرة تدل على أن الله تعالى لا يقبل من العبادة إلا ما كان خالصًا له ﷻ.

ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه].(٢)

(١) تفسير الطبري : (٣/ ٦٦)، وانظر: إعلام الموقعين: (١/ ١٨٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النية في الأيمان: (٦/ ٢٤٦٢)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: [إنما الأعمال بالنية]: (٢/ ١٥١٥ - ١٥١٦).

فقوله عليه الصلاة و السلام: [إنما الأعمال بالنية] يفيد الحصر، فلا عمل إلا بنية، وهو تقرير منه ﷺ بأن قبول الأعمال أوردها، صلاحها أو فسادها، معتبر بالنية، إذ القصد والباعث هو الذي يميز العمل لله عن العمل لغيره رياء.(١)

وقد عرض النبي ﷺ لهذه القاعدة الكلية مثالاً بالهجرة من بلاد الكفر إلى دار الإسلام، فهي في ظاهرها عمل صالح، وعبادة شرعية، لكن الذي يجعلها مقبولة مثابًا عليها هو إرادة الله تعالى وحده بها: [فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله..].

قال النووي: (معناه من قصد بهجرته وجه الله وقع أجره على الله، ومن قصد بها دنيا أو امرأة فهي حظ، ولا نصيب له في الآخرة بسبب هذه الهجرة).(٢)

يقول ابن رجب: أخبر النبي ﷺ أن هذه الهجرة تختلف باختلاف النيات والمقاصد بها، فمن هاجر إلى دار الإسلام حبًا لله ورسوله، ورغبة في تعلم دين الإسلام، وإظهار دينه حيث كان يعجز عنه في دار الشرك، فهذا هو المهاجر إلى الله ورسوله حقًا، وكفاه فخرًا وشرفًا أن حصل له ما نواه من هجرته إلى الله ورسوله، ولهذا المعنى اقتصر في جواب هذا الشرط على

(١) انظر: شرح الأربعين حديثا النووية لابن دقيق: (ص: ٤٣)، شرح حديث النية: (ص: ١٦)، إعلام الموقعين: (٣/ ١٢٣)، فتح الباري: (١/ ٣٣)، جامع العلوم والحكم: (١/ ٦٣).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٣/ ٥٤).

إعادته بلفظه، لأن حصول ما نواه بهجرته نهاية المطلوب في الدنيا والآخرة، ومن كانت هجرته من دار الشرك إلى دار الإسلام لطلب دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها في دار الإسلام، فهجرته إلى ما هاجر إليه من ذلك، فالأول تاجر، والثاني خاطب، وليس واحد منهما بمهاجر].(١)

والجهاد مثال آخر.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ(٢) قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر(٣)، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: [من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله].(٤)

قال النووي: (فيه بيان أن الأعمال إنما تحسب بالنيات الصالحة، وأن الفضل الذي ورد في المجاهدين في سبيل الله يختص بمن قاتل لتكون كلمة

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ٧٣).

(٢) هو عبد الله بن قيس بن سليم، أبو موسى الأشعري، أسلم قديمًا، و قدم المدينة بعد فتح خيبر، بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن، وولاه عمر بن الخطاب ﷺ على البصرة، و وولاه عثمان بن عفان ﷺ على الكوفة، كان فقيهًا عالمًا حسن الصوت بالقرآن، و كان عمر ﷺ يطلب منه القراءة، توفي سنة اثنتين وأربعين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٥٥٦ - ٥٦٢)، الإصابة: (٤/ ١٨١ - ١٨٣).

(٣) أي ليوصف بالشجاعة بين الناس و يذكر بها، ومرجع هذا إلى السمعة، ومرجع الذي يليه في الحديث إلى الرياء. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١٦٣)، فتح الباري: (١١/ ٢٩٠).

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد. باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله: (٣/ ١٠٣٤ - ١٠٣٥) ومسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله: (٢/ ١٥١٢ - ١٥١٣).

الله هي العليا).[1]

وهكذا سائر الأعمال مثل الجهاد والهجرة في هذا الباب، فصلاحها وفسادها معتمد على النية والإرادة الدافعة إلى العمل، ولا يقبل الله من ذلك إلا ما كان خالصًا له سبحانه.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه].[2]

يقول النووي في شرحه للحديث القدسي: (ومعناه أنا غني عن المشاركة وغيرها، فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير، والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به)[3].

فمن أراد قبول العمل الصالح فليبتغ به وجه الله وحده سبحانه.

عن أبي أمامة الباهلي ﷺ[4] قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: (أرأيت رجلًا غزى يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال الرسول ﷺ: [لا شيء له][5]

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٣/ ٤٩)، وانظر: تهذيب الآثار: (٢/ ١١٣ وما بعدها).

(٢) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله: (٣/ ٢٢٨٩).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٨/ ١١٥-١١٦)، و انظر تهذيب الآثار (٢/ ١١٣، وما بعدها).

(٤) هو صُدَيّ بن عجلان بن الحارث، أبو أمامة الباهلي، من أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية، سكن الشام، كان عابدًا زاهدًا، توفي سنة ست وثمانين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٧٣٣ - ٧٣٦)، الإصابة (٣/ ٣٣٩ - ٣٤١).

(٥) (أي لا أجر له) حاشية السندي على سنن النسائي، ط ٢، دار سحنون: (٦/ ٢٥).

فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: [لا شيء له (ثم قال): إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه].[1]

وإذا فقدت العبادة شرط الإخلاص كان الوزر والسيئة والعقاب عوضا عن الأجر والحسنة والثواب.

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت

(١) رواه النسائي (سنن النسائي)، ط٢، دار سحنون في كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر: (٦/ ٢٥)، وحسن إسناده الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار، طبعة المكتبة العصرية، بذيل إحياء علوم الدين: (٤/ ٥٠٧)، وجود إسناده كذلك المنذري في الترغيب والترهيب ط ٣، مكتبة مصطفى البابي الحلبي: (١/ ٥٥) وابن رجب في جامع العلوم والحكم: (١/ ٨١)، وابن حجر في الفتح: (١١/ ٢٩١)، والسيوطي في الدر المنثور: (٥/ ٤٧٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (ص: ٢٤٢).

فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار].[1]

قال النووي في شرح الحديث: (وفيه أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصًا، وكذلك الثناء على العلماء وعلى المنفقين في وجوه الخيرات كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصًا).[2]

يقول ابن تيمية: (فهؤلاء إنما كان قصدهم مدح الناس، وتعظيمهم لهم، وطلب الجاه عندهم، لم يقصدوا بذلك وجه الله، وإن كانت صور أعمالهم صورًا حسنة، فهؤلاء إذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب)[3].

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار: (٢/ ١٥١٣ - ١٥١٤).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٣/ ٥١).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٤/ ١١٣).

وسيأتي بمشيئة الله في المبحث الثالث مزيد من عبارات الأئمة في كون الإخلاص ركنًا أساسيًا من أركان قبول العمل.

المبحث الثالث

التزام الشرع

لا يكفي في قبول العبادة أن يكون المؤمن مخلصًا لله تعالى، مريدًا في عمله وجه الله سبحانه، قاصدًا ثوابه ومرضاته، بل لابد من تحقيق شرط آخر، هو صلاح العمل.

أي أن هناك ضابطين، أحدهما متعلق بالنية والقصد والإرادة، وهو الإخلاص لله جل وعلا، والآخر متعلق بالعمل ذاته، يتمثل في المتابعة للشريعة التي جاء بها رسول الله ﷺ.

وهذا الضابط الثاني هو المراد بالعمل الصالح في قول الله تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فالعمل الصالح هو ما تضمنه شرع الله جل وعلا مما أحبه الله ورسوله ورضياه، وأمرا به على سبيل الوجوب أو الاستحباب.[1]

قال ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: (﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي ما كان موافقًا لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصًا

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٨/ ٢٥٠ - ٢٥/ ٣١٧ - ٢٨/ ١٣٥)، شرح حديث النية: (ص:١٤).

لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ).[1]

يقول ابن تيمية: (فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون لله إلا ما جمع الوصفين: أن يكون لله، وأن يكون موافقًا لمحبة الله ورسوله وهو الواجب والمستحب).[2]

ومن ثم فإن المؤمن حين يسعى في هذه الدنيا، سالكًا طريق الآخرة، مبتغيًا وجه ربه، فليس له أن ينتظر لسعيه قبولاً، ولا يرجو له ثوابًا، ما لم يكن ذلك السعي مشروعًا من الله جل وعلا، مرضيًا عنده سبحانه، متضمنًا امتثال أمره واجتناب نهيه، منبثقًا من الاتباع لطريقة رسول الله ﷺ ومسلكه، والالتزام بمنهجه وسنته.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩].

قال ابن عطية: (شرط في مريد الآخرة أن يسعى لها سعيها، وهو ملازمة أعمال الخير وأقواله على حكم الشرع وطرقه).[3]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ١٠٨)، وانظر تفسير البيضاوي: (٢/ ٢٥)، نظم الدرر: (٤/ ٥١٣)، فتح القدير: (٣/ ٣٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢١٣)، وانظر: دستور الأخلاق في القرآن: (ص: ٤٤٣ – ٤٤٤).

(٣) تفسير ابن عطية: (٣/ ٤٤٦)، وانظر تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣).

ويقول البقاعي: (أي وضم إلى نيته العمل، بأن سعى لها سعيها، أي الذي هو لها، وهو ما كانت جديرة به من العمل بما يرضي الله، بما شرع في كتابه و سنة رسوله ﷺ، لا أيَّ سعي كان بما لم يشهد له ظاهر الكتاب و السنة).[1]

وهذا الشرط لقبول العمل هو المعبر عنه بالإحسان في قول الله جل وعلا:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان: ٢٢].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[النساء: ١٢٥].

قال ابن كثير بعد أن فسر إسلام الوجه بالإخلاص لله: (﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق.

وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي يكون خالصًا

---

(١) نظم الدرر: (٤/ ٣٧١ – ٣٧٢)، وانظر: تفسير الطبري: (١٥/ ٥٩)، تفسير الفخر الرازي: (٢٠/ ١٧٩).

صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متابعًا للشريعة، فيصح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمتى فقد الإخلاص كان منافقًا، وهم الذين يراؤون الناس، ومتى فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً، ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم).[1]

يقول ابن تيمية: (وهذان الوصفان، وهما إسلام الوجه لله والإحسان، هما الأصلان المتقدمان، وهما كون العمل خالصًا لله، صوابًا: موافقًا للسنة والشريعة، وذلك أن إسلام الوجه لله هو متضمن للقصد والنية لله).[2]

(فإذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه إلى الله فهذا صلاح إرادته وقصده، فإذا كان مع ذلك محسنًا فقد اجتمع أن يكون عمله صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا، وهو قول عمر ﷺ: اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا[3]، والعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات، وهو ما أمر الله به، والذي أمر الله به هو الذي شرعه الله، وهو الموافق لسنة الله وسنة رسوله، فقد أخبر الله تعالى أنه من أخلص قصده لله وكان محسنًا في عمله فإنه مستحق للثواب سالم من

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٥٥٩)، وانظر: (١/ ١٥)، اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، ط٢، مكتبة السنة: (ص:٤٥١١)، مدارج السالكين: (٢/ ٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٧٥).

(٣) حديث عمر ﷺ رواه أحمد في الزهد، ط١، مكتبة الصفا: (ص: ١٦٠).

العقاب).[1]

وإذا كان شرط الإخلاص فيه تحقيق لمعنى لا إله إلا الله، فإن شرط المتابعة يحقق مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، استجابة لأمر الله تعالى:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

يقول ابن تيمية: (وأصل الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فمن طلب بعباداته الرياء والسمعة لم يحقق شهادة أن لا إله إلا الله، ومن خرج عما أمره به الرسول من الشريعة، وتعبد بالبدعة، لم يحقق شهادة أن محمدًا رسول الله، وإنما يحقق هذين الأصلين من لم يعبد إلا الله، ولم يخرج عن شريعة رسول الله ﷺ التي بلغها عن الله).[2]

واعتبر ابن القيم أن تحقيق هذين الأصلين يمثّل هجرتين للقلب إلى الله تبارك وتعالى:

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٧٦ - ١٧٧)، وانظر: (١٠/ ١٧٣، ١٨/ ٢٥١).

(٢) مجموع الفتاوى: (١١/ ٦١٧ - ٦١٨)، وانظر: (١/ ٣٣٣، ١٠/ ٢٣٤)، اقتضاء الصراط المستقيم: (ص: ٤٥٢).

واجعل لقلبك هجرتين ولا تنم ... فهما على كل امرئ فرضان
فالهجرة الأولى إلى الرحمن بال ... إخلاص في سر وفي إعلان
فالقصد وجه الله بالأقوال وال ... أعمال والطاعات والشكران
فبذاك ينجو العبد من إشراكه ... ويصير حقا عابد الرحمن
والهجرة الأخرى إلى المبعوث بال ... حق المبين وواضح البرهان
فيدور مع قول الرسول وفعله ... نفيًا وإثباتًا بلا روغان[1]

وقد وعد الله جل وعلا بحفظ ثواب المؤمنين الذين يجمعون أوصاف الحسن في أعمالهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠].

كما بين سبحانه أنه خلق عباده ليختبرهم في حسن العمل:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

فلم يصف ﷻ العمل بالكثرة وإنما وصفه بالحسن، وذلك يشتمل على الأصلين العظيمين: صلاح العمل، وخلوصه لله ﷻ.

(١) القصيدة النونية: (١/ ٥٣ – ٥٤).

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل أكثر عملاً، بل أحسن عملاً، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله ﷻ، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين حبط وبطل).[1]

فلا بد في عبادة الله من إخلاص الدين له سبحانه، ولا بد فيها من موافقة شرعه، و متابعة أمره الذي بعث به رسله عليهم السلام.[2]

وما ذكره ابن كثير في تفسير العمل الحسن في الآية الكريمة مروي عن الفضيل بن عياض[3] إذ قال: (أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة).[4]

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٣٨)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٣٠/ ٥٦)، روضة المحبين: (ص: ٤٧).

(٢) انظر: التدمرية لابن تيمية ط ١: (ص ٢٣٢- ٢٣٤)، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ط ١، دار ابن الجوزي: (١/ ٤٢ – ٤٣).

(٣) هو الفضيل بن عياض بن مسعود، أبو علي التميمي الخراساني، إمام محدث قدوة، شيخ الإسلام، رحل في طلب العلم، وسكن بمكة مجاورًا للحرم، كان عابدًا فاضلًا ورعًا، توفي سنة سبع وثمانين ومائة. انظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي، ط٣، مكتبة الخانجي: (ص: ٦ –١٤)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٣٠٤٢ – ٣٠٤٨).

(٤) حلية الأولياء: (٨/ ٩٥)، وانظر تفسير البغوي: (٤/ ٣٦٩)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٧٣– ١٧٤)، مدارج السالكين: (١/ ٧٣).

ومن ثم قال ابن القيم: (العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه[1] رملًا يثقله ولا ينفعه).[2]

ذلك أن العمل حركة تسبقها نية ولا بد من الصلاح في الأمرين.

يقول ابن تيمية: (لما كان العمل لا بد فيه من شيئين: النية والحركة، كما قال النبي ﷺ: (أصدق الأسماء حارث وهمام).[3]

فكل أحد حارث وهمام، له عمل ونية، لكن النية المحمودة التي يتقبلها الله ويثيب عليها أن يراد الله بذلك العمل، والعمل المحمود: الصالح، وهو المأمور به).[4]

---

(١) الجراب: المزود أو الوعاء. انظر: ترتيب القاموس المحيط: (١/ ٤٦٦).

(٢) الفوائد: (ص: ٧٤).

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب تغيير الأسماء: (٥/ ٢٣٧) من حديث أبي وهب الجُشَمي ﷺ بلفظ: (وأصدقها حارث وهمام)، وأحمد في المسند: (٤/ ٣٤٥)، و البخاري في الأدب المفرد، ط ١، دار الصديق: (ص: ٢٨٣)، و حسنه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٣/ ٢٤٦)، وصححه الألباني في تخريج أحاديث الأدب المفرد: (ص: ٢٨٤)، وهو في السلسلة الصحيحة: (ص: ٣٥٢).

قال المنذري: (إنما كان حارث وهمام أصدق الأسماء لأن الحارث هو الكاسب، والهمّام هو الذي يهمّ مرة بعد أخرى، وكل إنسان لا ينفك عن هذين) الترغيب والترهيب: (٣/ ٧٠)، وانظر: مختصر سنن أبي داود للمنذري، طبعة دار المعرفة: (٧/ ٢٥١)، روضة المحبين: (ص: ٤٢)، إغاثة اللهفان: (١/ ٦٩).

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٣٥).

وبالصلاح في النية والحركة يحقق المؤمن معنى العبودية كما قال ابن القيم: (لا يكون العبد متحققًا بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين أحدهما متابعة الرسول ﷺ، والثاني الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.[1]

وقال نظماً:

فقيام دين الله بالإخلاص وال ... إحسان إنهاله أصلان
لم ينج من غضب الإله وناره ... إلا الذي قامت به الأصلان
والناس بعد فمشرك بإلهه ... أو ذو ابتداع أو له الوصفان
والله لا يرضى بكثرة فعلنا ... لكن بأحسنه مع الإيمان.[2]

وقد جاء توجيه رسول الله ﷺ بالصلاح في العمل صريحًا جليًا لا لبس فيه، حين أوصى أصحابه ﷺ بالالتزام بسنته عليه الصلاة والسلام، والوقوف عند مضامينها، وعدم تجاوزها، أو الانحراف عن منهجها وسبيلها.

فمن حديث العرباض بن سارية[3] ﷺ يقول ﷺ: [فعليكم بسنتي وسنة

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٧٣).

(٢) القصيدة النونية : (١/ ٩٩).

(٣) هو عِرْباض بن سارية، أبو نجيع السلمي، قديم الإسلام، من أهل الصفة، نزل الشام، وسكن حمص، وحديثه في السنن الأربعة، توفي سنة خمس وسبعين. انظر تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ٤٣٢)، الإصابة: (٤/ ٣٩٨ – ٣٩٩).

الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ[1]، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة].[2]

والحديث الشريف واضح في الأمر بالتمسك بطريقته عليه الصلاة والسلام في كل أعمال العبادة، ما تعلق منها بالقلب أو اللسان أو الجوارح.

قال ابن رجب: (السنة هي الطريقة المسلوكة، فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة، ولهذا كان السلف قديمًا لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله).[3]

وفي تعبيره ﷺ بالعض على النواجذ مزيد تأكيد واعتناء بشأن السنة الشريفة وأهمية التقيد بها.

---

(١) النواجذ: الأضراس، والتعبير بها لأنها أعظم في القوة. انظر النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٢٠)، شرح الأربعين النووية لابن دقيق: (ص: ١٨٥)، مجموع الفتاوى: (٢٢/ ٢٢٥)، عون المعبود: (٨/ ١٧).

(٢) رواه أبو داود، في كتاب السنة، باب في لزوم السنة: (٥/ ١٣ـ ١٥)، والترمذي بنحوه في كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع: (٥/ ٤٤ – ٤٥)، وقال هذا حديث حسن صحيح، و ابن ماجة في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين: (١/ ١٥ – ١٦) وأحمد في المسند: (٤/ ١٢٦)، والدارمي: (١/ ٤٣ – ٤٤)، والحاكم في المستدرك: (١/ ١٧٥) وصححه، ووافقه الذهبي، و صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (ص: ٣١٣).

(٣) جامع العلوم والحكم: (٢/ ١٢٠).

قال الخطابي[1]: (إنما أراد بذلك الجد في لزوم السنة، فعل من أمسك الشيء بين أضراسه، وعض عليه، منعًا له أن ينتزع، وذلك أشد ما يكون من التمسك بالشيء).[2]

ولما أمر عليه الصلاة والسلام بالتزام سنته الشريفة حذر من ضدها، وهو إحداث عبادات لم يشرعها الله ورسوله [وإياكم ومحدثات الأمور] وأكد ذلك التحذير بقوله [فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة].

والمراد بالمحدثات ما أحدث واخترع على سبيل التعبد والتدين، مما ليس له دليل أو أصل في الشرع يرجع إليه، وهذه المحدثة في الدين هو ما يعبر عنها شرعًا بلفظ البدعة كما في هذا الحديث الشريف.[3]

قال ابن رجب: (فكل من أحدث شيئًا ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه، فهو ضلالة، والدين برئ منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة).[4]

---

(١) هو حمد بن محمد بن إبراهيم، أبو سليمان البستي الخطابي، إمام حافظ، فقيه لغوي محدث، رحل في طلب العلم، ثم صنف فأكثر، من مصنفاته: شرح سنن أبي داود، وغريب الحديث، توفي سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ١٥٦٤)، الأعلام: (٢/ ٢٧٣).

(٢) معالم السنن: (٧/ ١٢)، وانظر: الترغيب والترهيب: (١/ ٧٩)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ١٢٦).

(٣) انظر: الاعتصام للشاطبي، طبعة مكتبة الرياض الحديثة: (١/ ٣٧)، فتح الباري، طبعة دار الفكر: (١٣/ ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٧٨)، الإبداع في مضار الابتداع، لعلي محفوظ ط ٧، دار الاعتصام: (ص: ٢٦)، شرح الأربعين لابن دقيق: (ص: ٦٩ – ٧٠، ١٨٥).

(٤) جامع العلوم والحكم: (٢/ ١٢٨)، وانظر فتح الباري: (١١/ ١٢٨).

وقد تكرر هذا المعنى في كلام المصطفى ﷺ، فمن حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول في خطبة الجمعة: [أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة].(١)

وعلى ذلك فإن العمل التعبدي إذا فقد شرط الموافقة لشرع الله جل وعلا، والاتباع لسنة رسوله ﷺ، كان عملا باطلا، مردودًا غير مقبول، مهما كان صاحبه محققًا لشرط الإخلاص.

عن عائشة(٢) ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: [من أحدث في أمرنا(٣) هذا ما ليس منه فهو رد(٤)].(٥)

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة: (١/ ٥٩٢).

(٢) هي أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ﷺ، أم عبد الله، زوج النبي ﷺ، تزوجها بمكة، وبنى بها بالمدينة، كانت من أكثر الصحابة ﷺ رواية، فقيهة عالمة، عابدة زاهدة، توفيت سنة سبع وخمسين. انظر: صفة الصفوة: (٢/ ١٥ - ٣٨)، تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ٨٦٨ - ٨٧٠).

(٣) المراد بالأمر أمر الدين والشرع. انظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ١٧٧)، فتح الباري: (١١/ ١٢٨).

(٤) [رد] مصدر بمعنى اسم المفعول: أي مردود وباطل لا يعتد به. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢١٣)، شرح الأربعين لابن دقيق: (ص: ٦٩)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٢/ ١٦)، فتح الباري: (١١/ ١٢٨).

(٥) رواه البخاري في كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود: (٢/ ٩٥٩)، ومسلم بنحوه في كتاب الأقضية. باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور: (٢/ ١٣٤٣).

وفي رواية أخرى لمسلم: [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد].(١)

يقول ابن رجب: (هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أن حديث [الأعمال بالنيات] ميزان للأعمال في باطنها، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله ، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء)(٢) وكل (من تقرب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله فعمله باطل مردود عليه).(٣)

وهذا هو المقصود بقول سفيان الثوري: (لا يستقيم قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة).(٤)

وقول أيوب السختياني(٥): (ما ازداد صاحب بدعة اجتهادًا إلا ازداد من الله بعدًا).(٦)

---

(١) كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة: (٢/ ١٣٤٤).

(٢) جامع العلوم والحكم: (١/ ١٧٦).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ١٧٨)، وانظر: الاعتقاد للبيهقي، طبعة فيصل آباد: (ص: ١١١).

(٤) حلية الأولياء: (٧/ ٣٢)، الاعتصام: (١/ ٨٤).

(٥) هو أيوب بن أبي تميمة واسمه كيسان، أبو بكر السختياني البصري، من الأئمة الحفاظ والفقهاء الثقات، صاحب عبادة وزهد واتباع للسنة، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٢٩١ - ٢٩٦)، سير أعلام النبلاء: (١/ ١١٧٦ - ١١٧٩).

(٦) حلية الأولياء: (٣/ ٩)، صفة الصفوة: (٣/ ٢٩٥)، الاعتصام: (١/ ٨٣، ١١٧).

وقول الجنيد[١]: (الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ، واتبع سنته، ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه).[٢]

وقول عبد القادر الجيلاني[٣]: (لا تبتدع ولا تحدث في دين الله ﷻ شيئًا لم يكن، اتبع الشاهدين العدلين: الكتاب و السنة، فإنهما يوصلانك إلى ربك ﷻ، وأما إن كنت مبتدعًا فشاهداك عقلك وهواك، فلا جرم يوصلانك إلى النار).[٤]

وقول ابن القيم: (كل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا، فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء).[٥]

---

(١) هو الجنيد بن محمد، أبو القاسم النهاوندي البغدادي، القواريري (لأن أباه كان يبيع الزجاج)، صاحب علم وفقه وذكاء، معروف بالعبادة والزهد، وبلاغة الألفاظ ودقة المعاني، توفي سنة سبع وتسعين ومائتين. انظر: طبقات الصوفية: (ص: ١٥٥ – ١٦٣)، سير أعلام النبلاء: (١/ ١٣٣٧ – ١٣٣٨).

(٢) طبقات الصوفية: (ص: ١٥٩)، حلية الأولياء: (١٠/ ٢٥٧)، وانظر: صفة الصفوة: (٢/ ٤١٨)، الاعتصام: (١/ ٩٥).

(٣) هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله، محي الدين، أبو محمد الجيلاني الحنبلي، إمام زاهد واعظ، وفقيه عالم قدوة، شيخ الحنابلة في زمانه، تصدر للتدريس والإفتاء والوعظ في بغداد، من مصنفاته: الفتح الرباني، الغنية لطالب طريق الحق، توفي سنة إحدى وستين وخمس مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٣٠٩ – ٢٣١٣)، الأعلام: (٤/ ٤٧).

(٤) الفتح الرباني لعبد القادر الجيلاني، طبعة دار الألباب: (ص: ١٩٤)، و انظر له أيضًا الغنية، طبعة دار الألباب: (ص: ٧٩ – ٨٠).

(٥) مدارج السالكين: (١/ ٧٣).

ذلك أن العبادات إنما تنبني وتتأسس ـ كما يقول أهل العلم ـ على التوقيف لا على الرأي، والأصل فيها المنع حتى يرد الدليل الشرعي.[١]

يقول ابن تيمية: (العبادات مبناها على الشرع والاتباع، لا على الهوى والابتداع، فإن الإسلام مبني على أصلين: أحدهما أن نعبد الله وحده لا شريك له، والثاني أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا نعبده بالأهواء والبدع، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الجاثية: ١٨ – ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فليس لأحد أن يعبد الله إلا بما شرعه رسول الله ﷺ من واجب ومستحب).[٢]

وهذا هو الباعث إلى مقولة عمر بن الخطاب ﷺ وهو يقبل الحجر الأسود: (إني لأقبلك، وإني لأعلم أنك حجر، ولكني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك).[٣]

وفي رواية أخرى: (رأيت رسول الله ﷺ بك حفيا).[٤][٥]

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٢٩/ ١٧، ١/ ٣٣٤).

(٢) مجموع الفتاوى: (١/ ٨٠)، وانظر: (١/ ٣٦٥، ١١/ ٥٨٥)، شرح الطحاوية: (ص: ٢٠٢).

(٣) رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر ﷺ في كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف: (١/ ٩٢٥).

(٤) أي مهتمًا معتنيًا. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٤٠٩)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٩/ ١٧).

(٥) رواه مسلم من حديث سويد بن غفلة ﷺ في كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود: (١/ ٩٢٦).

فعمر ﷺ يعبد الله تعالى بهذا التقبيل للحجر الأسود، امتثالاً لشرع الله، وتأسيًا برسول الله ﷺ، ابتغاء مرضاة الله جل وعلا، ولولا ذلك لما قبّله.

وهذا منه ﷺ حث على الوقوف عند حدود الاتباع والموافقة لما جاءت به الشريعة.[1]

ومثله حديث علي ﷺ: (لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه).[2]

ولذا أيضًا كان من قول عدد من الصحابة ﷺ: (الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة).[3]

وقد نهى الله جل وعلا عن الغلو في الدين[4]، حتى لا ينحرف المسلم عن حد الاعتدال والتوسط إلى طرف المبالغة والتشدد في العبادات بلا فقه

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٩/ ١٦ - ١٧).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الطهارة باب كيف المسح: (١/ ١١٤ - ١١٥) وحسن إسناده ابن حجر في بلوغ المرام من أدلة الأحكام، طبعة دار إحياء التراث العربي: (ص: ١٩). وصححه الألباني في إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل، ط٢، المكتب الإسلامي: (١/ ١٤٠).

(٣) هذا القول مروي عن ابن مسعود وأبي بن كعب وأبي الدرداء ﷺ. انظر: الزهد: (ص: ٢٠٦)، المستدرك: (١/ ١٨٤)، حلية الأولياء: (١/ ٢٥٣)، صفة الصفوة: (١/ ٤٧٦)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ٣٩٣، ٢٢/ ٢٢٤، ٢٥/ ٢٧٢، ٢٨/ ١٧٨)، الاعتصام: (١/ ٧٩، ٨١).

(٤) المراد بالغلو في الدين المبالغة والتشدد ومجاوزة الحد الشرعي. انظر النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٣٨٢)، فتح الباري طبعة دار الفكر: (١٣/ ٢٧٨)، الغلو في الدين لعبدالرحمن اللويحق، ط١، مؤسسة الرسالة: (ص: ٨١ - ٨٢).

شرعي، فيؤول به ذلك إلى الابتداع والرغبة عن السنة.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١ - سورة المائدة: ٧٧].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية الكريمة نزلت في بعض أصحاب رسول الله ﷺ، حين عزموا على ترك بعض المباحات تعبدًا وتدينًا.[1]

عن ابن عباس ﷺ: (أن رجلا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي، فحرمت عليَّ اللحم.

فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ [المائدة: ٨٧ - ٨٨]).[2]

(١) انظر: تفسير الطبري: (٧/ ٨ - ١١)، تفسير البغوي: (٢/ ٥٨ - ٥٩)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٢٢٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٨٧ - ٨٨)، الدر المنثور: (٣/ ١٣٩ - ١٤٤)، فتح القدير: (٢/ ٧٠ - ٧١)، الاعتصام: (١/ ٣٢٣ - ٣٢٥).

(٢) رواه الترمذي وحسنه في كتاب تفسير القرآن، باب من سورة المائدة: (٥/ ٢٥٥ - ٢٥٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره، طبعة المكتبة العصرية: (٤/ ١١٨٦)، والواحدي في أسباب النزول، طبعة دار الحديث: (ص: ١٦٨)، وصححه الصابطي: تحفة الأحوذي: (٧/ ٤٨٠) (الهامش)، وانظر: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، ط١، دار إحياء العلوم: (ص: ٩٦)، تفسير الطبري: (٧/ ١١)، الدر المنثور: (٣/ ١٣٩).

وعن أنس بن مالك[1] ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط[2] إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها[3]، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: [أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني].[4]

وفي رواية مسلم: [فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم : لا أنام على فراش].[5]

---

(١) هو أنس بن مالك بن النضر، أبو حمزة الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ، جاءت به أمه أم سليم بنت ملحان ﷺ إلى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة وهو ابن عشر سنين، أشبه الناس صلاة برسول الله ﷺ، أحد المكثرين من الرواية عنه عليه الصلاة و السلام، توفي بالبصرة سنة اثنتين وتسعين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٧١٠ – ٧١٤)، الإصابة: (١/ ٢٧٥ – ٢٧٨).

(٢) الرهط: من الثلاثة إلى العشرة، جمع لا واحد له من لفظه. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٨٣)، فتح الباري: (١٩/ ١٢٥).

(٣) [أي رأى كل منهم أنها قليلة] فتح الباري: (١٩/ ١٢٦).

(٤) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح: (٥/ ١٩٤٩).

(٥) رواه مسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح: (٢/ ١٠٢٠).

ومع أن باعث هؤلاء الأصحاب ﷺ الوصول إلى ثواب الله تعالى ومرضاته، لكن رسول الله ﷺ رد عليهم صنيعهم، وصرح بمخالفته لطريقته عليه الصلاة والسلام: [فمن رغب عن سنتي فليس مني].

قال ابن حجر: (الرغبة عن الشيء الإعراض عنه إلى غيره، والمراد: من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني).[1]

فقد برئ ﷺ ممن يعرض عن المشروع المسنون إرادة ومحبة، ويظن أن طريقته المبتدعة في التقرب إلى الله تعالى هي الأفضل والأجود.

وقد ذم الله تعالى النصارى الذين أحدثوا مسلك الرهبانية، فشددوا على أنفسهم في العبادة بما لم يرد في شريعة الله جل وعلا، ثم لم يفوا بعد ذلك بما التزموا به، ولم يقوموا بما تحملوه، بل غيروا وبدلوا.

قال ﷻ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

قال ابن الجوزي: (هي غلوهم في العبادة، وحمل المشاق على أنفسهم في الامتناع عن المطعم والمشرب والملبس والنكاح والتعبد في الجبال).[2]

فقد عاب الله عليهم الابتداع بما لم يكتبه الله عليهم، ثم عاب عليهم عدم الوفاء ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

---

(١) فتح الباري: (١٩/ ١٢٦)، وانظر: مجموع الفتاوى: (٢٧/ ٦٠).

(٢) زاد المسير: (٧/ ٣١١)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٨/ ٢٢٨).

يقول ابن كثير: (هذا ذم لهم من وجهين: أحدهما الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله، والثاني في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله ﷻ).[1]

ولذا حذر رسول الله ﷺ من الغلو و التنطع والتعمق[2] المتجاوز للسنة.

ففي حديث ابن عباس ﷺ يقول عليه الصلاة و السلام: [وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين].[3]

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [هلك المتنطعون] قالها ثلاثا.[4]

قال النووي: (أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم).[5]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٣١٥)، وانظر: مدارج السالكين: (٢/ ٥٤ – ٥٥) فتح الباري: (١٩/ ١٢٦).

(٢) التعمق: هو التشدد والمبالغة في الأمر بحيث يتجاوز فيه الحد. انظر النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٢٩٩)، فتح الباري: (١٣/ ٢٧٨)، وقد بوب البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب مايكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع: (٦/ ٢٦٦١).

(٣) رواه النسائي في كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى: (٥/ ٢٦٨) و ابن ماجة في كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي: (٢/ ١٠٠٨)، و أحمد في المسند: (١/ ٢١٥)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٦٣٧ – ٦٣٨) و صححه، ووافقه الذهبي، و صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ١٨٥).

(٤) رواه مسلم في كتاب العلم، باب هلك المتنطعون: (٣/ ٢٠٥٥).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ٢٢٠)، وانظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٧٤)، الغلو في الدين: (ص: ٥٨ – ٦٢).

كما بين عليه الصلاة والسلام أن عاقبة هذا المنهج إلى خسار.

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: [إن الدين يسر، ولن يشاد[1] الدين أحد إلا غلبه].[2]

قال ابن حجر: (والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب).[3]

ولما بلغ رسول الله ﷺ مقولة عبد الله بن عمرو[4] ﷺ: (والله لأصومن الدهر ولأقومن الليل ما عشت)[5] أنكر عليه ذلك.

يقول عبد الله بن عمرو ﷺ: (قال لي رسول الله ﷺ: [يا عبد الله، ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل) فقلت: بلى يا رسول الله، قال: (فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك[6] عليك حقًا، وإن بحسبك[7]

---

(١) [المشادة بالتشديد المبالغة] فتح الباري: (١/ ١٦٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين يسر: (١/ ٢٣).

(٣) فتح الباري: (١/ ١٦٥).

(٤) هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل، أبو محمد القرشي السهمي، أسلم قبل أبيه، روى عن النبي ﷺ كثيرًا، كان عالمًا متعبدًا، توفي سنة خمس وستين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٦٥٥ – ٦٦٠)، الإصابة: (٤/ ١٦٥ – ١٦٧).

(٥) من إحدى روايات البخاري للحديث: في كتاب الصوم، باب صوم الدهر: (٢/ ٦٩٧).

(٦) الزور: بفتح الزاي وسكون الواو: الضيف الزائر. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣١٨)، فتح الباري: (٩/ ٥٠، ٢٢/ ٣٣٤).

(٧) المراد يكفيك، انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٨١)، فتح الباري: (٩/ ٥٠).

أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله] فشدَّدت فشُدِّد عليَّ. قلت يا رسول الله، إني أجد قوة، قال: (فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه) قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: [نصف الدهر] فكان عبد الله يقول بعد ما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ).[1]

وفي رواية أخرى: (قال لي النبي ﷺ: [ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار] قلت: إني أفعل ذلك. قال: [فإنك إن فعلت ذلك هجمت عينك[2]، ونفهت نفسك[3]، وإن لنفسك حقًا، ولأهلك حقًا، فصم وأفطر، وقم ونم].[4]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، وحبل

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم: (٢/ ٦٩٧)، ومسلم بنحوه في كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر...: (١/ ٨١٢).

(٢) هجمت عينك: (أي غارت وضعفت لكثرة السهر). فتح الباري: (٦/ ٤٧)، وانظر غريب الحديث لأبي عبيد، ط١، دار الكتاب العربي: (١/ ٢١).

(٣) نفهت نفسك: أي أعيت وسئمت و كلت.

انظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (١/ ٢١ – ٢٢)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٨/ ٤٦)، فتح الباري: (٦/ ٤٧).

(٤) من رواية البخاري في كتاب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه: (١/ ٣٨٧)، ورواه مسلم بنحوه في كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر..: (١/ ٨١٦)، وانظر فتح الباري: (٩/ ٥٩)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٨/ ٣٩).

ممدود بين ساريتين، فقال: (ماهذا؟) قالوا: لزينب[1] تصلي، فإذا كسلت أو فترت أمسكت به، فقال: [حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتر قعد].[3]

قال النووي: (فيه الحث على الاقتصاد في العبادة والنهي عن التعمق).[4]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت عندي امرأة من بني أسد، فدخل عليّ رسول الله ﷺ، فقال: (من هذه؟) قلت: فلانة، لا تنام بالليل، تذكر من صلاتها، فقال: [مه[5]، عليكم ما تطيقون من الأعمال، فإن الله لا يمل حتى تملوا].[6]

(١) المراد على الأرجح أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها. انظر: فتح الباري: (٦/ ٤٣ – ٤٤).

(٢) هي زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية، ابنة عمة رسول الله ﷺ أميمة بنت عبد المطلب، تزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث من الهجرة، كانت رضي الله عنها كثيرة الصدقة والعبادة، توفيت سنة عشرين. انظر: صفة الصفوة: (٢/ ٤٦ – ٤٩) الإصابة: (٨/ ١٥٣ – ١٥٥).

(٣) رواه البخاري في كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة (١/ ٣٨٦)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته..: (١/ ٥٤٢).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/ ٧٣)، وانظر: فتح الباري: (٦/ ٤٤).

(٥) [مه] اسم فعل بمعنى اسكت أو اكفف، وفيه معنى الزجر والإنكار. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٣٧٧) فتح الباري: (١/ ١٧٥).

(٦) رواه البخاري في كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة: (١/ ٣٨٦)، ومسلم بنحوه في كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته...: (١/ ٥٤٢).

فالكراهية والإنكار منه عليه الصلاة والسلام هنا إنما هو على التشديد والتعمق خشية السآمة والملل المفضي إلى ترك العبادة، والحديث وإن كان سبب وروده خاصًا بالصلاة، لكن لفظه عام يشمل جميع العبادات.[1]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل[2] نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال النبي ﷺ: [مره فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه].[3]

قال ابن تيمية: (لما نذر عبادة غير مشروعة من الصمت والقيام والتضحية أمره بفعل المشروع وهو الصوم في حقه، ونهاه عن فعل غير المشروع).[4]

ويقول ابن حجر: (وفيه أن كل شيء يتأذى به الإنسان ولو مآلا مما لم يرد بمشروعيته كتاب أو سنة كالمشي حافيًا، والجلوس في الشمس، ليس هو

(١) انظر: فتح الباري: (١/ ١٧٥، ٦/ ٤٣ - ٤٥)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/ ٧٣)، الاعتصام: (١/ ٢٩٦).

(٢) مشهور بكنيته رضي الله عنه، و اسمه قُشَيْر، قرشي عامري وقيل أنصاري مدني، ليس في الصحابة من يكنى أبا إسرائيل غيره. انظر: تهذيب الأسماء و اللغات: (١/ ٦٦٦)، الإصابة: (٥/ ٣٣٦،٧/ ١٠-١١).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية: (٦/ ٢٤٦٥).

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٥/ ٢٧٧)،وانظر: (١١/ ٦١٣ - ٦١٤، ٢٢/ ٣١٥)، الاعتصام: (١/ ٣٠٧).

من طاعة الله، فلا ينعقد به النذر، فإنه ﷺ أمر أبا إسرائيل بإتمام الصيام دون غيره، وهو محمول على أنه علم أنه لا يشق عليه، وأمره بأن يقعد ويتكلم ويستظل).[1]

إن ما ورد آنفًا من نصوص الكتاب والسنة كاف للتأكيد على أن عبادة الله تعالى لابد أن تنبني على أصل صحيح من اتباع السنة وموافقة الشرع، وبدون ذلك يبقى العمل في دائرة الرد والبطلان.[2]

(١) فتح الباري: (٢٥/ ٩١)، وانظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ١٧٨).

(٢) انظر: الموافقات: (٢/ ٤٩٨).

الباب الثاني:

عبودية القلب

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: التعريف بالقلب وأهميته.

الفصل الثاني: أركان عبودية القلب وتفاوت الناس فيها.

الفصل الثالث: لوازم عبودية القلب وثمراتها والمؤثرات فيها.

الفصل الأول :

التعريف بالقلب وأهميته

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: التعريف بالقلب.

المبحث الثاني: لفظ القلب في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: أهمية القلب ومكانته.

المبحث الأول

التعريف بالقلب

١- القلب في اللغة مصدر للفعل الثلاثي قلب، يقلب.

ويرد بأحد معنيين[1]:

الأول: تحويل الشيء عن وجهه، بجعل أعلاه أسفله، وظاهره باطنه، أوردّه من جهة إلى أخرى.

يقال: قلب الثوب أو الرداء، يقلبه، قلبا: حوله ظهرًا لبطن. وقلب الإناء: ردّه على وجهه. وقلب الخبز ونحوه: حوله لينضج باطنه بعد نضوج ظاهره. وقلب فلان فلانًا: صرفه عن وجهه الذي يريد. والانقلاب إلى الله ﷻ: المصير والتحول إليه سبحانه.

والثاني: خالص الشيء ولبه وأشرف ما فيه.

يقال: جئت هذا الأمر قلبًا: أي خالصًا محضا لا يشوبه شيء. وهذا قلب كذا: أي أرفعه وأشرف ما فيه.

ثم نقل هذا المصدر، وسمي به العضو المعروف، أي العضو اللحمي ذو الشكل الصنوبري الموجود في الجانب الأيسر من الصدر.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٢٨ - ٨٢٩)، الصحاح: (١/ ٢٠٥)، لسان العرب: (٥/ ٣٧١٣ - ٣٧١٤)، ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٦٧١)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٨٨)، الكليات: (٤/ ٦).

ويجمع القلب على أقلب وقلوب.

٢- وتعريف القلب بأنه العضو الجسدي الموجود في صدر الإنسان هو أحد المعنيين اللذين يطلق عليهما لفظ القلب في الاصطلاح، وهو تعريف له بالاعتبار العضوي الحسّي.

ومن هذا الجانب يبقى هذا العضو اللحمي في الجسم أكثر الأعضاء أهمية، وأشدها تأثيرًا وحساسية بالنسبة له، إذ لا يمكن للإنسان أن يعيش بدونه، وإذا اضطرب بالمعنى الطبي تأثرت صحة الجسد كله بذلك، إذ هو مصدر الحياة له بإذن الله تعالى، ولو توقف عن القيام بوظيفته العضوية توقفت الحياة كما يقول أهل هذا الشأن، وهو بذلك ملك البدن من الناحية الجسدية، من حيث صحة البدن واعتلاله، وعافيته ومرضه، وهذا المعنى لا يختص بالإنسان بل يشاركه فيه عالم الحيوان أيضًا.[1]

أما المعنى الثاني فهو مرتبط بالجانب الروحي المعنوي، يفسر القلب بأنه لطيفة معنوية ربانية لكنها ليست معزولة عن الجانب الجسدي الحسي، ولا منفصلة عنه، بل متعلقة بالعضو المعروف بشكل وثيق، وهو منزل لها،

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٧)، خلق الإنسان لسعيد بن هبة الله، ط١، دار الكتب العلمية: (ص: ١٦٩)، التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، طبعة دار الكتب العلمية: (ص: ٢٢٩، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٥٨)، الكليات: (٤/ ٦)، الوافي في شرح الأربعين النووية لمصطفى البغا ومحي الدين مستو، ط١، مؤسسة علوم القرآن: (ص: ٣٤)، آيات الله في النفس والروح والجسد لماهر الصوفي، طبعة دار الرضوان: (ص: ١٥٧- ١٦٠).

متصف بها، بصورة يعلمها الله جل وعلا، إذ تلك العلاقة في نهاية الأمر مسألة غيبية لا نعلم كنهها على وجه التفصيل، لكننا نتيقن وجودها، وندرك خطورتها وآثارها، انطلاقًا من نصوص الكتاب العزيز والسنة الشريفة.

وهذا المعنى هو المقصود بالقلب في نصوص الشرع، وإليه اتجه أبو حامد الغزالي وابن القيم وغيرهما.[1]

يقول الغزالي: (هو لطيفة ربانية روحانية، لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاتب والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته، فإن تعلقه يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام، والأوصاف بالموصوفات، والمستعمل للآلة بالآلة، والمتمكن بالمكان).[2]

ويقول أيضًا: (وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان، ويعرف حقيقة الأشياء، وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة

(١) انظر: التعريفات للجرجاني، ط١، دار الكتاب العربي: (ص: ٢٢٩)، مجموع الفتاوى: (٩/ ٣٠٣)، روح المعاني: (١/ ١٣٤ – ١٣٥، ١٦/ ٢٠٩- ٢١٠)، مصباح الأنوار لمحمد بوعلاق، ط١، مكتبة الهلال: (ص: ١٣٨).

(٢) إحياء علوم الدين: (٣/ ٤).

خاصة، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له، ولكنها تتعلق به بواسطة القلب، فتعلقها الأول بالقلب، وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها).[1]

ويقول ابن القيم: (يطلق القلب على معنيين، أحدهما أمر حسي، وهو العضو اللحمي الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه تجويف، وفي التجويف دم أسود . وهو منبع الروح.

والثاني: أمر معنوي، وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص. وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسانية).[2]

وبهذا التفسير للمراد بلفظ القلب يمكن الجمع بين قولين:

أحدهما يتجه إلى أن لفظ القلب في القرآن (لم يقصد به مطلقًا الدلالة على القلب بمعناه التشريحي الطبي، ولكن قصد به التعبير عن جهاز إدراكي معرفي بالغ التعقيد..).[3]

والآخر يتجه إلى: (أن المراد بالقلب هو هذا العضو المادي الذي مقره الصدر)[4] وذلك في معرض ردّه على القول الأول.

---

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٦).

(٢) التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٩- ٢٦٠)، وانظر: مدارج السالكين: (٣/ ١٩٠).

(٣) وسائل الإدراك في القرآن الكريم لمحمد الشرقاوي، ط١، عالم الكتب: (ص: ٤٣)، وانظر: طب القلوب لابن القيم، جمعه عجيل النشمي، ط٢، دار الدعوة: (ص: ١٣) (المدخل).

(٤) القلب في القرآن لسيد الشنقيطي، طبعة دار عالم الكتب: (ص: ١٦)، وانظر: أحكام القرآن لابن العربي: (٣/ ١٥٠٤)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٧٩)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٦).

ذلك أن الاكتفاء بالأول فيه نوع معارضة لحديث رسول الله ﷺ: [ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب][1] وللآيات القرآنية المشتملة على لفظ القلب في سياق المدح أو الذم، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومن توجّهت إليهم هذه النصوص يعلمون ما يعنيه هذا اللفظ، إذ هو مبثوث في ثنايا كلامهم، ومعروف في مفردات لغتهم، ومن ثم يدركون المقصود به باعتباره عضوًا محسوسًا في البدن، وباعتبار ما يتعلق به من المعاني.

والاكتفاء بالثاني فيه نوع نفي لما هو ملموس من أن العضو المادي بمجرّده ليس هو المؤثر في استقامة العبد، إذ قد يختل القلب من حيث الصحة الجسدية ويبقى صاحبه ذا تقوى وإيمان، بينما قد يكون القلب صحيحًا قويًا من حيث العافية الجسدية ويكون صاحبه مرتكسًا في دائرة الكفر والفجور.

بالإضافة إلى أن القلب الحسي مما يشترك فيه الإنسان والحيوان.[2]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه: (١/ ٢٩)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات: (٢/ ١٢٢٠).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة، ط١، دار الغد الجديد: (١/ ٢٣١).

ولذا قال ابن حجر في شرحه لحديث: [ألا وهي القلب]: (المراد المتعلق به من الفهم الذي ركبه الله فيه).[1]

وقال ابن القيم: (لم يرد شكل القلب، فإنه لكل أحد، وإنما أراد القوة والغريزة المودعة فيه).[2]

٣- **هذا القلب محله الصدر**، يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم] وأشار بأصابعه إلى صدره.[3]

٤- وفي سبب تسميته بالقلب أقوال منها:

أ- أنه خالص البدن وأهم عضو فيه، وأرفعه وأشرفه.[4]

ب ـ أنه مقلوب الخلقة في الجسد من حيث الشكل.[5]

---

(١) فتح الباري: (١/ ٢١١).

(٢) مدارج السالكين: (٣/ ١٩٠)، وانظر الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن الميداني، ط١، دار القلم: (١/ ٢١٢ - ٢١٤، ٢٤٥- ٢٤٦).

(٣) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم... (٣/ ١٩٨٧).

(٤) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٢٨)، الكليات: (٤/ ٦).

(٥) انظر: فتح الباري: (١/ ٢١١)، الكليات: (٤/ ٦).

ت ـ أنه كثير التقلب، سريع الخواطر، تتبدل فيه الإرادات فلا يستقر على حال، ولذلك قيل فيه:

ما سمي القلب إلا من تقلبه ... فاحذر على القلب من قلب وتحويل[1]

ويؤيد هذا القول ما ورد في حديث أبي موسى الاشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [إنما سمي القلب من تقلبه، وإنما مثل القلب مثل ريشة معلقة[2] في أصل شجرة، يقلبها الريح ظهرًا لبطن].[3]

وحديث المقداد بن الأسود[4] ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) انظر: المفردات: (ص: ٤١٠)، إحياء علوم الدين: (١/ ٦٠ -٦١)، منهاج العابدين: (ص: ٦٩)، زاد المسير: (١/ ٢٢)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣١)، عمدة القاري: (١/ ٢٩٨)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٩١)، الدر المنثور: (١/ ٢١٤)، فيض القدير: (٣/ ٢)، روح المعاني: (١/ ١٣٤ - ١٣٥).

(٢) قال البنا في بلوغ الأماني: (١٤/ ٢٨٩) (أي لكثرة تقلبه وعدم ثبوته على حالة واحدة، شبه القلب بالريشة لسرعة تقلبها بالقليل من الريح، لا سيما إذا كانت معلقة، ووصفها بالتعليق لأنها أبلغ في كثرة تقلب المعلق بالريح من الملقي على الأرض).

(٣) رواه أحمد في المسند: (٤/ ٢٠٨)، وابن ماجة بنحوه في المقدمة، باب في القدر: (١/ ٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، ط١، دار الكتب العلمية: (١/ ٤٧٣)، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى الطبراني وصححه: فيض القدير: (٣/ ٢)، وحسنه الحافظ العراقي في المغني: إحياء علوم الدين: (٣/ ٦١)، وانظر: كشف الخفاء للعجلوني، ط٤، مؤسسة الرسالة: (٢/ ٤٠٥).

(٤) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة، القضاعي الكندي، اشتهر بالمقداد بن الأسود لأنه حالف الأسود بن عبد يغوث الزهري في الجاهلية فتبناه، أسلم قديمًا، هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، توفي بالمدينة سنة ثلاث وثلاثين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٤٢٣ - ٤٢٦)، الإصابة: (٦/ ١٥٩ - ١٦١).

[لقلب ابن آدم أسرع تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا].[1]

٥- الفؤاد وعلاقته بالقلب:

الفؤاد مأخوذ من فأد، يفأد، فأدا. وهو (أصل صحيح يدل على حمى وشدة حرارة، ومن ذلك فأدت اللحم: شويته)[2] (وافتأدوا: أوقدوا نارًا، والمفتأد: موضع الوقود، والتفؤد التوقد).[3]

والفؤاد: القلب، والجمع أفئدة.[4] وعلى هذا فاللفظان مترادفان في المعنى.

وسّمي القلب بالفؤاد لتوقده وحرارته.[5]

قال الراغب: (الفؤاد كالقلب، لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد، أي التوقد).[6]

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة، ط١، المكتب الإسلامي: (١/ ١٠٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٧/ ٤٢٩) (رواه الطبراني بأسانيد رجال أحدها ثقات)، ورواه الحاكم في المستدرك: (٢/ ٣١٧) وصححه، ووافقه الذهبي، كما صححه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٥/ ٢٨١)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ١٩٧).

(٢) مقاييس اللغة: (ص: ٨٠٤).

(٣) لسان العرب: (٥/ ٣٣٣٤)، وانظر: ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٤٤٠).

(٤) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٠٥)، الصحاح: (١/ ٢٠٤)، النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤٠٥)، عمدة القاريء: (١/ ٢٩٨)، لسان العرب: (٥/ ٣٣٣٤ - ٣٧١٤)، ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٤٤٠)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢١٨ ، ٢٨٨)، الكليات: (٣/ ٣٥٥).

(٥) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٠٥)، لسان العرب: (٥/ ٣٣٣٤)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢١٨).

(٦) المفردات: (ص: ٣٧٢).

هذا القول بأن الفؤاد بمعنى القلب هو الظاهر.

قال في اللسان: (رأيت بعض العرب يسمي لحمة القلب كلها، شحمها وحجابها، قلبًا وفؤادًا، ولم أرهم يفرقون بينهما).[1]

وهناك من يفرق بين القلب والفؤاد في اتجاهين متقابلين:

الأول: أن القلب أخص من الفؤاد، ودائرة الفؤاد أعم.

قال في اللسان: (القلب مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط[2]).[3]

والقلب على هذا جزء من الفؤاد.

وقال ابن الأثير[4]: (الفؤاد القلب، وقيل وسطه، وقيل الفؤاد غشاء القلب، والقلب حبته وسويداؤه).[5]

---

(١) لسان العرب: (٥/ ٣٧١٤)، من كلام الأزهري: (قال: ولا أنكر أن يكون القلب هي العلقة السوداء في جوفه).

(٢) النياط: (عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين) ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ٤٦٠)، وانظر: غريب الحديث لأبي سليمان الخطابي، ط دار الفكر: (١/ ٢٣٤)، التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٤١).

(٣) لسان العرب: (٥/ ٣٧١٤).

(٤) هو المبارك بن محمد بن محمد، مجد الدين أبو السعادات، ابن الأثير، الشيباني الجزري الموصلي، محدث لغوي علامة، من مصنفاته جامع الأصول، والنهاية في غريب الحديث، توفي سنة ست وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣١٨٢)، الأعلام: (٥/ ٢٧٢).

(٥) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤٠٥)، وانظر: معالم السنن: (٥/ ٣٥٩)، لسان العرب: (٥/ ٣٣٣٤)، ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٤٤٠، ٦٧١)، قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي، ط٢، دار صادر: (٢/ ١٠٢)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢١٨، ٢٨٨)، الكليات: (٣/ ٣٥٥).

وذكر ابن الجوزي أن القلب (مستكن في الفؤاد).[١]

وقال القرطبي: (الفؤاد محل القلب).[٢]

واستدل بعض القائلين بهذا القول بحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوبًا وأرق أفئدة...].[٣]

إذ وصف الحديث القلوب باللين والأفئدة بالرقة، مما يشير إلى افتراقهما في المعنى، والى أن الفؤاد غشاء للقلب.[٤]

قال في الفتح: (لأن الفؤاد غشاء القلب، فإذا رق نفذ القول وخلص إلى ما وراءه، وإذا غلظ بعد وصوله إلى داخل).[٥]

وقال ابن الصلاح[٦] في توجيه المسألة: (المشهور أن الفؤاد هو القلب،

---

(١) زاد المسير: (١/ ٢٢).

(٢) تفسير القرطبي: (١/ ١٣٣)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن: (٤/ ١٥٩٤)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه: (١/ ٧٣).

(٤) انظر: نوادر الأصول: (٤/ ١٢٠)، النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٩٦)، الكليات: (٣/ ٣٥٥).

(٥) فتح الباري: (١٦/ ٢٢٥)، وانظر: (١٣/ ٨٥) ط دار الفكر، غريب الحديث للخطابي: (١/ ١٩٦).

(٦) هو عثمان بن عبد الرحمن (صلاح الدين) بن عثمان، تقي الدين، أبو عمرو الكردي الشهرزوري الموصلي الشافعي، المعروف بابن الصلاح، حافظ علاّمة، من كبار الأئمة، متبحر في الأصول والفروع، صاحب وقار وفصاحة، وورع وعبادة، من مصنفاته: معرفة علوم الحديث، وأدب المفتي والمستفتي، توفي سنة ثلاث وأربعين وست مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٦٥٩ – ٢٦٦٠).

فعلى هذا يكون قد كرر ذكر القلب مرتين بلفظين، وهو أولى من تكريره بلفظ واحد.

وقيل الفؤاد غير القلب.[١] وهو عين القلب، وقيل الفؤاد باطن القلب، وقيل هو غشاء القلب).[٢]

الثاني: أن الفؤاد أخص من القلب، ودائرة القلب أعمّ.

فالفؤاد على هذا القول باطن القلب[٣]، أو وسط القلب[٤]، وعلاقته بالقلب كعلاقة القلب بالصدر[٥]، ومن ثمّ فهو يمثل الدائرة الأصغر والأعمق ضمن دوائر النفس.[٦]

وعلى كلٍّ فإن عددًا من المفسرين يرى أن الفؤاد يعبّر به عن القلب في آيات الكتاب العزيز، وكثيرًا ما يفسرون لفظ الفؤاد في مواضعه بالقلب.[٧]

---

(١) انظر: وسائل الإدراك في القرآن الكريم: (ص: ٦١- ٦٥).

(٢) صيانة صحيح مسلم: (١/ ٢١٤)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٣٣-٣٤)، النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٩٦)، فيض القدير: (١/ ٩٣).

(٣) انظر: مشارق الأنوار: (١/ ٢٩٨)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٣٤)، الكليات: (٣/ ٣٥٥).

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤٠٥)، لسان العرب: (٥/ ٣٣٣٤).

(٥) انظر: روح المعاني: (١٤/ ٢٠٢)، فتح القدير: (٣/ ١٢٨).

(٦) انظر: الأخلاق الإسلامية و أسسها: (١/ ٢١٢، ٢١٤، ٢٨٤).

(٧) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٥٢)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٢٠١، ٤٠٠)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٥٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٥/ ١٥٣)، زاد المسير: (٧/ ٣٨٦)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣٢، ١٦/ ٢٠٨، ١٨/ ٢١٩)، نظم الدرر: (٢/ ٦٩٦)، روح المعاني: (١٥/ ٧٥، ٢٩/ ٢٠)، فتح القدير: (٥/ ٢٦٤).

٦ – الصدر وعلاقته بالقلب:

لفظ الصدر في أصله اللغوي يطلق على معنيين:

الأول: الصدر المقابل للورد، يقال: صدر عن الماء، أي رجع عنه، وصدر عن البلد، إذا وردها ثم شخص عنها وانصرف.

والثاني: الجارحة المعروفة في الإنسان، والجمع صدور.

ثم أطلق لفظ الصدر على مقدم كل شيء وأوله، وعلى الطائفة من الشيء. يقال: صدر المجلس، وصدر الأمر، وصدر النهار.(١)

والصدر أعمّ من القلب، إذ هو شامل له، ومحل له وموضع، كما صرّحت بذلك الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ولذا يعبّر بالصدر عن القلب في كثير من الآيات المتضمنة لهذا اللفظ في القرآن الكريم.(٢)

ولابن القيم رأي في العلاقة بين الصدر والقلب أورده في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥].

يقول ابن القيم: (تأمل السّر في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٥٦٤)، لسان العرب: (٤/ ٢٤١١)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٨٠٤).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ١٠١)، تفسير القرطبي: (١/ ١٣٢ – ١٣٣، ١٠/ ٤٢)، روح المعاني: (٢٤/ ٧٨).

صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل في قلوبهم.

والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه، فتجتمع في الصدر، ثم تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليزله. ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود).(١)

ويرى بعض المعاصرين أن الصدر يمثل دائرة من دوائر النفس، أعم من دائرة القلب، فإذا أطلق لفظ الصدر في القرآن الكريم فقد يكون المراد عامة الصدر فيدخل تحته دائرة القلب، وقد يكون المراد ما يختص بدائرة القلب، وقد يكون المراد ما بقي تحت عنوان الصدر من وراء دائرة القلب.(٢)

وعلى هذا الرأي يمكن أن يكون هناك معان تختص بالصدر دون القلب والعلم عند الله تعالى.

٧ – العقل وعلاقته بالقلب:

- **قال أهل اللغة:**

أصل العقل الحبس، مأخوذ من عقلت البعير، إذا جمعت قوائمه. والجمع عقول.

يقال: عقل الشيء، يعقله، عقلا: فهمه، فهو عاقل، وعقول.

(١) تفسير المعوذتين لابن القيم، ط٦، المطبعة السلفية: (٦٨)، وانظر: فتوح الغيب لعبد القادر الجيلاني، ط٢، دار القادري: (ص: ١٣٢)، أضواء البيان: (٩/ ٦٧٠ – ٦٧٢).

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها: (١/ ٢١٢ – ٢١٣، ٢٣٩)، المفردات: (ص: ٢٧٩ – ٢٨٠)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٣٩٢ – ٣٩٣).

والعقل نقيض الجهل. يقال: عقل كذا، إذا عرف ما كان يجهله من قبل، أو انزجر عما كان يفعله.

والعقل ضد الحمق. يقال: رجل عاقل، أي جامع لأمره ورأيه، ورجل عقول، إذا كان حسن الفهم، وافر العقل.

وسمي العقل عقلًا تشبيها بعقل الناقة، لأن العقل يحبس الإنسان عن الإقدام على شهواته إذا قبحت، ويمنعه من ذميم القول والفعل، كما يمنع العقال الناقة من الشرود إذا نفرت.[1]

- ولم يرد لفظ العقل بهذا الاسم في القران الكريم، لكنه ورد بصيغة الفعل (عقل، يعقل..)[2] في مواضع كثيرة، منها قول الله تعالى:

﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

- ويسمّى العقل لُبًا، والجمع ألباب، يقال: رجل لبيب، أي عاقل،

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٦٤٧)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٤ – ٣٠٦)، لسان العرب: (٤/ ٣٠٤٦)، ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٢٧٧)، أدب الدنيا والدين للماوردي، ط٦، دار اقرأ: (ص: ٩).

(٢) انظر: الإنسان في ضوء القرآن لعبد الرحمن المطرودي، ط١٤١٠هـ (ص: ٢٤٢ – ٢٤٣)، وسائل الإدراك في القرآن الكريم: (ص: ١٥).

ولبُّ كل شي خالصه وأجوده.[1]

وقيل: اللب ما زكا من العقل، وعلى هذا فكل لب عقلا، وليس كل عقل لُبّا.[2]

ومن مواضع لفظ اللب في الكتاب العزيز قول الله تعالى:

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

ويسمّى العقل أيضًا حِجْرًا، لأنه يحجر صاحبه، ويمنعه من الوقوع فيما لا ينبغي، والجمع حجور[3] ومنه قول الله تعالى:

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ [الفجر: ٥].

ويسمى كذلك نُهْية، لأنه ينهى عن القبيح من القول والفعل، والجمع نُهَى.[4]

(١) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٨٩٩ – ٩٠٠)، الصحاح: (١/ ٢١٦)، المفردات: (ص: ٤٤٩)، لسان العرب: (٥/ ٣٩٧٩)، ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ١١٤)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤١٣)، الكليات: (٣/ ٢١٩).

(٢) انظر: المفردات: (ص: ٤٤٩)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤١٤).

(٣) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٢٧٨)، المفردات: (ص: ١١٦)، ترتيب القاموس المحيط: (١/ ٥٩٢)، الكليات: (٣/ ٢١٩).

(٤) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩٦٣)، المفردات: (ص: ٥٠٩)، ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ٤٥٤).

ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤، ١٢٨].

• وقد اختلف أهل العلم في حدّ العقل، فعرفوه بتعاريف كثيرة[١]، بعضها متقارب.

ومن ذلك أن العقل غريزة[٢]، أو آلة التمييز والإدراك[٣]، أو ما يحصل به الميز بين المعلومات[٤]، أو هو بعض العلوم الضرورية يستعد بها لفهم دقيق العلوم[٥]، أو غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه، لا يمكن وصفه وإنما يعرف بأثره، وعنه تكون المعرفة[٦]، أو هو نور معنوي في باطن الإنسان،

(١) انظر: التعريفات للجرجاني: (ص: ١٩٦ –١٩٨)، أدب الدنيا والدين: (ص: ٨–١٠)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٧٩ –٨٢)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٤ – ٣٠٥)، خلق الإنسان: (ص: ١٦٦)، الكليات: (٣/ ٢١٦ – ٢١٨)، تفسير القرطبي: (١/ ٢٥١ – ٢٥٢)، العقل للمحاسبي، ط١، دار الكتب العلمية: (ص: ١٦٩ – ١٦٢).

(٢) وهو مروي عن أحمد وغيره. انظر: المختصر لابن اللحام: (ص: ٣٧)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٨٠)، الاستقامة لابن تيمية، ط١، دار ابن حزم: (٢/ ١٦١ – ١٦٢)، مجموع الفتاوى: (٩/ ٢٨٧، ١٨/ ٣٣٨).

(٣) وهو مروي عن الشافعي. انظر: شرح الكوكب المنير: (١/ ٨٠)، الكليات: (٣/ ٢١٦).

(٤) انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٤)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٧٩)، الكليات: (٣/ ٢١٦-٢١٧).

(٥) انظر: المختصر: (ص: ٣٧)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٨١)، أدب الدنيا والدين: (ص: ٩)، الاستقامة: (٢/ ١٦٢).

(٦) هذا معنى قول المحاسبي في كتاب العقل: (ص: ١٦٩ – ١٧٠)، وهو حقيقة العقل عنده، ثم ذكر معنيين للعقل في لغة العرب، كائنين عن المعنى الأصلي، ويطلق عليهما العلماء عقلًا، أحدهما: الفهم والبيان لإصابة المعنى، والثاني: البصيرة بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة، ومنه العقل عن الله تعالى. انظر: (ص:١٧٢–١٧٣).

يبصر به القلب ما غاب عن الحواس بتأمله وتفكيره بتوفيق الله تعالى، بعد انتهاء درك الحواس.[١]

قال ابن الجوزي: (والتحقيق في هذا أن يقال: العقل غريزة، كأنها نور يقذف في القلب، فيستعدّ لإدراك الأشياء، فيعلم جواز الجائزات واستحالة المستحيلات، ويتلمح عواقب الأمور، وذلك النور يقل ويكثر، وإذا قوي ذلك النور قمع بملاحظة العواقب عاجل الهوى).[٢]

واعتبر الراغب أن العقل يطلق على القوة العقلية كما يطلق على ثمرتها من العلم المستفاد.

يقول الراغب: (العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل، وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول).[٣]

وقسم الماوردي[٤] العقل إلى غريزي ومكتسب، يعبّر الأول منهما عن

(١) الكليات: (٣/ ٢١٧)، وانظر: (٢١٦).

(٢) ذم الهوى لابن الجوزي، ط١، دار الجيل: (ص: ١٥).

(٣) المفردات: (ص: ٣٤٥)، ومثل ذلك قاله ابن تيمية حين ذكر أن العقل في القلب مثل البصر في العين، يراد به الإدراك تارة، ويراد به القوة التي يحصل بها الإدراك تارة أخرى. انظر: الاستقامة: (٢/ ١٦٢)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٣٩، ٩/ ٢٨٦ –٢٨٧، ١٨/ ٣٣٨)، تفسير الفخر الرازي: (٥/ ٩)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٨٥)، الكليات: (٣/ ٢١٧).

(٤) هو علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن البصري الماوردي الشافعي، إمام علامة، قاضي القضاة في عصره، صنف في الفقه والتفسير والأدب، من مصنفاته: أدب الدنيا والدين، والأحكام السلطانية، توفي سنة خمسين وأربع مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٨٣٣ – ٢٨٣٤)، الأعلام: (٤/ ٣٢٧).

حقيقة العقل، سواء ما كان منه نتيجة لإدراك الحواس، أو كان مبتدأ في النفوس، بينما يمثل العقل المكتسب ثمرة للعقل الغريزي، ونماؤه يتحقق بكثرة الاستعمال، وانتفاء الموانع من غلبة الهوى والشهوة، كما يتحقق بفرط الذكاء وحسن الفطنة.[1]

ويرى بعض المعاصرين أن العقل عقلان، عقل علمي، وعقل إرادي، وأن العقل الإرادي يستند إلى نتائج العقل العلمي، وإلا جنح عن الصواب، وأن العقل العلمي قد لا يقترن بالعقل الإرادي، إذ قد يتوصل الإنسان إلى معرفة علمية صحيحة ويعقلها، ولكنه يعجز عن ضبط نفسه عن أهوائها المتناقضة مع هذا العلم الحقّ.[2]

ويبقى كلام الغزالي من أحسن ما ورد في تحرير المراد من لفظ العقل، حيث يجمع بين كثير من الأقوال في إطار واحد يكشف حقيقة العقل بإطلاقاته المتعددة، إذ يرى أن العقل يطلق بالاشتراك على أربعة معان[3]:

الأول: الوصف الذي يميز الإنسان عن البهائم، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الفكرية، وبمعنى آخر الغريزة التي بها يتهيأ لإدراك العلوم النظرية.

(١) انظر: أدب الدنيا والدين: (ص: ٨ – ١١).

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها: (١/ ٢٩٦ – ٢٩٧)، إحياء علوم الدين: (٣/ ١٠ – ١١).

(٣) إحياء علوم الدين: (١/ ١١٨ – ١١٩)، وانظر: (٣/ ٦، ١٠ – ١١).

الثاني: العلوم الضرورية، كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وذلك مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد، وهي علوم تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز.

الثالث: العلوم المستفادة من التجارب، فمن حنكته التجارب يقال عنه إنه عاقل في العادة، فهذا نوع من العلوم يسمى عقلاً.

الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقهر الشهوة الداعية إلى اللذائذ المضّرة، ومن تحصّل له ذلك يسمّى عاقلًا، من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب المصلحة لا بحكم الشهوة.

والمعنى الأول هو الأصل، والثاني فرع قريب منه، والثالث فرع عن الأول والثاني، والرابع الثمرة القصوى. فالأولان بالطبع، والأخيران بالاكتساب، وهذا معنى قول القائل:

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع[1]

● **واختلف أهل العلم أيضًا في محل العقل على قولين**[2]:

(١) منسوب إلى علي ﷺ انظر: المفردات: (ص: ٣٤٥)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٨٥).

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين: (ص: ٨)، ذم الهوى: (ص: ١٥)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٨٣ – ٨٥)، خلق الإنسان: (ص: ١٦٨ – ١٦٩)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٥)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٦٨، ١١/ ٢٩)، تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٧ – ١٦٨)، تفسير القرطبي: (١/ ٢٥٢)، مفتاح دار السعادة: (٢٣٠ – ٢٣١).

القول الأول: أن محله القلب.

وهو قول كثير من الشافعية والمالكية والحنابلة، ومنقول عن بعض الفلاسفة والأطباء المتقدمين[1]، ونسبه القرطبي إلى الأكثرين.[2]

وممن قال به من المفسرين ابن عطية[3]، وابن جزي[4]، والرازي[5]، والقرطبي[6]، وابن الجوزي[7]، وابن كثير[8]، ومحمد الأمين[9].

ومن أدلتهم ما يلي:

١- قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

ووجه الاستدلال أن الآية الكريمة صرحت بأن وظيفة القلب العقل،

(١) انظر: ذم الهوى: (ص: ١٥)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٥)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٦٨، ١١/ ٢٩)، المختصر: (ص: ٣٨)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٨٣)، التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٣)، عمدة القاري: (١/ ٣٠٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١/ ١٣٣).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٧).

(٤) انظر: التسهيل: (٣/ ٤٣).

(٥) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٧).

(٦) انظر: تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٢، ١٣/ ١٦٩).

(٧) انظر: زاد المسير: (١/ ٢٢).

(٨) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٧٩).

(٩) انظر: أضواء البيان: (٥/ ٧١٥).

كما أن وظيفة الأذن السمع.

قال ابن عطية: (هذه الآية تقتضي أن العقل في القلب).[1]

وقال أبو حيان: (إسناد العقل إلى القلب يدل على أنه محله).[2]

وبنحوه قال جمع من أهل التفسير وغيرهم.[3]

٢- قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وجه الاستدلال أن الآية الكريمة أضافت منفعة كل عضو إليه، فجعلت منفعة الفقه مختصة بالقلب، ومنفعة البصر مختصة بالعين، ومنفعة السمع مختصة بالأذن، وذلك في سياق الذم لأهل الكفر الذين لم ينتفعوا بهذه الوسائل في إدراك ما ينفعهم من الخير والهدى.

والفقه هو العلم والفهم، فثبت بذلك أن العقل في القلب.[4]

(١) تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٧)، وانظر: فتح الرحمن: (ص: ٢٢٣).

(٢) تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٧٨).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ٤٠٠)، التسهيل: (٣/ ٤٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٣/ ٢٤، ٤٥/ ١٦)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٥٢، ١٣/ ١٦٩)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٦)، روح المعاني: (١٧/ ١٦٨)، أدب الدنيا والدين: (ص: ١٠)، شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٩)، مجموع الفتاوى: (٩/ ٣٠٣، ٣١١)، مفتاح دار السعادة: (ص: ٢٣١)، التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٣)، فتح الباري: (١/ ٢١١)، أضواء البيان: (٥/ ٧١٥).

(٤) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢/ ٥٣، ١٥/ ٦٤، ٢٤/ ١٦٧)، مجموع الفتاوى: (٩/ ٣١٠)، بدائع الفوائد: (٣/ ١٧١)، الوافي في شرح الأربعين النووية: (ص: ٣٤).

٣- قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق: ٣٧].

قال بعض المفسرين: أي عقل[1]، عبر بالقلب عنه لأنه موضعه ومكان استقراره، مما يدل على أن القلب محل العقل.[2]

وهو تعبير تستعمله العرب.

قال بعض أهل اللغة: المعقول ما تعقله بقلبك، ولب الرجل ما جعل في قلبه من العقل، والعقل القلب، والقلب العقل، وقلب عقول: أي فَهِم، وما قلبك معك، وأين ذهب قلبك: أي عقلك.[3]

وعن ابن عباس ﷺ لما سئل: أنّى أصبت هذا العلم؟ قال: (لسان سؤول وقلب عقول).[4]

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء: (٣/ ٨٠)، تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٧)، تفسير غريب القرآن: (ص: ٤١٩)، تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٧)، تفسير القرطبي: (٩/ ١٨٦، ١٧/ ١٧)، تفسير البيضاوي: (١/ ٢٣ - ٢٤)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٢٩)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٨٨)، فتح الرحمن: (ص: ٣٢٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١/ ١٣٢ - ١٣٣، ١٧/ ١٧)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٨٣)، ذم الهوى: (ص: ١٥)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٥)، شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٩)، فتح الباري: (١/ ٢١١)، مفتاح دار السعادة: (ص: ٢٣١)، التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٣).

(٣) انظر: معاني القرآن للفراء: (٣/ ٨٠)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٤)، لسان العرب: (٤/ ٣٠٤٦، ٥/ ٣٧١٤، ٣٩٧٩)، ترتيب القاموس المحيط: (٣/ ٦٧١)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٨٨)، الكليات: (٤/ ٦).

(٤) صفة الصفوة: (١/ ٧٤٩)، وقد أثنى عليه عمر ﷺ بذلك أيضًا انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٤١٢)، الإصابة: (٤/ ١٢٥).

وقد فسّر ابن كثير وغيره لفظ الأفئدة بالعقول في عدد من آيات الكتاب العزيز.[1]

٤ - أضاف القرآن الكريم الصفات المضادة للعلم إلى القلب، ومن ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧].

﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

فهذه الآيات الكريمات تفيد أن الجهل محله القلب، مما يشير بدلالة المفهوم إلى أن موضع العقل والفهم هو القلب.[2]

٥- حديث النعمان بن بشير ﷺ عن رسول الله ﷺ، وفيه: [ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب].[3]

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٧٩، ٣/ ٢٥٢، ٤٥٨، ٤/ ٤٠٠)، تفسير السعدي: (٣/ ٣٦٩، ٥/ ١٧)، وقد فسر السمرقندي القلوب بالعقول في قوله تعالى: ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾، تفسير السمرقندي، (بحر العلوم) طبعة دار الفكر: (٢/ ٤٦٣)، وكذلك فعل الزركشي في قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ وذلك باعتبار أن القلب محل العقل، فعبر به عنه. انظر: البرهان في علوم القرآن، ط٢، دار المعرفة: (٢/ ٢٨١).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٧).

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه: (١/ ٢٩)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات: (٢/ ١٢٢٠).

استدل ابن حجر وغيره بهذا الحديث: (على أن العقل في القلب)[1] باعتبار أن الرسول ﷺ جعل صلاح الجسد وفساده تابعًا للقلب.[2]

القول الثاني: أن محله الرأس (الدماغ).

وهو اختيار الأحناف، ومروي عن أحمد[3]، ومنقول عن بعض الفلاسفة والأطباء قديمًا، وهو المشهور في علم الطب الحديث.[4]

ومن أدلتهم ما يلي:

١. أن الدماغ إذا تعرض لآفة أو ضربة قوية قد تضطرب قوى الإنسان، ويتأثر معها إدراكه وتمييزه، فيختل العقل بفساد الدماغ.

٢. أن الحواس التي هي آلات الإدراك نافذة إلى الدماغ.

---

(١) فتح الباري: (١/ ٢١١)، وانظر: عمدة القاري: (١/ ٣٠٢).

(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٥ - ٣٠٦)، شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٩، ١٦/ ١٢١)، الوافي في شرح الأربعين النووية: (ص: ٣٤).

(٣) هو أحمد بن حنبل بن هلال، أبو عبد الله الشيباني، المروزي ثم البغدادي، محدث فقيه، أحد الأئمة الأعلام، مجمع على إمامته وحفظه، وزهده وورعه، وعلمه وفقهه، من مصنفاته: المسند، وفضائل الصحابة، توفي سنة أربع وستين ومائة. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ١٨٤ - ١٨٧)، سير أعلام النبلاء: (١/ ٩٢١ - ٩٧٠).

(٤) انظر: المختصر: (ص: ٣٨)، خلق الإنسان: (ص: ١٦٨ - ١٦٩)، ذم الهوى: (ص: ١٥)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٥)، شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٩)، مجموع الفتاوى: (٩/ ٣٠٣)، شرح الكوكب المنير: (١/ ٨٤)، التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٣)، عمدة القاري: (١/ ٣٠٢)، الوافي في شرح الأربعين النووية: (ص: ٣٥)، آيات الله في النفس: (ص: ١٣٧ - ١٣٨).

٣. أن الأعصاب التي هي آلات الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ.

٤. أن الرأس هو الذي يعالج عند اضطراب الفكر.

٥. أن العرب تقول فيمن يراد وصفه بكمال العقل: إنه وافر الدماغ، وفيمن يراد وصفه بقلة العقل وضعفه: إنه خفيف الرأس، خفيف الدماغ.[1]

ولا ريب أن القول الأول أقوى من حيث الاستدلال، غير أن الجمع بين القولين ممكن، بحيث لا يكون القول بأن العقل في الدماغ معارضًا للقول بأن العقل من وظائف القلب.

ومن ثم يمكن القول بأن للعقل تعلقا بالدماغ وبالقلب في آن واحد، وذلك باعتبارهما مصدرين، أولهما قريب فرعي مباشر، والآخر يمثل الأصل المؤثر والمركز الرئيس، والذي تنبعث منه إرادات الفكر والتصور، والعلم والفقه، والعمل والتطبيق، فمركز التفكير والنظر في الرأس يتلقى التوجيه من القلب، وينتظر الأمر، ثم يعود إليه بالنتائج ليقرر القلب ويريد.

---

(١) انظر: خلق الإنسان: (ص: ١٦٨ - ١٦٩)، أدب الدنيا والدين: (ص: ٨)، تفسير الفخر الرازي: (٤/ ١٦٧)، تهذيب الأسماء واللغات: (٢/ ٣٠٦)، شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٩)، التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٣)، مفتاح دار السعادة: (ص: ٢٣١)، عمدة القاري: (١/ ٣٠٢).

وقد عرض ابن القيم لهذه المسألة، بعد ما ذكر أن الدماغ محل الحفظ والتأمل والتذكر، وإثر عرضه للرأيين قال: (والتحقيق أن أصله ومادته من القلب، وينتهي إلى الدماغ).[1]

وقال في موضع آخر: (الصواب أن مبدأه ومنشأه من القلب، وفروعه وثمرته في الرأس).[2]

ويرى بعض المعاصرين أن ما يتعلق بالدماغ هو العقل العلمي، وما يتعلق بالقلب هو العقل الإرادي.[3]

ولعل هذا التقسيم منبثق عن قول ابن تيمية بأن: (مبدأ الفكر والنظر في الدماغ، ومبدأ الإرادة في القلب، والعقل يراد به العلم، ويراد به العمل، فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة، وأصل الإرادة في القلب، والمريد لا يكون مريدًا إلا بعد تصور المراد، فلابد أن يكون القلب متصورًا، فيكون منه هذا وهذا، ويبتدئ ذلك من الدماغ، وآثاره صاعدة إلى الدماغ، فمنه المبتدأ وإليه الانتهاء، وكلا القولين له وجه صحيح).[4]

---

(١) التبيان في أقسام القرآن: (ص: ٢٥٣).

(٢) مفتاح دار السعادة: (ص: ٢٣١).

(٣) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها: (١/ ٢١٢، ٢٨٩).

(٤) مجموع الفتاوى: (٩/ ٣٠٤)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٧ – ١٦٨)، روح المعاني: (١/ ١٣٥، ١٧/ ١٦٩).

وبهذا الجمع بين الأقوال يمكننا أن نعي كيف يفلح البعض في اكتساب عقل الفكر والتأمل، فيبدعون فيه، ويتحقق لهم فيه التمكين، استثمارًا لسنن الله تعالى في الكون، بما يفيدهم علمًا دنيويًا صرفًا، ونفعًا ماديًا مجردًا، لكنهم يخفقون في اكتساب عقل الاهتداء، حين لا تتجه قلوبهم إلى إرادة الحق، وقصد الهدى، وحين يستنكفون عن الانتفاع بملكة التفكير لديهم في ولوج طريق الإيمان، والتزام منهج الله تعالى. فحصلّوا عقل الفكر، وفقدوا عقل الهداية، والعلم عند الله تعالى.

المبحث الثاني

لفظ القلب في القرآن الكريم

ورد لفظ القلب في القرآن الكريم اثنتين وثلاثين ومائة مرة، وذلك في أربع وعشرين ومائة آية، ضمن ثلاث وأربعين سورة.

وبالتأمل في تلك الآيات الكريمات باعتبارات متعددة، يمكن استنتاج بعض الملامح الكاشفة لسياقات لفظ القلب في القرآن على سبيل الإجمال، ومن ذلك ما يلي:

١- ورد لفظ القلب بصيغة الإفراد تسع عشرة مرة، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾ [ق: ٣٧].

وورد بصيغة الجمع في بقية المواضع، ومن ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ [البقرة: ١١٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٧٠].

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٠].[1]

ويستثنى من ذلك موضع واحد[2] ورد فيه لفظ القلب بصيغة التثنية، هو قول الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤].

والنفي في هذه الآية الكريمة لتقرير أن القلب في جوف المرء لا يتعدد، إنما هو قلب واحد، يقبل الإيمان، أو يقبل الكفر، ولا يجمع بين الضدين من

(١) ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ـ كما قال ابن قتيبة ـ (الذين كان النبي ﷺ يتألفهم على الإسلام) تفسير غريب القرآن: (ص: ١٨٩)، وانظر تفسير البغوي: (٢/ ٣٠٣ – ٣٠٤)، تفسير القرطبي: (٨/ ١١٣ – ١١٥).

(٢) هناك موضع آخر ورد فيه لفظ القلب بصيغة الجمع، والمراد به المثنى، وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، إذ سياق الآية بلفظ التثنية، والمخاطب بها حفصة وعائشة رضي الله عنهما، تتضمن حثهما على التوبة، والمعنى: إن تتوبا إلى الله كان في ذلك الخير لكما، بعد أن صغت قلوبكما، أي مالت عن الحق، وعدلت عن الصواب، وذلك في واقعة مخصوصة ذكرها المفسرون. انظر: تفسير الطبري: (٢٨/ ١٥٥ – ١٥٨)، زاد المسير: (٨/ ٤٩ – ٥٠)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٨٦ – ٣٨٨)، أسباب النزول: (ص: ٣٧٣ – ٣٧٥)، لباب النقول: (ص: ٢١٧)، والتعبير بالجمع على هذا النحو استعمال للعرب معروف، قال القرطبي: (ومن شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما، لأنه لا يشكل)، تفسير القرطبي: (١٨/ ١٢٤)، وقال الحسين بن ريان: (إنما جمع القلوب لئلا يجتمع في الكلمة الواحدة ما يدل على التثنية مرتين، لأن المضاف والمضاف إليه بمنزلة شيء واحد)، الروض الريان في أسئلة القرآن: (٢/ ٤٩٩)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٨/ ٢٩٠ – ٢٩١)، وقال ابن الجوزي: (إنما جعل القلبين جماعة لأن كل اثنين فما فوقهما جماعة)، زاد المسير: (٨/ ٥٢)، وانظر أضواء البيان: (٨/ ٣٧٥).

أفعاله في آن.

قال ابن العربي[1]: (المعنى في الآية أنه لا يجتمع في القلب الكفر والإيمان).[2]

وفي ذلك طعن وذم لأهل النفاق، الذين يجمعون بين الإسلام في الظاهر، والكفر في الباطن، وردٌّ على من زعم منهم بأن لرسول الله ﷺ قلبين، أحدهما معهم، والثاني مع أصحابه.[3]

واختار ابن جرير أن الآية تردّ على رجل من قريش كان يسمى ذا القلبين لدهائه وذكائه، وكان يزعم أن له قلبين يفهم بكل واحد منهما أفضل مما يفهم محمد ، فنزلت الآية تكذيبًا لقوله.[4]

٢ – ورد لفظ القلب مضافا إلى الملائكة أو بعض أولي العزم من الرسل عليهم السلام، وذلك في سبع آيات كريمات، أربع منهن تخاطب رسولنا

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد، أبو بكر ابن العربي، الأندلسي الأشبيلي، المالكي، إمام علامة حافظ، كان ثاقب الذهن فصيحًا بليغًا، ولي قضاء أشبيلية، من مصنفاته: أحكام القرآن، والعواصم من القواصم، توفي سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٥٣١ – ٣٥٣٣)، الأعلام: (٦/ ٢٣٠).

(٢) أحكام القرآن: (٣/ ١٥٠٤)، وانظر: روضة المحبين: (ص: ٢٠٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢١/ ١١٨)، زاد المسير: (٦/ ٨٠)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٧٨ – ٧٩)، روح المعاني: (٢١/ ١١٤)، لباب النقول: (ص: ١٧١).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢١/ ١١٩)، تفسير البغوي: (٣/ ٥٠٥ – ٥٠٦)، تفسير البحر المحيط: (٧/ ٢١١)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٦٦)، وذكر المفسرون أنه جميل بن معمر الجمحي. انظر: أسباب النزول: (ص: ٢٩٤)، لباب النقول: (ص: ١٧١)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٢٨٨).

ﷺ، واثنتان في شأن إبراهيم عليه السلام، وواحدة في شأن الملائكة عليهم السلام.

يقول الله تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

تقرر الآية الكريمة أن جبريل عليه السلام هو من شرفه الله سبحانه بتنزيل القرآن على قلب رسول الله ﷺ.

ومثلها قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

والتعبير بالتنزيل على القلب فيه معنى الوعد لرسول الله ﷺ بأنه سيحفظ ما يتنزل عليه من كلام ربه جل شأنه فلا ينساه، وسيعيه بقلبه ويفهمه ويتمكن منه، مصونًا من أي تبديل أو تغيير.(١)

قال الرازي: (جعل الله الروح نازلًا به على قلبك، أي فهمك إياه، وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى).(٢)

ويقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤].

والآية الكريمة تتضمن الرد على اتهام أهل الكفر لرسول الله ﷺ

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٦)، تفسير القرطبي: (١٣/ ٩٣).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٥)، وانظر: (٣/ ٢١٨).

بالافتراء والكذب في قضية الوحي الإلهي، إذ لو كان الاتهام صحيحًا لعاقبه الله ﷻ بالختم على قلبه.

ومن ثم فإن مفهوم الآية يؤكد أن قلب رسول الله ﷺ محفوظ برعاية الله سبحانه.

والآية الرابعة قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومفهوم الآية الكريمة يفيد وصف رسول الله ﷺ بلين القلب ورقته.

وأما الآيتان في شأن إبراهيم عليه السلام فهما قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤].

تذكر الآية الأولى طلب إبراهيم عليه السلام من ربه جل وعلا مشاهدة كيفية إحياء الموتى، يبغي من وراء ذلك زيادة إيمان، ورفعة يقين.

وتثني الآية الثانية عليه ﷺ، وذلك بوصف قلبه بالسلامة من كل شر، والبراءة من كل عيب وسوء.

أما الآية في شأن الملائكة عليهم السلام فهي قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وهي مقررة لحال الملائكة من الخوف والوجل، والمهابة والتعظيم، وهم ينتظرون وحي ربهم سبحانه.

٣ - ورد لفظ القلب في مواضع من القران الكريم في سياق تقرير كمال قدرة الله جل شأنه في خلقه، وتقرير كمال علم الله جل وعلا بعباده، وإحاطته سبحانه بما يضمرونه في قلوبهم، ومن ذلك قول الله تعالى في شأن كمال القدرة الإلهية:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ (١) إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ومن ذلك أيضًا قول الله تعالى في شأن كمال العلم الإلهي:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

---

(١) أي جمعهم على الإيمان والهدى، فائتلفت القلوب بعد تفرق وبغضاء، والتأمت بعد عداوة وشتات، وهذا التأليف بين القلوب آية له ﷺ لما هو معلوم بين العرب من ثأر وعصبية، وأنفة وحمية، خصوصًا ما كان بين الأوس والخزرج من خصومة شديدة. انظر: تفسير الطبري: (١٠/ ٣٥-٣٦)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٢٣)، المفردات: (ص: ٣٠)، تفسير القرطبي: (٨/ ٢٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٢٣).

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١].

٤ - ورد لفظ القلب في سياق الحديث عن أصحابه من أهل الإيمان أو الكفر أو النفاق، وذلك في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

فمما ورد في شأن المؤمنين قول الله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ (١)﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

ومما ورد بخصوص الكافرين قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ (٢) ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

أما ما ورد في أهل النفاق فمنه قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ

---

(١) قال الراغب: (الغيظ أشد غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه)، المفردات: (ص: ٣٧١)، وانظر: تفسير البغوي: (٢/ ٢٧٣)، تفسير القرطبي: (٨/ ٥٦).

(٢) المراد بالحمية في الآية أنفة الكفر، وثوران قوة الغضب بالباطل، والمعنى: جعلوا تلك الحمية الجاهلية المؤسسة على الشرك ثابتة راسخة في قلوبهم. انظر: المفردات: (ص: ١٤٠)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٩٠)، التسهيل: (٤/ ٥٥)، فتح القدير: (٥/ ٥٦).

قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥].

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٤].

٥ - في القرآن الكريم اثنتا عشرة آية عرضت للذين في قلوبهم مرض، ومن ذلك ـ على سبيل التمثيل ـ قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٩].

٦- ورد لفظ القلب في عدة مواضع من القرآن الكريم موصوفاً بصفة مدح أو ذم.

ومن الأمثلة على المدح وصف القلب بالطمأنينة في قول الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

وبالوجل في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وبالإنابة في قول الله تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٣].

وبالمقابل فإن من الأمثلة على وصف القلب بصفة ذم ما جاء في قول الله تعالى:

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢].

وفي قول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ (١) مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

وكذلك في قول الله تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر: ١٤].

قال الراغب في معنى ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾: (أي متفرقة).(٢)

والمقصود اليهود والمنافقون، هم في الظاهر على ألفة واجتماع كلمة، لكن قلوبهم في الحقيقة مختلفة متباعدة، والعداوة بينهم حاصلة، لاختلاف أهوائهم، وتعدد مشاربهم في الكفر والضلال.(٣)

---

(١) قرأ أبو عمرو ابن ذكوان بتنوين (قلب) باعتبار أن ما بعده وصف له، وقرأ الباقون بالإضافة دون تنوين. انظر سراج القارئ: (ص: ٣٤٢)، حجة القراءات: (ص: ٦٣٠)، النشر: (٢/ ٤٧٣).

(٢) المفردات: (ص: ٤١١).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٨/ ٤٧)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ١٤٨)، تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٢٩٠)، تفسير القرطبي: (١٨/ ٢٤ - ٢٥).

وفي هذا التعبير القرآني تقوية لأفئدة المؤمنين، وتهوين لما يلاقونه من أنواع الحرب والعداء.

٧ - ورد لفظ القلب في سياق ما قدره الله جل شأنه من مجازاة المؤمنين والكافرين، وذلك في مواضع متعددة من كتاب الله العزيز.

ومن ذلك قول الله تعالى في سياق ثواب المؤمنين على سلوكهم طريق الخير والحق والهدى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ [الكهف: ١٤].

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١].

وفي سياق العقوبة لأهل الكفر والنفاق على سلوكهم طريق الضلال والعناد والإجرام يقول الله جل وعلا: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ [آل عمران: ١٥١].

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٧].

٨ - ورد لفظ القلب مسنداً إليه معانيه القائمة به على سبيل الثناء أو القدح.

فمن الأول قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢].

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

ومن الثاني قول الله تعالى:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

٩ - ورد لفظ القلب في ثلاث آيات من القرآن الكريم سياقها الدعاء، اثنتان منهما تتضمنان الدعاء للمؤمنين، هما قول الله تعالى:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

والثالثة في دعاء نبي الله موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما بلغوا الغاية في العناد والطغيان، وتبين له عليه السلام أن لا مجال لاتجاههم للخير والصلاح.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ

﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وما تضمنه الدعاء عليهم من الشد على قلوبهم هو بمعنى الطبع عليها، فلا تلين للهدى، ولا تنشرح للإيمان.[1]

١٠ - ورد لفظ القلب في أربع آيات كريمات، يعبّر سياقها عن شدة الخوف، ويصوّر مواقف الفزع والاضطراب.

إحدى هذه الآيات في الدنيا، والباقيات في شأن الآخرة.

أما الأولى فهي قول الله تبارك تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

وهو تصوير كاشف لموقف المؤمنين يوم الأحزاب، حين تكالبت عليهم جموع الكفر، فاشتد الحال، وعظم الكرب، ووقع ما أخبر الله جل وعلا ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾.

والمراد أن القلوب لعظم ما أصابها من الاضطراب والروع والخفقان، والفزع من توقع الشدائد، تحرّكت من أماكنها في الصدور.[2]

قال ابن قتيبة: (أي كادت تبلغ الحلوق من الخوف).[3]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ١٥٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٢٩)، تفسير القاسمي: (٩/ ٧٣).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٥/ ١٩٨)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٩٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٧٢).

(٣) تفسير غريب القرآن: (ص: ٣٤٨)، وانظر الروض الريان في أسئلة القرآن: (٢/ ٣٢٧).

وقال القرطبي: (الأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضربانه، أي كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة).[1]

وأما الآيات الثلاث في خبر يوم القيامة فأولاها قول الله جل شأنه:

﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٨].

والمراد قلوب الكفار، يصيبها في ذلك اليوم الوجل والخوف وشدة الاضطراب.[2]

والثانية قول الله تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾[النور: ٣٧].

وما تضمنته الآية الكريمة من تقلب القلوب وتحولها عن أماكنها هو نتيجة لما يحصل في الآخرة من الأهوال العظيمة والفزع الشديد.[3]

قال صاحب الأضواء: (في معنى تقلب القلوب والأبصار أقوال متعددة لأهل التفسير، ذكرها القرطبي وغيره[4]، وأظهرها عندي أن تقلب القلوب هو حركتها من أماكنها من شدة الخوف).[5]

---

(١) تفسير القرطبي: (١٤/ ٩٥)، تفسير البغوي: (٣/ ٥١٦).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٣١/ ٣٥)، تفسير القرطبي: (١٩/ ٧٦)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٦٧).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٩٥).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢٤٩)، تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ٥ - ٦)، تفسير القرطبي: (١٢/ ١٨٥).

(٥) أضواء البيان: (٦/ ٢٤٠).

واختاره القرطبي.[1]

لكن ابن جرير اختار في تفسيره للآية أن التقلب هنا هو بين الخوف والرجاء، والطمع والحذر، قال: (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب من هوله، بين طمع بالنجاة وحذر من الهلاك).[2]

والآية الثالثة قول الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ[3] مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨].

والمعنى كما ذكر قتادة والسدي[4] وغيرهما ـ تحركت القلوب عن أماكنها إلى الحناجر من الفزع وعظم الهول، فلا هي تخرج من أبدانهم فيموتوا، ولا ترجع إلى صدورهم فتستقر أحوالهم.[5]

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: (١٢/ ١٨٥).

(٢) تفسير الطبري: (١٨/ ١٤٨)، وانظر معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٤٧).

(٣) قال البغوي: (كاظمين) مكروبين ممتلئين خوفًا وحزنًا، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق به) تفسير البغوي: (٤/ ٩٥)، وفسره ابن كثير بالسكوت وعدم الكلام. انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٧٥)، ولا تعارض، إذ السكوت نتيجة لما هم فيه من الكرب والخوف والغم. انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٧/ ٥٠)، المفردات: (ص: ٤٣٤)، أضواء البيان: (٧/ ٨١).

(٤) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، أبو محمد السُّدِّي الحجازي ثم الكوفي، مولى قريش، من أئمة التفسير، توفي سنة سبع وعشرين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ١١٠٩)، تقريب التهذيب: (١/ ٧١ – ٧٢).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٥٢)، معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٦٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٩٤ – ٩٥)، تفسير الفخر الرازي: (٢٧/ ٥٠)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٩٧)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٧٥)، أضواء البيان: (٧/ ٨٠ – ٨١).

• لفظ الفؤاد ولفظ الصدر

يرد اللفظان في القرآن الكريم مرادًا بهما القلب في الغالب، ولذا تضاف إليهما المعاني المتعلقة بالقلب.[1]

أما لفظ الفؤاد فقد ذكر في القرآن ست عشرة مرة، في خمس عشرة آية، ضمن ثلاث عشرة سورة.

وأما لفظ الصدر فقد ذكر أربعًا وأربعين مرة، في إحدى وأربعين آية، ضمن ثلاثين سورة.

وفيما يلي ذكر بعض تلك الآيات الكريمات التي عبر فيها عن القلب بلفظ الفؤاد أو الصدر، وذلك على سبيل التمثيل:

١ – قال الله تعالى في معرض الامتنان على عباده وإقامة الحجة عليهم:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٨، ٢٢/ ٤٥)، تفسير القرطبي: (٩/ ٢٤٤).

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٩].

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣].

والمقصود بالفؤاد في هذه الآيات القلب كما ذكر المفسرون.[1]

٢- وقال الله تعالى في معرض الامتنان على رسوله ﷺ:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

والفؤاد في الآيتين القلب، وتثبيته تقويته وتسكينه بما يتنزل على رسول الله ﷺ من كلام ربه سبحانه.[2]

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٥٢)، المفردات: (ص: ٣٧٢)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٢٠١)، تفسير ابن عطية: (٤/ ١٥٣)، تفسير الفخر الرازي: (٢٥/ ١٥٣)، زاد المسير: (٧/ ٣٨٦)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٣٨، ٢٠٨، ١٨/ ١٤٣، ٢١٩)، التسهيل: (٣/ ٥٥)، روح المعاني: (١٥/ ٧٥، ٢٩/ ٢٠)، فتح القدير: (٥/ ٢٦٤).

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٣/ ٨٤، ٤/ ٦٦)، تفسير القرطبي: (٩/ ٧٧، ١٣/ ٢١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٦٥).

٣ - وقال الله تعالى في شأن الظالمين وعذابهم في الآخرة:

﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [الهمزة: ٦ - ٧].

فالآية الأولى تبين أن أبصار الظالمين شاخصة، وقلوبهم فارغة خالية خاوية، والمراد شدة الخوف مما يرونه من أهوال يوم القيامة.[1]

وتبين الآية الثانية أن عذاب النار يستولي على الأبدان، بحيث يبلغ ألمه ويصل إحراقه إلى القلوب التي هي أخص الأعضاء وألطفها[2]، والعياذ بالله تعالى.

٤ - وقال الله تعالى في شأن رسوله ﷺ:

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم: ١١].

والمعنى أن ما شاهده رسول الله ﷺ ليلة المعراج لم يكن تخيلًا كاذبًا، بل كان واقعًا حقًا، ولذا صدق قلبه عليه الصلاة والسلام ما رأته عيناه.[3]

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٣٣ - ٢٣٤). زاد المسير: (٤/ ٢٧٢ - ٢٧٣)، تفسير القرطبي: (٩/ ٢٤٧ - ٢٤٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٤١ - ٥٤٢).

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٣٦٢)، تفسير البغوي: (٤/ ٥٢٤)، تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ١٤٩، ٣٢/ ٩٤)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٦٢١)، التسهيل: (٤/ ٢١٧).

(٣) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٢٤٦)، تفسير القرطبي: (١٧/ ٦١ - ٦٢)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٣٩)، وفي لفظ (كذب) قراءتان، الأولى بتشديد الذال، قرأ بها أبو جعفر وهشام عن ابن عامر، والثانية بالتخفيف، وبها قرأ الباقون. انظر: النشر: (٢/ ٢٨٣)، سراج القارئ: (ص: ٣٥٨)، والمعنى على التخفيف (أي صدق فؤاده الذي رأى، أي لم يكذب فيما رأى، بل رأى الحق) وعلى التشديد (صدّق الفؤاد ما رأى: لم ينكر ولم يرتب به) حجة القراءات: (ص: ٦٨٥)، والمعنى على القراءتين متقارب، وثمرته واحدة.

قال ابن جزي: (أي ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه بعينه، بل صدق بقلبه أن الذي رآه بعينه حق).[1]

٥ – وقال الله تعالى في تقرير كمال علمه جل شأنه بما يسره العبد في قلبه ويضمره:

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٢٩].

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٩].

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الأنفال: ٤٣].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [النمل: ٧٤].

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص: ٦٩].

﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الحديد: ٦].

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [التغابن: ٤].

(١) التسهيل: (٤/ ٧٦)، وانظر: الشفا: (١/ ٢٣٥).

والصدور في هذه الآيات بمعنى القلوب[1]، إذ الصدر محل القلب، فقام مقامه.[2]

والمراد بذات الصدور ما تضمره وتسره القلوب، وما تنطوي عليه وتكنه وتخفيه، من النيات والخواطر، والبواعث والصوارف، وسائر ما يحصل فيها من الأفعال خيرًا أو شرًا.

وسميت ذات الصدور (لأنها حالّة فيها مصاحبة لها).[3]

٦ – وقال الله تعالى في شأن نعيم المؤمنين في الجنة:

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧].

والمراد أن من أنواع النعيم تصفية قلوب المؤمنين، وإخراج ما فيها من الحسد والحقد، و العداوة والبغض، إذ الجنة لا كره فيها ولا غل.[4]

٧– وقال الله تعالى تسلية لرسوله ﷺ:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧].

(١) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٢٩٢، ٣٤٥، ٣٦٤، ٢/ ١٨)، تفسير الفخر الرازي: (٨/ ٢١٥، ٢٤/ ٢١٥، ٢٧/ ٥٢)، تفسير القرطبي: (١٨/ ١٣٩)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٠٥، ٤/ ٣٩٧).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٨/ ١٥)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٤٧٠)، أضواء البيان: (٩/ ٦٧٠).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (٩/ ٥٠).

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٣٣٩)، تفسير القرطبي: (١٧/ ١٣٣).

قال القرطبي: (أي قلبك، لأن الصدر محل القلب).[1]

وفي هذا المعنى يرد أيضًا قول الله تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢].

وقوله سبحانه في شأن موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢ - ١٣].

والضيق الحزن والانقباض[1]، يعرض لرسول الله ﷺ أحيانًا، بحسب الطبيعة البشرية، فيتنزل عليه القرآن مسليًا له، مثبتًا لقلبه، داعيًا له إلى الصبر والالتجاء إلى الله جل وعلا.[2]

٨ – وقال الله تعالى ممتنا على رسوله ﷺ:

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴾ [الشرح: ١].

تثبت الآية الكريمة ما أنعم الله تبارك وتعالى به على رسوله ﷺ من شرح صدره عليه الصلاة والسلام.

(١) تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٤)، وانظر تفسير البحر المحيط: (٥/ ٤٧٠).
(٢) انظر: المفردات: (ص: ٣٠٣)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٦٠).
(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٩/ ١٠)، تفسير البيضاوي: (٢/ ١٥١)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٦).

وقد أورد المفسرون في المراد بشرح الصدر قولين[1]:

الأول: أن الشرح حسي، والمراد حادثة شق صدره ﷺ، وإخراج قلبه، وتصفيته وتنقيته، ثم ملؤه إيمانًا وحكمة.

الثاني: أن الشرح معنوي، والمراد فتح القلب لقبول الإسلام، وتوسيعه لتلقي الوحي، ومعرفة الحق، وإدراك الهدى والخير، وتليينه لنيل العلم، وتحصيل الحكمة، وإزالة ما يصدر عن ذلك من الصوارف والموانع، وجعله بهذه التوسعة منيرًا فسيحًا رحيبًا.[2]

ولا ريب أن شرح صدره عليه الصلاة والسلام بهذا المعنى يشمل بسط القلب ليقوى على حمل أعباء الرسالة، والثبات على الدعوة، وتحمّل الأذى، والصبر على المكاره.[3]

وهذا القول في تفسير الآية الكريمة هو اختيار أكثر المفسرين[4]، ولذا قال الألوسي: (حمل الشرح في الآية على ذلك الشق ضعيف عند

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٣٢/ ٢ – ٣)، تفسير القرطبي: (٢٠/ ٧١)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٦٠٥)، التسهيل: (٤/ ٢٠٦)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٤٨٧)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٢٤)، تفسير أبي السعود: (٩/ ١٧٢)، روح المعاني: (٣٠/ ٢١٢).
(٢) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٥٠١)، زاد المسير: (٨/ ٢٧١)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٢٤).
(٣) انظر: تفسير النسفي: (٣/ ٧٠٤)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٤٨٧)، تفسير السعدي: (٥/ ٤٣١)، أضواء البيان: (٩/ ٣٠٩).
(٤) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٢٣٤)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٣٤١)، المفردات: (ص: ٢٦١)، تفسير البغوي: (٤/ ٥٠١)، زاد المسير: (٨/ ٢٧١)، تفسير النسفي: (٣/ ٧٠٤)، التسهيل: (٤/ ٢٠٦)، تفسير أبي السعود: (٩/ ١٧٢)، فتح القدير: (٥/ ٤٨١)، تفسير القاسمي: (١٧/ ١٨٤).

المحققين).[1]

غير أن بعض المفسرين جمع بين القولين باعتبار أن اللفظ يحتملهما.

يقول ابن كثير: (لا منافاة، فإن من جملة شرح صدره الذي فعل بصدره ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضًا).[2]

وقال محمد الأمين: (اختلف في معنى شرح الصدر، إلا أنه لا منافاة فيما قالوا، وكلها يكمل بعضها بعضًا).[3]

وعلى كلٍّ فإن حادثة شق صدره عليه الصلاة والسلام ثابتة، وقد تكرر وقوعها.[4]

ومن ذلك ما تضمنه حديث أنس بن مالك ﷺ قال: كان أبو ذر ﷺ يحدث أن رسول الله ﷺ قال: (فرج[5] عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري[6]، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست[7] من ذهب،

(١) روح المعاني: (٣٠/ ٢١٤).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٢٤).

(٣) أضواء البيان: (٩/ ٣٠٨).

(٤) انظر فتح الباري: (٣/ ٥، ١٥/ ٥١).

(٥) بضم الفاء: أي فتح. قال ابن حجر: (يحتمل أن يكون السر في ذلك التمهيد لما وقع من شق صدره، فكأن الملك أراد بانفراج السقف والتئامه في الحال كيفية ما سيصنع به لطفًا به وتثبيتًا له والله أعلم) فتح الباري: (٣/ ٥)، وانظر: (١٥/ ٥٢).

(٦) بفتح الفاء: (أي شقه) فتح الباري: (٣/ ٥).

(٧) الطست: بفتح الطاء وكسرها وإسكان السين، وهي إناء معروف، وجاء وصف (ممتلئ) بالتذكير على المعنى، لا على اللفظ لأن الطست مؤنثة. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١٢٤)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٢١٦، ٢١٨)، فتح الباري: (٣/ ٥).

ممتلئ حكمة[1] وإيمانًا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه[2]) الحديث.[3]

وعن أنس بن مالك ﷺ، عن مالك بن صعصعة ﷺ[4]: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به، وفيه [فشرح صدري إلى كذا وكذا[5]، فاستخرج قلبي، فغسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حشي إيمانا وحكمة] الحديث.[6]

ومثل هذا الحدث وقع له عليه الصلاة والسلام أيضًا زمن طفولته.

عن أنس بن مالك ﷺ: (أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه[7]، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة[8]، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب

(١) قال ابن حجر: (أصح ما قيل في الحكمة أنها وضع الشيء في محله، أو الفهم في كتاب الله) فتح الباري: (١٥/ ٥٢)، وانظر: المفردات: (ص: ١٣٤ – ١٣٥)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٣٣).

(٢) أي غطاه وأغلقه وجمع بعضه إلى بعض. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١١٣ – ١١٤).

(٣) رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء: (١/ ١٣٥)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات: (١/ ١٤٨).

(٤) هو مالك بن صعصعة بن وهب، الأنصاري الخزرجي، من بني مازن بن النجار، سكن المدينة، روي له عن النبي ﷺ بضعة أحاديث منها حديث الإسراء والمعراج في الصحيحين. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ٥٥٤)، الإصابة: (٥/ ٥٣٩).

(٥) قال قتادة: (فقلت للذي معي: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطنه) صحيح مسلم: (١/ ١٥٠).

(٦) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج: (٣/ ١٤١٠)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات: (١/ ١٥٠).

(٧) أي أسقطه وجعله على الأرض. انظر النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٢٣ –٢٤).

(٨) العلقة: قطعة الدم المنعقد. انظر النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٢٩٠).

بماء زمزم، ثم لأمه[1]، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره[2]) فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع[3] اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط[4] في صدره).[5]

(١) بفتح اللام والهمزة، أي جمعه وأغلقه وضم بعضه إلى بعض. انظر النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٢٢٠)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٢١٦).

(٢) الظئر: بكسر الظاء وإسكان الهمزة، وهي المرضعة غير ولدها، ويطلق أيضًا على زوج المرضعة. انظر النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١٥٤)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٢١٧).

(٣) بفتح القاف، أي متغير اللون، يقال: انتُقِع لونه، أي تغير من خوف أو حزن أو ألم. انظر النهاية في غريب الحديث: (٥/ ١٠٩)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٢١٧).

(٤) بكسر الميم وإسكان الخاء وفتح الباء، وهو الإبرة. انظر النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٩٢)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٢١٧).

(٥) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات: (١/ ١٤٧).

المبحث الثالث

أهمية القلب ومكانته

أمر القلب خطير، وأثره عظيم، وفي الكتاب والسنة على ذلك أدلة وبراهين، من تأملها ظهرت له الشواهد، وبرزت له المعالم، ومن ذلك ما تتضمنه المسائل التالية:

١- المسألة الأولى:

القلب هو الأساس والباعث، وفيه تبدأ الإرادات والخواطر، وتتحرك الدواعي والصوارف، وعنه تنشأ أعمال الظاهر وأفعال الجوارح.

فقول القلب تصديقًا بالله ورسوله يترجمه اللسان نطقًا بالشهادتين، وعمل القلب محبة ورجاء وخوفًا تعبر عنه حركة الأعضاء استقامة على طاعة الله، وتنفيذا لأمره جل شأنه.

ومن ثمّ فإن أصل الاستقامة استقامة القلب[1]، كما في حديث أنس بن مالك ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه].[2]

(١) انظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ٥١١)، التبيان: (ص: ٢٥٩).

(٢) رواه أحمد في المسند: (٣/ ١٩٨)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٤٥)، وانظر: شعب الإيمان: (١/ ٤١)، الترغيب والترهيب: (٣/ ٣٥٣، ٥٢٧ - ٥٢٨)، مجمع الزوائد: (١/ ٢١٤، ٢٢٠)، المغني: الإحياء: (٣/ ١٤٣).

قال ابن رجب: (المراد باستقامة إيمانه استقامة أعمال جوارحه، فإن أعمال الجوارح لا تستقيم إلا باستقامة القلب، ومعنى استقامة القلب أن يكون ممتلئا من محبة الله، ومحبة طاعته، وكراهية معصيته).[1]

ولذا كان القلب كالملك للأعضاء، يملك معها الأمر والنهي، ولا تملك هي إلا الاستجابة والإذعان، والطاعة والالتزام.[2]

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه النعمان بن بشير ﷺ: [ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب].[3]

تضمن هذا الحديث الشريف أن القلب أصل، تتفرع عنه كافة أعمال الجوارح، وتتأثر به صلاحًا أو فسادًا.

فمتى رسخت في قلب العبد معاني العبودية، وتحقق فيه الإيمان واليقين، فصلحت حركاته وأفعاله، وتمكنت فيه المحبة والخشية والتوكل

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١١)، وانظر: شجرة المعارف والأحوال للعز بن عبد السلام، طبعة بيت الأفكار: (ص: ١٢).

(٢) انظر الحديقة الأنيقة في شرح العروة الوثيقة لمحمد بحرق الشافعي، ط٢، دار الحاوي: (ص: ٥١) في شرحه للبيت من قصيدته: (فأصلح مضغة في الجسم تقوى.. على التقوى ففي الأخبار يروى.. صلاح الكل فيها كالفساد).

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه: (١/ ٢٨ – ٢٩)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات: (٢/ ١٢٢٠).

والإنابة، وامتلأ بتعظيم الله وإجلاله ورجائه والإعراض عما سواه جل وعلا ، كان ذلك إيذانًا بانبعاث جوارحه إلى أعمال العبادة الظاهرة.

وحين يفسد القلب، وتستولي عليه الأهواء، والتعلق بغير الله، كانت العاقبة فساد حركات الجوارح، وانبعاث الأعضاء إلى ضد ما أمر به الله جل وعلا ورسوله عليه الصلاة والسلام.

قال ابن رجب: (حركات الجسد تابعة لحركات القلب وإرادته، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده، فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله، وإن كانت حركات القلب وإرادته لغير الله تعالى، فسد وفسدت حركات الجسد، بحسب فساد حركة القلب).[1]

ويقول ابن تيمية: (المأمور به نوعان: نوع ظاهر على الجوارح، ونوع باطن في القلب) وبعد بيانه للنوع الأول قال: (النوع الثاني: ما يكون باطنًا في القلب، كالإخلاص، وحب الله ورسوله، والتوكل عليه، والخوف منه، وكنفس إيمان القلب وتصديقه بما أخبر به الرسول، فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر، فإنه محله، وهذا النوع هو أصل النوع الأول، وهو أبلغ في الخير والشر من الأول، فنفس إيمان القلب وحبه وتعظيمه لله وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه وإخلاص الدين له، لا يتم شيء من المأمور به ظاهرًا

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٢)، وانظر: (١/ ١٠٨ –١٠٩، ٥١٢)، رياضة النفس: (ص: ٦٦)، إحياء علوم الدين: (١/ ٣٢)، منهاج العابدين: (ص: ٦٨).

إلا بها، وإلا فلو عمل أعمالًا ظاهرة بدون هذه كان منافقًا، وهي في أنفسها توجب لصاحبها أعمالًا ظاهرة توافقها، وهي أشرف من فروعها).[1]

ولذا قال الحسن يوصي شابًا: (داو قلبك، فإن حاجة الله ﷻ إلى العباد صلاح قلوبهم).[2]

يقول ابن رجب: (يعني أن مراده منهم و مطلوبه صلاح قلوبهم، فلا صلاح للقلوب حتى تستقر فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه، وتمتلئ من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد).[3]

وحين يقع العبد في دائرة المعصية الظاهرة، فإن أصل تلك المعصية خطرة في القلب، تصبح شهوة، فتصير إرادة، فتتحول إلى عزيمة جازمة، وحينئذ تتحرك الجارحة لعمل السيئة.[4]

وقد جعل الله تعالى سلامة القلب معبرا للفوز في الآخرة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٤/ ١١٩)، وانظر: شرح الطحاوية: (ص: ٢٩١)، دستور الأخلاق في القرآن: (ص: ٤٥٤ - ٤٥٦).

(٢) التواضع لابن أبي الدنيا، ط١، دار الكتب العلمية: (ص: ٢٨٦)، وانظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١١).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١١)، وانظر: الفتح الرباني: (ص: ٩).

(٤) انظر: تفسير المعوذتين: (ص: ٦٣)، الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) لابن القيم، ط١، دار ابن خزيمة: (ص: ٣٦٧، ٣٦٩).

وما ذاك إلا لأن القلب هو المؤثر في البدن إيجابًا وسلبًا.

قال القرطبي: (خص القلب بالذكر لأنه إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت الجوارح).[1]

وقال الرازي: (فإن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن من سلم قلبه كان ناجيا، وأن لا حاجة فيه إلى سلامة اللسان واليد، جوابه أن القلب مؤثر، واللسان والجوارح تبع، فلو كان القلب سليمًا لكانا سليمين لا محالة، وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب).[2]

كما جعل الله جل شأنه القلوب موضع التمييز والاختبار فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وذلك يشير إلى أن القلب هو المخاطب على الحقيقة، وهو الأصل المقصود بالأمر والنهي، والأعضاء متفرعة عنه، مسخرة له، ترقب إرادته، وتتحرى قراره، فإذا أطاعت فهو الممتثل قبلها، وإذا عصت فهي متابعة لقصده في المخالفة.[3]

---

(١) تفسير القرطبي: (١٣/ ٧٨).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٥١).

(٣) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٤/ ١٦٦)، تفسير البحر المحيط: (٣/ ٩٠)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤١٨)، مجموع الفتاوى: (١٤/ ١١٣ - ١١٤).

وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [العاديات: ٩ - ١٠].

وتحصيل ما في الصدور بمعنى التمييز والإظهار لما تسره من الخير والشر.[1]

والآية الكريمة تخصص التحصيل بما في الصدور، مع أن العمل يوم القيامة كله مكشوف باطنه وظاهره، وفي تعليل ذلك يقول الرازي: (لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلب، فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح).[2]

ولما كان القلب بهذه المكانة، سمى الرسول ﷺ قلب المؤمن بالكَرم، معتبرًا إياه الأحق بهذا الاسم لما فيه من نور الإيمان والهداية.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تقولوا: كَرْم. فإن الكرم قلب المؤمن].[3]

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٥٣٦)، المفردات: (ص: ١٢٩)، تفسير البغوي: (٤/ ٥١٨).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٣٢/ ٦٩).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ: [إنما الكرم قلب المؤمن]: (٥/ ٢٢٨٧)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب كراهة تسمية العنب كرما: (٢/ ١٧٦٣). وفي الحديث الشريف كراهية تسمية العنب كرما، إذ كانت العرب تطلق هذا اللفظ الحسن على العنب وعلى الخمر المتخذة منه، ولما كان اللفظ يحمل معاني طيبة، وربما إذا سمعه من كان حديث عهد بالخمر تذكرها، وتحركت نفسه إليها، كره الشرع إطلاق هذا اللفظ الحسن على العنب وشجره. انظر: غريب الحديث للخطابي (١/ ٦٦٤ -٦٦٥)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٤ - ٥)، فتح الباري: (٢٢/ ٣٧٧ - ٣٧٨).

والمقصود أن (اشتقاق الكَرْم من الكَرَم، والأرض الكريمة هي أحسن الأرض، فلا يليق أن يعبر بهذه الصفة إلا عن قلب المؤمن، الذي هو خير الأشياء، لأن المؤمن خير الحيوان، وخير ما فيه قلبه، لأنه إذا صلح، صلح الجسد كله، وهو أرض لنبات شجرة الإيمان).[1]

هذه العبودية التي تملأ القلب، وما يتبعها من عبودية الأعضاء والجوارح، هي محل نظر الله جل شأنه، لا زينة الظاهر، وجمال الشكل.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم][2] وأشار بأصابعه إلى صدره.

وفي الرواية الأخرى عنه ﷺ أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم].[3]

والروايتان تدلان بمجموعهما على أن الاعتبار في القرب من الله تعالى، ونيل محبته ورضاه جل شأنه، ليس هو بحسن الصورة، ولا قوة الجسد ولا كثرة المال، ولا علو الجاه أو رفعة المنصب، وإنما هو بالقلب أولًا، إذا عمره الإيمان والتقوى وإرادة الله وحده، ثم بالعمل الظاهر ثانيًا، بالاستقامة على

(١) فتح الباري: (٢٢/ ٣٧٨)، وانظر شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٥).

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم... (٣/ ١٩٨٧).

(٣) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم...(٣/ ١٩٨٧).

الطاعة فعلا وتركًا، والتي تنبع من استقامة القلب، وتتبعه في ولوج دائرة التقوى.[1]

٢- المسألة الثانية:

إيمان القلب وإخلاصه أصل في قبول العمل الصالح، وبدونه لا نفع ولا ثمرة ولا قبول.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩].

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

﴿ مَّنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠].

فلابد من شرط تقدم الإيمان أولًا، والمراد إيمان القلب وتصديقه، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط، فمن لم يلتزم بقيد الإيمان القلبي يبقى غير مستحق للثمرات المذكورة.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ٥٠٠)، منهاج العابدين: (ص: ٦٧)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ١٢١)، شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد: (ص: ٢٢٣)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ٢٧٦)، فيض القدير: (٢/ ٢٧٧ – ٢٧٨).

ثم بعد ذلك لابد من إرادة صادقة تصاحب صلاح العمل، بحيث يبتغي العبد بعمله الصالح وجه ربه جل وعلا وحده.

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئ ما نوى] الحديث.[1]

فالحديث الشريف يشير إلى نوع من العبادات القلبية الباطنة، إذ يقرر أن نيل القرب من الله تعالى بالطاعات يعتمد على الإخلاص في النيات والإرادات.[2]

فإذا صلحت نية القلب كان ذلك علامة ـ بفضل الله ـ على قبول الطاعة، وإذا فسدت النية، وداخلها الرياء وإرادة غير الله، كان ذلك إيذانًا ببطلان العمل وضياعه وخسرانه، مهما صلح ظاهره.

ومن ثمّ فإن عمل القلب هو الواسطة والوسيلة لقبول عمل الظاهر.[3]

ذلك أن عبودية القلب حين تتعطل ـ إخلاصًا وخشوعًا وحضورًا ـ فذلك يعني أن عبودية الملك تعطلت، فلا تعني عبودية الأعضاء الظاهرة حينها شيئًا.[4]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النية في الأيمان: (٦/ ٢٤٦٢)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: [إنما الأعمال بالنية]: (٢/ ١٥١٥ – ١٥١٦).

(٢) انظر: شرح حديث النية (ص: ١٣ – ١٤)، إعلام الموقعين: (٣/ ١٢٣).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (١١/ ٣٨١).

(٤) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ١٠).

وفي السنة الشريفة نصوص كثيرة يؤكد فيها رسول الله ﷺ على ضرورة إخلاص القلب وصدقه ليجد العمل القبول والجزاء الحسن عند الله تبارك وتعالى.

ومن ذلك: [أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه].(١)

[ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار].(٢)

[من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا(٣)غفر له ما تقدم من ذنبه] .(٤)

[من بنى مسجدًا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة].(٥)

[مثل المجاهد في سبيل الله، والله اعلم بمن يجاهد في سبيله(٦)، كمثل

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ، في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث: (١/ ٤٩).

(٢) رواه البخاري من حديث أنس ﷺ، في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا: (١/ ٥٩- ٦٠)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا: (١/ ٦١).

(٣) أي مخلصًا فيه طالبًا ثواب الله تعالى. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٨٢).

(٤)رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ، في كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان: (١/ ٢٢)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان: (١/ ٥٢٣).

(٥) رواه البخاري من حديث عثمان ﷺ، في كتاب المساجد، باب من بنى مسجدًا: (١/ ١٧٣)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل بناء المساجد والحث عليها: (١/ ٣٧٨).

(٦) (يعني الله أعلم بعقد نيته إن كانت خالصة لإعلاء كلمته، فذلك المجاهد في سبيل الله وإن كان في نيته حب المال والدنيا واكتساب الذكر بها فقد أشرك مع سبيل الله سبيل الدنيا) عمدة القاري: (١٤/ ٨٤).

الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه: أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة].(١)

[والذي نفسي بيده لا يُكْلم(٢)أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله(٣)، إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم، والريح ريح المسك].(٤)

[من طلب الشهادة صادقًا أعطيها ولو لم تصبه].(٥)

[من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه].(٦)

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ، في كتاب الجهاد، باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله: (٣/ ١٠٢٧).

(٢) أي لا يُجْرح، من الكَلْم وهو الجرح. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ١٩٩)، عمدة القاري: (١٤/ ١٠٠).

(٣) قال ابن عبد البر في التمهيد: (١٩/ ١٤) (فيه دليل على أن ليس كل من خرج في الغزو تكون هذه حاله، حتى تصح نيته، ويعلم الله من قلبه أنه خرج يريد وجهه ومرضاته، لا رياء ولا سمعة ولا مباهاة ولا فخر).

(٤) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ، في كتاب الجهاد، باب من يجرح في سبيل الله: (٣/ ١٠٣٢)، ومسلم بنحوه في كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله: (٢/ ١٤٩٦).

(٥) رواه مسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ، في كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى: (٢/ ١٥١٧).

(٦) رواه مسلم من حديث سهل بن حنيف ﷺ، في كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله: (٢/ ١٥١٧).

هـذه الأحاديـث الـشريفة تتـضمن دلالات واضـحة عـلى أن عمـل الجوارح دون عبودية القلب ليس بنافع قطعًا، وفي ذلك تقرير لعظـم أهميـة القلب وأثره.

٣- المسألة الثالثة:

عمل القلب هو الميزان لتفاضل عبادة الظاهر.

ذلك أن ما تقـوم بـه الجـوارح مـن الحـسنات لا يتفاضـل مـن حيـث الصورة الظاهرية، شكلًا وكثرة، حجمًا وعددًا، وإنما يتحقـق التفاضـل أولًا بما يحصل في القلب أثناء حركـة الأعـضاء، مـن إيـمان وتقـوى، وإخـلاص ومحبة، ورجاء وخوف، وإنابـة وخـشوع، إذ القـوة العلميـة القلبيـة أقـوى وأكمل من القوة العملية البدنية، باعتبار أن الثانية ليس لها أثر بدون الأولى.

إن أقوال اللسان وأفعال الجوارح قـد تـشتركان في الـصورة الظـاهرة، والشكل الخارجي، لكنها بعد ذلك يشتد تمايزها ويعظـم تفاوتهـا، بحـسب أحوال القلـوب، فقـد يقـترن بالطاعـة مـن الخـشية والإنابـة والإخـلاص وغيرها من أعمال القلب ما يرفع من قدر العبادة، ويعـلي مرتبتهـا، ويعظـم منزلتها، وقد يقترن بها في المقابـل مـن ضـعف حـال القلـب مـا يقلّـل مـن درجتها ويصغر من قيمتها وأثرها.[1]

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٣٥، ١١/ ٦٦٠).

يقول ابن أبي العز[1]: (إن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعـددها، وإنـما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب).[2]

ولذا قال ابن القيم: (فالعمل على القلـوب لا عـلى الأبـدان، والمعـوَّل على الساكن لا على الأطلال، والاعتبار بالمحرّك الأول).[3]

وعلى ذلك فقد يتماثل شخصان في العبادة الظاهرة، ويربو أحدهما عـلى الآخر منزلة وثوابًا عند الله تعالى، بما يحصل في قلبـه مـن زيـادة عمـل أثنـاء تلك العبادة، بل قد يتفاضلان في عمل البدن، ويكـون المفـضول أقـرب إلى الله تعالى من الآخر، وذلك لما يعظم في قلبه من معاني الإيمان.[4]

ومن الأدلة على ذلك حديث عمار بن ياسر ﷺ[5] قال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: [إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صـلاته[6]، تـسعها،

(١) هو علي بن علي بن محمد بن أبي العز، الحنفي الدمشقي، قاضي القضاة بدمشق، ثم بمـصر، مـن مصنفاته: شرح العقيدة الطحاويـة، تـوفي سـنة اثنتـين وتـسعين وسـبع مائـة. انظـر: الأعـلام: (٤/ ٣١٣).

(٢) شرح الطحاوية: (٣١١).

(٣) الوابل الصيب: (ص: ١٠٣).

(٤) انظر: الإيمان لابن تيمية، ط٣، المكتب الإسلامي: (ص: ٣٢٦).

(٥) هو عمار بن ياسر بن مالك، أبو اليقظان، أمه سمية ﷺ، أسلم قديمًا، كان ممن عُذِّب ليرجع إلى الكفر، شهد بدرًا والمشاهد بعدها مع رسول الله ﷺ، وسماه الطيب المطيب، روى عن الرسول ﷺ عدّة أحاديث، ولاه عمـر ﷺ عـلى الكوفـة، تـوفي سـنة سـبع وثلاثـين.انظـر: صـفة الـصفوة: (١/ ٤٤٢-٤٤٦)، الإصابة: (٤/ ٤٧٣-٤٧٤).

(٦) (أي عشر ثوابها) عون المعبود: (٢/ ١٦٩).

ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها).[1]

فالحديث يقرر أن ثواب الصلاة ينبني بعد كمال الظاهر على عمل القلب.

قال المناوي[2]: (أراد أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، بحسب الخشوع والتدبر، ونحو ذلك مما يقتضي الكمال).[3]

ومن الشواهد أيضًا حديث البطاقة المشهور.

عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله سيخلّص[4] رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر[5] عليه تسعة وتسعين سجلا[6]، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة: (١/ ٥٠٣)، وأحمد في المسند: (٤/ ٣٢١)، وصححه الحافظ العراقي في المغني: الإحياء: (١/ ٢٤٠)، و السيوطي في الجامع الصغير، فيض القدير: (٢/ ٣٣٤)، وحسنه الصبابطي: عون المعبود: (٢/ ١٦٩) (الهامش)، وانظر: الترغيب والترهيب: (١/ ٣٤١).

(٢) هو محمد عبد الرؤف بن تاج العارفين بن علي الحدادي، ثم المناوي القاهري، زين الدين، عالم مصنف، من مصنفاته: فيض القدير شرح الجامع الصغير، وشرح الشمائل، عاش في القاهرة وتوفي بها سنة إحدى وثلاثين وألف. انظر: الأعلام: (٦/ ٢٠٤).

(٣) فيض القدير: (٢/ ٣٣٣).

(٤) بتشديد اللام، والمعنى: يميز، انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٦١)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٥٢).

(٥) (أي فيفتح) تحفة الأحوذي: (٧/ ٥٢).

(٦) السجل بكسر السين والجيم وتشديد اللام: الكتاب الكبير. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٤٤)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٥٢).

أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة[1] فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضُرْ وزنك، فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفّة والبطاقة في كفة، فطاشت[2] السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء].[3]

فهذا الرجل لما كان نطقه بالشهادتين مبنيًا على عبودية للقلب عظيمة، من الصدق واليقين والمحبة، وعلم الله تعالى حسن نيته، غفر له ورحمه، وتجاوز عن سيئاته، وخصّه بذلك مع حرمان غيره ممن نطق بالشهادتين واستحق النار لذنوبه ومعاصيه.[4]

ولذا استدل ابن تيمية بهذا الحديث على أن: (العبد قد يأتي بالحسنة بنية وصدق وإخلاص تكون أعظم من أضعافها).[5]

(١) البطاقة: الرقعة الصغيرة. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ١٣٥)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٥٢).

(٢) أي خفت. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١٥٣)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٥٣).

(٣) رواه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا اله إلا الله: (٥/ ٢٤ – ٢٥) وقال حديث حسن غريب، وابن ماجة في كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة: (٢/ ١٤٣٧)، وأحمد في المسند: (٢/ ٢١٣)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٤٦ – ٤٧) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني: شرح الطحاوية: (ص: ٣٣٥) (الهامش)، وانظر: مجمع الزوائد: (١٠/ ٨٩).

(٤) انظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣١١ – ٣١٢).

(٥) مجموع الفتاوى: (١١/ ٦٦٠)، وانظر: (٧/ ٤٨٨ – ٤٨٩، ١٠/ ٧٣٥).

ومن الأحاديث في هذا الباب أيضًا ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ: [أن رجلًا قتل تسعة وتسعين نفسًا، فجعل يسأل: هل له من توبة؟ فأتى راهبًا فسأله، فقال: ليست لك توبة. فقتل الراهب، ثم جعل يسأل، ثم خرج من قرية إلى قرية فيها صالحون، فلما كان في بعض الطريق أدركه الموت، فنأى بصدره[1]، ثم مات. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر. فجعل من أهلها].[2]

فهذا الرجل أيضًا، مع عظم ما حصل منه من قتل النفوس المعصومة، امتلأ قلبه بمعاني التوبة والإنابة، وإقباله الصادق على ربه سبحانه، ورغبته المخلصة في المسارعة إلى الخير، حتى تحرك بصدره وهو في ساعات الموت، يريد الاقتراب من أهل الصلاح ليعبد الله معهم، فكان ما في قلبه من الخير سببًا في علو مرتبة حركته الظاهرة.

يقول ابن أبي العز: (تأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان، التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية، وحملته وهو في تلك الحال أن جعل ينوء بصدره وهو يعالج سكرات الموت).[3]

---

(١) نأى: أي نهض يريد القرية الصالحة. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ١٢٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء عليهم السلام، باب ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ (٣/ ١٢٨)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله: (٣/ ٢١١٩).

(٣) شرح الطحاوية: (ص: ٣١٢)، وانظر: صحيح القصص النبوي: (ص: ٤٤٨ – ٤٤٩).

ومنها حديث أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: [غفر لامرأة مومسة[1]، مرت بكلب على رأس ركي[2] يلهث[3]، قال: كاد يقتله العطش، فنزعت خفها[4]، فأوثقته بخمارها[5]، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك].[6]

وفي رواية أخرى [إذ رأته بغي[7] من بغايا بني إسرائيل].[8]

فهذه المرأة التي ركبت الفاحشة، كان لها في تلك الحال من أعمال القلوب، إيمانًا ورحمة، ولينًا ورقة، وصدقًا في النية، ما ارتفع به فضل عملها

---

(١) أي ذات فجور، والجمع مومسات. انظر: ترتيب القاموس المحيط: (٤/ ٦٦٠).

(٢) الركي: بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد الياء: البئر. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٦١)، فتح الباري: (١٣/ ٢٧٧).

(٣) أي يخرج لسانه من شدة العطش والحر. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٢٨١)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٤/ ٢٤١ – ٢٤٢).

(٤) المراد ما يلبس في القدم. انظر: لسان العرب: (٢/ ١٢١٣).

(٥) الخمار: غطاء الرأس. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٨٧).

(٦) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه... (٣/ ١٢٠٦).

(٧) بفتح الياء وكسر الغين وتشديد الياء: أي زانية فاجرة، والجمع بغايا. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ١٤٤)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٤/ ٢٤٢)، فتح الباري: (١٣/ ٢٧٧).

(٨) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء، باب ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ (٣/ ١٢٧٩)، صحيح مسلم: كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها: (٢/ ١٧٦١).

الظاهر، وعلت مرتبته، وعظم ثوابه، فكان ذلك سبيلًا ـ بفضل الله ـ إلى مغفرة الله تعالى لها.[1]

٤ـ المسألة الرابعة:

إخلاص القلب يجعل المباح طاعة وقربة.[2]

ذلك أن كثيرًا من تصرفات المؤمن ونشاطه في الحياة يدخل في دائرة العاديّات المباحات، التي لا يثاب فاعلها كما لا يعاقب تاركها، غير أن المؤمن إذا صحح إرادته، وأخلص نيته، فجعل قصده من العمل متجهًا إلى طلب رضا الله ﷻ ومثوبته، وابتغاء القرب منه جل شأنه، تحول العمل المباح في حقه إلى عبادة مستحبة، وأصبح من عموم حسناته وطاعاته التي يتقرب بها إلى ربه سبحانه.

وهذا بلا ريب يبرز أهمية القلب، إذ عن طريقه يصبح الأكل، والشرب، والنوم، والنكاح، والسعي في طلب المعيشة، وغيرها من أنواع حركة المؤمن في حياته، كل ذلك يصبح عملًا صالحًا يرفع من درجات صاحبه في الآخرة، مع استمتاعه به في الدنيا باعتباره في الأصل من المباحات.

---

(١) انظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣١٢)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٤٨٩، ١٠/ ٧٣٥).

(٢) كما أن القصد السيئ يقلب المباح معصية. انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٨٩)، الموافقات: (٣/ ١٩٤ - ١٩٥، ٢١٠ - ٢١٢).

هذا المعنى تشهد له الأدلة الشرعية، ومنها ـ على سبيل التمثيل ـ ما ورد في حديث أبي ذر ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: [وفي بضع أحدكم صدقة] قالوا يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: [أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر].[1]

ومن حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ[2]، أن رسول الله ﷺ قال له: [إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في في امرأتك].[3]

ومن ثم استدل ابن تيمية بهذين الحديثين الشريفين على أن (من استعان بالمباح الجميل على الحق فهذا من الأعمال الصالحة).[4]

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف: (١/ ٦٩٧ -٦٩٨).

(٢) هو سعد بن مالك بن وهيب، أبو إسحاق القرشي الزّهري، أسلم قديمًا وهو ابن سبع عشرة سنة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ولي الولايات في عهد عمر وعثمان ﷺ، أحد العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم موتًا، توفي سنة خمس وخمسين. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٣٥٦ - ٣٦١)، الإصابة: (٣/ ٦١ - ٦٥).

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية: (١/ ٣٠)، ومسلم بنحوه في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث: (٢/ ١٢٥١).

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٣٦٩)، وانظر: فتح الباري: (١٩/ ١٢٧).

وهو مراده أيضًا حين قال: (فالمؤمن إذا كانت له نية أتت على عامة أفعاله، وكانت المباحات من صالح أعماله، لصلاح قلبه ونيته، والمنافق لفساد قلبه يعاقب على ما يظهره من العبادات رياء).[1]

وهو مقصود أبي حامد الغزالي بقوله: (ما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات، يصير بها من محاسن القربات، وينال بها معالي الدرجات).[2]

٥- المسألة الخامسة:

عبودية القلب طاعة مستقلة، ومما يلي يتضح المراد:

١ - أول ما يكلف به العبد أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن يصدق قلبه بذلك تصديقًا يقينيًا جازمًا، كما أنه مأمور بمحبة ربه سبحانه، وبرجائه وخشيته، وبالتوكل عليه والإنابة إليه، والصبر على أقداره، والرضا بقضائه، والتفكر في آياته وآلائه، والوجل من عقابه، والرحمة بعباده، والخشوع لذكره، والإخبات إلى كلامه جل شأنه.

وتلك أعمال قلبية تكتب للمؤمن، ويثاب عليها، سواء صاحبها عمل ظاهر أم لا، فإذا لم تقترن بأفعال الجوارح ساعة، كان القلب حينها مستقلًا بالعبودية.

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٣٦٩)، وانظر: الموافقات: (٢/ ٤٩٣- ٥٠٠).

(٢) إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٩٠).

يقول ابن تيمية: (بل قول القلب وعمله هو الأصل، مثل تصديقه وتكذيبه، وحبه وبغضه، من ذلك ما يحصل به مدح وذم، وثواب وعقاب، بدون فعل الجوارح الظاهرة، ومنه مالا يقترن به ذلك إلا مع الفعل بالجوارح الظاهرة إذا كانت مقدورة) وبعد أن ذكر أن: (أقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام، أحدها ما هو حسنة وسيئة بنفسه) وضّح هذا القسم فقال: (هو ما يتعلق بأصول الدين من التصديق والتكذيب، والحب والبغض، وتوابع ذلك، فإن هذه الأمور يحصل فيها الثواب والعقاب، وعلو الدرجات، وأسفل الدركات[1]، بما يكون في القلوب من هذه الأمور، وإن لم يظهر على الجوارح، بل المنافقون يظهرون بجوارحهم الأقوال والأعمال الصالحة، وإنما عقابهم وكونهم في الدرك الأسفل من النار على ما في قلوبهم من الأمراض).[2]

بل إن عبادة القلب المستقلة مقدمة على عبادة البدن المجردة عن حقائق الإيمان، المدخولة بالآفات المخلّة[3]، ولذا استدل ابن حجر بحديث رسول الله ﷺ: [أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي

(١) دركات النار: بفتح الراء: منازل أهلها، جمع درك بالتحريك والتسكين، والدرك إلى الأسفل، والدرج إلى الأعلى. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١١٤)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ١٧٤).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٥٨- ٧٥٩)، وانظر: (١٤/ ١٠٩).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (٢٢/ ٢٤٣).

وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني][1] على أن (العلم بالله، ومعرفة ما يجب من حقه، أعظم قدرًا من مجرد العبادة البدنية).[2]

ويؤكد ابن القيم على علوّ مرتبة العبادات القلبية فيقول: (واجبات القلوب أشدّ وجوبًا من واجبات الأبدان، و آكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس، بل هي من باب الفضائل و المستحبات: فتراه يتحرّج من ترك واجب من واجبات البدن، وقد ترك ما هو أهمّ واجبات القلوب وأَفْرَضُها، ويتحرّج من فعل أدنى المحرمات، وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشدّ تحريما وأعظم إثماً).[3]

٢ - قد تتوجه إرادة المؤمن الجازمة، وقصده الصادق، وعزمه التام، ونيته الخالصة، إلى القيام بعمل بدني صالح، لكنه بعد ذلك يعجز عن التنفيذ لعذر يمنعه، ولو توفرت له القدرة لفعل، ولو تمكن من إتمام الطاعة لما استنكف ونكص، وحينئذ يستقل القلب بالعبودية أيضًا، وينال العبد ثواب عمل الحسنة التي عجز عنها، ويعطى ـ بفضل الله ـ أجر العامل لها، وذلك لما استقر في قلبه من الحقائق الإيمانية.[4]

---

(١) رواه البخاري من حديث أنس ﷺ في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح: (٥/ ١٩٤٩).

(٢) فتح الباري: (١٩/ ١٢٧).

(٣) إغاثة اللهفان: (٢/ ٩١٠ - ٩١١).

(٤) انظر: الإيمان: (ص: ٣٢٣ - ٣٢٦)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٣١ - ٧٣٤، ١٤/ ١٢٣ - ١٢٤).

ويشهد لذلك حديث رسول الله ﷺ: [من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة].[1]

وحديثه عليه الصلاة والسلام في رجوعه من غزوة تبوك: [إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم] قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: [وهم بالمدينة، حبسهم العذر].[2]

قال الغزالي في تعليل هذه المشاركة في الأجر: (لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس، والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى، كقلوب الخارجين في الجهاد، وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب).[3]

هذه المشاركة في الأجر لا تقتضي المساواة من كل وجه بالضرورة، بل يثاب كل واحد، ويضاعف له الأجر، بحسب إخلاصه وما يقارن ذلك من أعمال القلوب، سواء منهم من خرج للجهاد، ومن منعه العذر.[4]

---

(١) رواه البخاري من حديث ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه ﷻ، في كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة: (٥/ ٢٣٨٠ - ٢٣٨١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة...: (١/ ١١٨).

(٢) رواه البخاري من حديث أنس ﷺ في كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر: (٤/ ١٦١٠)، ومسلم بنحوه من حديث جابر بن عبد الله ﷺ في كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر: (٢/ ١٥١٨).

(٣) إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٨٦ - ٤٨٧)، وانظر: التمهيد: (١٢/ ٢٦٧).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٣١ - ٧٣٢).

قال ابن عبد البر[1]: (الآثار الصحاح تدل على أن من نوى خيرًا وهمّ به، ولم يصرف نيته عنه، وحيل بينه وبينه، أنه يكتب له أجر ما نوى من ذلك).[2]

وفي هذه المسألة يرد الحديث المروي عن رسول الله ﷺ قال: [نية المؤمن خير من عمله].[3]

(١) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، أبو عمر النمري الأندلسي، القرطبي المالكي، إمام علامة حافظ، شيخ الإسلام، ولي قضاء لشبونة، من مصنفاته: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، توفي سنة ثلاث وستين وأربع مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٤٢٧٢ – ٤٢٧٤)، الأعلام: (٨/ ٢٤٠).

(٢) التمهيد: (١٩/ ٢٠٤).

(٣) رواه الطبراني في الكبير، كما في مجمع الزوائد: (١/ ٢٢٨، ٣٠١)، من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ. قال الهيثمي: (فيه حاتم بن عباد بن دينار، لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات) وضعفه الحافظ العراقي في المغني، بهامش الإحياء: (٤/ ٤٨٤)، وأورده السيوطي في الجامع الصغير ولم يرمز له بشيء. فيض القدير: (٦/ ٢٩٢)، ورواه كذلك البيهقي في شعب الإيمان: (٥/ ٣٤٣)، من حديث أنس بن مالك ﷺ بلفظ (نية المؤمن أبلغ من عمله) وقال (هذا إسناد ضعيف)، وذكره ابن حجر في الفتح: (٩/ ٥١)، وضعفه أيضًا، وأورده السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٦/ ٢٩١) ورمز له بالضعف، وضعفه أيضًا في تدريب الراوي، طبعة دار الفكر: (٢/ ١٧٥)، وهو مروي كذلك من حديث النواس بن سمعان وعلي بن أبي طالب ﷺ. انظر: مسند الشهاب لأبي عبد الله القضاعي، ط٢، مؤسسة الرسالة: (١/ ١١٩)، التمهيد: (١٢/ ٢٦٥)، اللآلي المنثورة للزركشي، ط١، المكتب الإسلامي: (ص: ٣٨).

وذكر السخاوي والعجلوني وغيرهما أن له شواهد، وأن بمجموعها ـ وإن كانت ضعيفة ـ يتقوى الحديث، ولذا قال المناوي: (والحاصل أن له عدة طرق تجبر ضعفه). انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي، طبعة دار الكتاب العربي: (ص:٥٢٦ -٥٢٧)، فيض القدير: (٦/ ٢٩٢)، كشف الخفاء: (٢/ ٤٣٠)، الفوائد المجموعة للشوكاني، مطبعة السنة المحمدية: (ص: ٢٥٠).

وقد تكلم عدد من أهل العلم في مراد الحديث[1]، فذكروا في ذلك وجوها منها:

أ – أن جنس النية فاضل على جنس العمل، والدليل أن نية الخير مجردة عن العمل يمكن أن يثاب عليها العبد، بينما لا يتحقق ذلك للعمل المفتقر إلى الإخلاص، فالنية الخالصة بانفرادها تحقق ما لا يحققه العمل بانفراده.[2]

ب – أن تفاوت مقدار الثواب ومضاعفته يتأسس ـ بعد فضل الله تعالى ـ على حال العامل في إخلاص النية، وما يصاحبها من عمل القلب، وتعدد الإرادات الفاضلة في الطاعة الواحدة[3]، إذ الأعمال الصالحة مرتبطة بالنية في أصل صحتها، ثم في عظم مرتبتها، ومضاعفة أجرها وثوابها.

ج – أن مريد العمل الصالح إذا قام منه بما في مكنته واستطاعته، ثم عجز عن التمام لمانع طارئ، تحصّل له أجر العمل بتمامه، لتوفر النية الصادقة في الإتمام لو انتفى المانع.

د – أن النية تبلغ بصاحبها في الخير أو الشر، ما لا يبلغه بعمله.[4]

(١) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٨٤ – ٤٨٦)، قوت القلوب: (٢/ ٣١٠ – ٣١١)، عمدة القاري: (١/ ٣٥)، مجموع الفتاوى: (٢٢/ ٢٤٣)، فيض القدير: (٦/ ٢٩١ – ٢٩٢).

(٢) انظر: التمهيد: (١٢/ ٢٦٥)، تنبيه الغافلين: (٢/ ٥٢٦)، الآداب الشرعية: (١/ ١٣٤).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٨٩).

(٤) انظر: الزهد لابن المبارك، ط١، دار ابن حزم: (ص: ٣٣).

ومن الأدلة على ذلك حديث أبي كبشة الأنماري[1]، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [إنما الدنيا لأربعة نفر[2]: عبد رزقه الله مالًا وعلمًا، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا، ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالًا ولم يرزقه علمًا، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالًا وعلمًا، فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان، فهو نيته، فوزرهما سواء].[3]

وعن البراء ﷺ[4] قال: (أتى النبي ﷺ رجل مقنع بالحديد[5]، فقال: يا

(١) هو سعيد بن عمر، وقيل عمير بن سعد، وقيل غير ذلك، أبو كبشة الأنماري المذحجي، له صحبة، سكن الشام، وروى عن أبي بكر الصديق ﷺ، انظر: الإصابة: (٧/ ٢٨٣).

(٢) (أي إنما حال أهلها حال أربعة) فيض القدير: (٣/ ٢٩٩).

(٣) الحديث رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر: (٤/ ٥٦٣)، وقال هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة في كتاب الزهد، باب النية: (٢/ ١٤١٣)، وأحمد في المسند: (٤/ ٢٣١)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٣/ ٢٩٩)، وصححه الصبابطي في تخريج سنن الترمذي: تحفة الأحوذي: (٦/ ١٩٦) (الهامش).

(٤) هو البراء بن عازب بن الحارث، أبو عمارة الأنصاري، الأوسي الحارثي، له ولأبيه صحبة، من أعيان الصحابة ﷺ، استصغر يوم بدر، وشهد بعدها خمس عشرة غزوة مع النبي ﷺ، نزل الكوفة، توفي سنة اثنتين وسبعين. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ١١٩١ - ١١٩٢)، الإصابة: (١/ ٤١١ - ٤١٢).

(٥) أي قد غطاه السلاح وآلة الحرب. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ١١٤)، فتح الباري: (١١/ ٢٨٧). ويحتمل أن يكون هذا الرجل هو عمرو بن قيس الذي استشهد في أحد، فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة، والخبر في سنن أبي داود من رواية أبي هريرة ﷺ: كتاب الجهاد، باب فيمن يسلم ويقتل مكانه في سبيل الله ﷺ: (٣/ ٤٣)، وانظر: دلائل النبوة للبيهقي، ط١، دار الكتب العلمية: (٣/ ٢٤٧ - ٢٤٨)، فتح الباري: (١١/ ٢٨٧ - ٢٨٨)، السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري، طبعة مكتبة العلوم والحكم: (٢/ ٣٨٩ - ٣٩٠).

رسول الله، أقاتل وأسلم. قال: [أسلم ثم قاتل] فأسلم ثم قاتل فقتل، فقال رسول الله ﷺ: [عمل قليلًا وأجر كثيرًا].[1]

فهذا الصحابي المجاهد جازاه الله جل شأنه بإحسانه عظيم الأجر على يسير العمل، لما تحقق إيمانه، وسلمت إرادته، وصحت نيته في سلوك سبيل الهداية زمن حياته، وإن لم يتقدم تلك النية الصالحة إلا القليل من العمل.[2]

هـ - أن أصل النية الصالحة ينبع من محبة الله تعالى وإرادته وابتغاء رضاه، ومن ثم لا يدخلها الفساد، بينما العمل الظاهر يمكن أن يفسد بآفات عديدة، كالرياء والعجب، وغير ذلك.

و- أن ثواب النية أعظم من ثواب العمل، باعتبار محدودية العمل زمنًا ومكنة، بينما النية ممتدة متصلة بمرور الأزمان[3]، فالعمل يدخل في دائرة الحصر، بعكس النية، ومن ثم يترتب من الجزاء على النية ما لا يترتب على العمل.

قال ابن تيمية: (النية يثاب عليها المؤمن بمجردها، وتجري مجرى العمل إذا لم يمنع من العمل بها إلا العجز، ويمكنه ذلك في عامة أفعال الخير، وأما عمل البدن فهو مقيد بالقدرة، وذلك لا يكون إلا قليلًا، ولهذا

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب عمل صالح قبل القتال: (٣/ ١٠٣٤)، ومسلم بنحوه في كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد: (٢/ ١٥٠٩).

(٢) انظر: عمدة القاري: (١٤/ ١٠٦).

(٣) انظر: فتح الباري: (٩/ ٥١)، عمدة القاري: (١/ ٣٥)، تنبيه الغافلين: (٢/ ٥٢٦).

قال بعض السلف: قوة المؤمن في قلبه، وضعفه في بدنه، وقوة المنافق في بدنه، وضعفه في قلبه).[1]

ز – أن النية عبودية القلب، والعمل عبودية الجوارح، وفعل القلب أعظم وأشرف، إذ هو الأمير والراعي، والأعضاء رعية تابعون، والأصل مقدم على الفرع.

قال الغزالي: (.. يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح، ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل، لأنها عبارة عن ميل القلب إلي الخير، وإرادته له).[2]

ح – واختار الغزالي أن: (ظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير) وليس ترجيحا لنية مجردة على عمل مجرد، (والمعنى أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل، وكانت النية من جملة الخيرات، وكان العمل من جملة الخيرات، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود، وأثر النية أكثر من أثر العمل، فمعناه: نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته، والغرض أن للعبد اختيارًا في النية وفي العمل، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما، فهذا معناه).[3]

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٦١).

(٢) إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٨٦)، وانظر: (٤/ ٤٨٥).

(٣) إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٨٤).

وجميع هذه الأقوال في توجيه المراد من تفضيل النية على العمل صحيحة مقبولة، ولا تعارض بينها، بل هي في حقيقتها متقاربة، يتصل بعضها ببعض، والأدلة الشرعية تؤيدها، والعلم عند الله تعالى.

غير أن من المهم التنبيه إلى أن هذه الأفضلية ليست على عموم الأوقات والأحوال.

ذلك أن النية مجردة عن العمل، مع تمام القدرة وانتفاء الموانع، ليست بمحمودة، إذ العزم فيها ليس بتام، والقصد ليس بصادق.

ثم بعد تحقق الصدق في النية، والتمام في العزم، مع عدم تحقق الفعل لوجود المانع وقيام العذر، فإن ذلك أيضًا لا يجعل للنية أفضلية بإطلاق، والدليل على ذلك أن النص الشرعي جعل الهم على الحسنة بحسنة كاملة إذا لم يتمكن العبد من العمل، وجعل الهم مقرونًا بالعمل بعشر حسنات.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه ﷻ: [إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة..] الحديث.[1]

والأصل في دين الله أن النية والعمل قرينان لا ينفك أحدهما عن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة: (٥/ ٢٣٨٠-٢٣٨١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة: (١/ ١١٨).

الآخر، وما كلف به العبد من الشرائع الظاهرة كالصلاة والحج وغيرهما تجمع بين عمل القلب ولازمها من أفعال الجوارح.

ومن ثم فإن مسألة التفضيل مبنية على التفصيل، وما سبق إيراده من الوجوه في توجيه المراد يقرر ذلك ويوضحه.[1]

٦- المسألة السادسة:

القلب هو الأصل في المدح أو الذم.

يشتمل القلب على أعمال وأحوال يحمد عليها، كالخوف والرجاء، والتوكل والإنابة، والزهد والقناعة، والمحبة والتقوى، واللين والتواضع، والصبر والشكر، والإخلاص والرضا.

كما يشتمل على علل وأسقام يذم عليها، كالكبر والخيلاء، والقسوة والخيانة، والغضب والرياء، والهلع والجزع، والحسد والحقد، والغش والطمع، والسخط وكراهية الهدى.

والأولى أصل لأفعال الجوارح المحمودة، والثانية أصل لأفعالها المذمومة.

يقول الله تعالى في معرض المدح للقلوب حين تصح:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢].

﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

(١) انظر: التمهيد: (١٢/ ٢٦٥ - ٢٦٦)، عمدة القاري: (١/ ٣٥).

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٣].

ويقول تعالى في معرض الذم للقلوب حين تموت:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[البقرة: ٧٤].

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦].

والنصوص في الثناء على عبادات القلب، وفي ذم أمراضه وعلله كثيرة جدًا في الكتاب العزيز والسنة الشريفة.[1]

وحين تتشابه القلوب في الأحوال تتشابه الأعضاء في الحركات والأقوال، كما قال الله جل شأنه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة: ١١٨].

فقد جعلت الآية الكريمة محور التشابه في القلوب، مع أن التشابه في الأذهان هو ما يقع في الظاهر مكشوفًا للعيان، مما يؤكد أن الظاهر ينبعث مما رسخ في القلب.

قال الفراء: (تشابهت قلوبهم في اتفاقهم على الكفر).[2]

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٥٥ - ٧٥٨).

(٢) معاني القرآن: (١/ ٧٥)، وانظر: تفسير ابن كثير: (١/ ١٦٢).

فلما تشابهت قلوبهم في كراهية الحق، ومعاندة الهدى، تشابهت أقوالهم وأفعالهم في مواجهة المرسلين عليهم السلام.

٧- المسألة السابعة:

القلب منبع الإيمان.

يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

والمعنى: (زينه بتوفيقه في قلوبكم، أي حسنه إليكم حتى اخترتموه).[1]

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أي جعل الإيمان في قلوبهم، وثبته فيها بتوفيقه جل شأنه.[2]

قال القرطبي: (خص القلوب بالذكر لأنها موضع الإيمان).[3]

وقال تعالى في حال المنافقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

---

(١) تفسير القرطبي: (١٦/ ٢٠٦).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٢٧٧)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٢٩)، أضواء البيان: (٧/ ٨٢٦).

(٣) تفسير القرطبي: (١٧/ ٢٠٠).

ففي الآية الكريمة تصريح بأن قلوب المنافقين خلت من الإيمان التي هي محله ومكانه.

وقال تعالى عن طائفة مخصوصة من الأعراب[1]: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

فقد أثبت لهم الإسلام، ونفى عنهم كمال الإيمان في قلوبهم.[2]

ومن ثَمّ كان نطق اللسان غير ذي بال، إذا لم يتأسس على عقيدة صادقة

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: (١٦/ ٢٢٧)، أضواء البيان: (٧/ ٦٣٩).

(٢) هذا أحد القولين في الآية الكريمة: أن المنفي عنهم هو تمام الإيمان لا أصله، فهم مسلمون، لكن إيمانهم فيه ضعف ونقص، ولم يستحكم ويتمكن في قلوبهم.

واختار هذا القول ابن جرير الطبري في تفسيره: (٢٦/ ١٤٢ - ١٤٣)، وابن كثير في تفسيره: (٤/ ٢١٨ -٢١٩)، كما رجحه ابن رجب وابن أبي العز، مستدلين بأن سياق الآيات ليس في المنافقين، وبقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لا ينقصكم من أجورها، وهذا يدل على أن معهم من الإيمان ما تقبل به أعمالهم، ولو كانوا منافقين لم تقبل لهم طاعة. انظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣٢٩ - ٣٣٠)، جامع العلوم والحكم: (١/ ١٠٩ - ١١٠).

والقول الثاني: أن الآية الكريمة أثبتت لهم الإسلام بمعناه اللغوي، وهو الانقياد الظاهر باللسان والجوارح دون اعتقاد القلب، ونفت عنهم حقيقة الإيمان الشرعية، وعلى ذلك فهم منافقون بالكلية.

وممن قال بهذا القول البغوي في تفسيره: (٤/ ٢١٨)، وابن الجوزي في زاد المسير: (٧/ ١٨٧)، والقرطبي في تفسيره: (١٦/ ٢٢٧)، ورجحه محمد الأمين في أضواء البيان: (٧/ ٦٣٧ - ٦٣٩).

في القلب، كما هو حال المنافقين، الذين كشفهم الله بقوله سبحانه:

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

﴿الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

قال القرطبي: (أي لم يضمروا في قلوبهم الإيمان كما نطقت به ألسنتهم).[1]

ولما كان القول منهم غير مبني على القلب واعتقاده، قيدته الآيات الكريمات بأنه نطق بمجرد الألسنة والأفواه، لا يقوم على أساس.[2]

ولذا أثبت الله ﷻ علمه بما تنطوي عليه بواطنهم فقال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء: ٦٣].[3]

هذا الإيمان الذي يحل في القلب عُبّر عنه بالخير في قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

---

(١) تفسير القرطبي: (٦/ ١١٨)، وانظر: (٤/ ١٧١، ١٦/ ١٧٨)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤٢٥، ٤/ ١٨٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٠٥ – ٥٠٦).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٥/ ١٧١)، تفسير ابن كثير: (١/ ٥١٩).

قال البغوي: (أي إيمانا).[1]

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

والمراد بما في القلوب ثمرة الإيمان بالله ورسوله من الصدق والوفاء والسمع والطاعة.[2]

٨- المسالة الثامنة:

القلب محل التقوى

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

تبين الآية الكريمة أن تعظيم شعائر الله، وهي أعلام الدين ومعالم العبادة الظاهرة، من أفعال أصحاب القلوب المتصفة بالتقوى.[3]

وإضافة التقوى إلى القلوب في الآية يدل على أن أصل التقوى، وحقيقتها ومركزها، يكمن في القلب، ثم تظهر آثاره على الجوارح استقامة

---

(١) تفسير البغوي: (٢/ ٢٦٣)، وانظر تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٢٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٦/ ١٨٣)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٩١).

(٣) انظر: تفسير البغوي: (١/ ١٣٢، ٣/ ٢٨٦ – ٢٨٧)، تفسير الفخر الرازي: (٢٣/ ٣٢)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢١٩)، نظم الدرر: (١/ ٢٨٥، ٥/ ١٥١)، فتح القدير: (٣/ ٤٥٨)، تفسير السعدي: (٣/ ٣٢٠)، روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن لمحمد الصابوني، ط٣، مكتبة الغزالي: (١/ ١٣٣، ٦١٣).

على شرع الله جل شأنه.[1]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

وهذه الآية الكريمة أيضًا تشير إلى أن أصل التقوى في القلب.

ذلك أن الآية تثني على الذي يخفضون أصواتهم في مجلس رسول الله ﷺ، إجلالًا له وتوقيرًا، وتخبر أن هؤلاء هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي جعلها موضعًا ومستقرًا للتقوى، خالصة لها، مختصة بها، كما يختبر المعدن من الذهب والفضة بالنار، حتى يصير صافيًا من شوائبه، خالصًا مما يخالطه من غير أصله.[2]

قال ابن كثير في تفسير الآية: (أي أخلصها لها وجعلها أهلًا ومحلًا).[3]

ومن حديث أبي هريرة ﷺ، أن الرسول ﷺ قال: [المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى هاهنا] ويشير إلى صدره ثلاث مرات.[4]

---

(١) انظر: زاد المسير: (٥/ ٢٩٤)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٣٨)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٣٩)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٠٦)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ٢٧٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ١٢٠)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٠٨)، تفسير السمعاني: (٥/ ٢١٥)، تفسير البغوي: (٤/ ٢١٠)، تفسير ابن عطية: (٥/ ١٤٥)، نظم الدرر: (٧/ ٢٢٤).

(٣) تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٠٧)، وانظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٤١٥)، تفسير الواحدي: (٢/ ١٠١٦)، تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ١١٥ - ١١٦)، تفسير القرطبي: (١٦/ ٢٠٣).

(٤) الحديث رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم.. (٣/ ١٩٨٦).

قال النووي: (أراد القلب).[1]

يشير الحديث الشريف إلى أن التقوى في حقيقتها لا تحصل بالأعمال الظاهرة فقط، بل تحصل قبل ذلك بما يستقر في القلب من تعظيم الله وإجلاله وخوف عقابه.[2]

ومثله ما تضمنه الحديث القدسي: [يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا].[3]

وهو نص يقرر أيضًا أن أصل التقوى في القلب، فإذا برّ القلب واتقى تحرّكت الأعضاء بالبر والطاعة، وتحققت بالتقوى.[4]

٩- المسألة التاسعة:

القلب موطن الهداية.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

وهو أيضًا مقر الطهر والنزاهة من الشر والخبث.

قال الله تعالى عن أهل الكفر من المنافقين واليهود: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

---

(١) شرح الأربعين النووية: (ص: ٦٥).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ١٢١)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ٢٧٦).

(٣) رواه مسلم من حديث أبي ذر ﷺ في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم: (٣/ ١٩٩٥).

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم: (٢/ ٤٧).

﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال تعالى في حق أمهات المؤمنين رضي الله عنهن: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

والمراد طهارة القلب ونقاؤه من الريبة والخواطر السيئة.[1]

وفي المقابل هو محل الزيغ والميل عن الحق والهدى.

قال الله تعالى عن اليهود المكذبين بنبي الله موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

إذا الهداية إصابة الحق والتزام الهدى، والزيغ ميل وانحراف عنهما.[2]

وهو مصدر الإثم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

والإثم الفجور[3]، أضيف إلى القلب هنا باعتبار أن الآية الكريمة تحذر

(١) انظر: المفردات: (ص: ٣١٠)، تفسير البغوي: (٣/ ٥٤٠)، تفسير القرطبي: (١٤/ ١٤٦).

(٢) انظر: أضواء البيان: (٨/ ١٧٩ – ١٨٠).

(٣) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٢٧)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٣٢)، تفسير ابن كثير: (١/ ٣٣٧).

من كتمان الشهادة، وهو أمر قلبي، وباعتبار تبعية الجوارح في أفعالها للقلب وما تتجاذبه من إرادات وصوارف.[1]

وقد أضيف لفظ الفجور إلى القلب في الحديث القدسي: [يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا].[2]

مما يدل على أن الأصل في الفجور القلب، وحينئذ تتبعه الجوارح.[3]

١٠– المسألة العاشرة:

القلب موضع الكفر والنفاق.

ومن الآيات الدالة على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤].

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٣٢)، تفسير القرطبي: (٣/ ٢٦٨).

(٢) رواه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم: (٣/ ١٩٩٥).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم: (٢/ ٤٧).

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الفتح: ١٢].

والمراد النفاق[1]، زينه الشيطان وحسّنه في قلوبهم.[2]

ولذا ذكر بعض المفسرين في قول الله تعالى: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [الهمزة: ٦ - ٧]، (أن سبب تخصيص الأفئدة بذلك هو أنها موطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة).[3]

١١- المسألة الحادية عشرة:

القلب مركز الفقه والعقل والانتفاع بالعلم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

(١) انظر: تفسير القرطبي: (١٦/ ١٧٨)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٨٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٧٨)، زاد المسير: (٧/ ١٦٤).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (٣٢/ ٩٤).

فقد ذم الله جل شأنه الكافرين فوصفهم بأنهم لا ينتفعون بقلوبهم في العلم الذي يهديهم إلى توحيد الله ومعرفته، ويحقق لهم الإيمان واليقين، وفي ذلك دلالة على أن القلب محل العلم والفهم.[1]

ويدل على ذلك أيضًا تخصيص القلب بالختم ونحوه في مثل قول الله تعالى في شأن الكافرين المعاندين: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧].

قال ابن الجوزي: (إنما خصه بالختم لأنه محل الفهم).[2]

واستدل الرازي بالآية: (على أن محل العلم هو القلب).[3]

١٢- المسألة الثانية عشرة:

القلب محل الارتياح والسعة.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١].

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومحل الطمأنينة والسكون.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ

(١) انظر: المفردات: (ص: ٣٤٥)، تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ٦٤)، تفسير البحر المحيط: (٦/ ٣٧٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٦٨)، القواعد الحسان: (ص: ١٣٤)، أضواء البيان: (٥/ ٧١٥)، وسائل الإدراك في القرآن الكريم: (ص: ٤٣ - ٤٥).

(٢) زاد المسير: (١/ ٢٢).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (٢/ ٥٣)، وانظر: تفسير البيضاوي: (١/ ٢٣).

﴿ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهو محل القوة والثبات.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وبالمقابل فالقلب محل الانزعاج والضيق.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ [النساء: ٩٠].

أي ضاقت صدورهم كراهة قتالكم.(١)

وهو محل الرعب والرهبة.

قال الله تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥١].

﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣].

وهو مكان الحقد والحسد والعداوة.

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

---

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ١٣٤)، المفردات: (ص: ١٢٨)، والمقصود طائفة من المشركين كرهوا قتال المسلمين يوم بدر، منهم العباس وغيره. انظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٥٣٣).

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠].(١)

وموقع الندم والحسرة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

قال الراغب: (الحسرة الغم على ما فاته والندم عليه).(٢)

والمعنى: ليكون ذلك القول والظن منهم سببًا لاستقرار الغم والندامة في قلوبهم، عقوبة من الله لهم(٣)، والمقصود في الآية المنافقون.(٤)

والقلب أيضًا محل وسوسة الشيطان وإلقاءاته.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥].

١٣- المسألة الثالثة عشرة:

القلب مستقر الحب والميل والهوى.

قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: ٤].

---

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ١٦٨)، المفردات: (ص: ٣٦٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢١٥).

(٢) المفردات: (ص: ١٢٥).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٤/ ١٥٩)، تفسير ابن كثير: (١/ ٤١٩).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٣٦٤).

أي مالت عن الحق.[1]

وقال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأنعام: ١١٣].

أي تميل إلى زخرف القول من الباطل.[2]

وقال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

أي تحنّ وتنزع إليهم وتريدهم وتميل إليهم.[3]

وقال تعالى عن اليهود: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

والمراد حب عبادة العجل، تمكن من قلوبهم حتى كأنهم شربوه فخالط بواطنهم.[4]

---

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٤٧٢)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ١٩٣)، المفردات: (ص: ٢٨٥).

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٢٨٤)، تفسير البغوي: (٢/ ١٢٤)، زاد المسير: (٣/ ٧٥)، تفسير القرطبي: (٧/ ٤٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٦٧).

(٣) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٣٣)، زاد المسير: (٤/ ٢٦٩ – ٢٧٠)، تفسير القرطبي: (٩/ ٢٤٥).

(٤) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٥٨)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٣٠٨ – ٣٠٩)، تفسير ابن كثير: (١/ ١٢٦).

عن قتادة قال: (أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم).[1]

وقد ورد في حديث رسول الله ﷺ أن القلب يهوى ويتمنى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة. فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه].[2]

والمراد ـ فيما يتعلق بالقلب ـ فكره وتصوره، ورغبته وميله.[3]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا، يبلغ به النبي ﷺ قال: [قلب الشيخ شابّ على حب اثنتين: حب العيش، والمال].[4]

والمقصود أن قلب الكبير لا يزال شابًا فيما يتعلق بتمكن محبة المال في قلبه، وكذلك محبة الحياة وطول العمر.[5]

قال النووي: (معناه أن قلب الشيخ كامل الحب للمال، محتكم في ذلك كاحتكام قوة الشاب في شبابه).[6]

---

(١) تفسير الطبري: (١/ ٤٢٢ –٤٢٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج: (٥/ ٢٣٠٤)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره: (٣/ ٢٠٤٧).

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ٢٠٦).

(٤) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر: (٥/ ٢٣٦٠)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا: (١/ ٧٢٤).

(٥) انظر: فتح الباري: (٢٤/ ١٦ – ١٧).

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ١٣٨).

الفصل الثاني :
أركان عبودية القلب وتفاوت الناس فيها
ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عبودية القلب بين الإيجاب والسلب.

المبحث الثاني: أركان عبودية القلب.

المبحث الثالث: منازل الناس في عبودية القلب.

المبحث الأول

عبودية القلب بين الإيجاب السلب

أوجد الله تعالى القلب ليكون عابدًا له سبحانه، متوجِّها إليه بالتوحيد والتعظيم والإرادة، والخوف والرجاء والمحبة، فإذا تحققت هذه الغاية الشريفة كانت وسيلة القلب إلى إدراك الصلاح ونيل الفلاح والسعادة.

ولقد كان من رحمة الله جل شأنه، أن فطر الناس على ذلك المقصود العظيم، حين جعل الأصل في قلوبهم معرفة ربهم تبارك وتعالى والإقرار به، ومحبته وعبادته والإنابة إليه، وهيأ تلك القلوب للعلم به جل وعلا، وقبول دينه، وتلقي حكمه، والاطمئنان إلى الحق في شرائعه التي جاء بها الرسل عليهم السلام تكميلا وتتميمًا للفطرة، وتقريرًا وتثبيتًا لها.

يؤكد ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

والمعنى كما يقول ابن كثير: (لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره).[1]

وقد تضمن هذا المعنى أيضًا قول رسول الله ﷺ: [ما من مولود إلا

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٣٢)، وانظر: تفسير الثعالبي: (٣/ ٢٠٢ – ٢٠٣)، نظم الدرر: (٥/ ٦٢١- ٦٢٢)، أضواء البيان: (١/ ٤١٦ .

ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء[1] هل تحسون فيها من جدعاء[2]].[3]

والمراد بالفطرة في الحديث الإسلام[4]، ويشهد له ما تضمنته إحدى روايات مسلم [ما من مولود يولد إلا وهو على الملة].[5]

والمقصود: (أن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق، ودين الإسلام هو الدين الحق).[6]

---

(١) (البهيمة الجمعاء هي السليمة، سميت بذلك لاجتماع السلامة في أعضائها) غريب الحديث لابن قتيبة، ط، مطبعة العاني: (١/ ٣٥١)، وانظر شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ٢٠٩)، عمدة القاري: (١٩/ ١١١).

(٢) الجدعاء: هي مقطوعة الأذن أو الأطراف. انظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (١/ ١٠١)، النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٤٦ – ٢٤٧)، قال ابن الأثير: (١/ ٢٤٧) (يعني أن البهيمة تولد مجتمعة الخلق، سوية الأطراف، سليمة من الجدع، لولا تعرض الناس إليها لبقيت كما ولدت سليمة) وانظر غريب الحديث لابن قتيبة: (١/ ٣٥١)، فتح الباري: (٦/ ٣٠٤).

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب الجنائز. باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟.. (١/ ٤٥٦)، ومسلم بنحوه في كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.. (٣/ ٢٠٤٧).

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ٢٠٨)، فتح الباري: (٦/ ٣٠٣).

(٥) صحيح مسلم: كتاب القدر . باب معنى كل مولود يولد على الفطرة..(٣/ ٢٠٤٨).

(٦) فتح الباري: (٦/ ٣٠٤) وانظر: تفسير القرطبي: (١٤/ ٢٠)، شرح الزرقاني على الموطأ، ط١، دار الكتب العلمية: (٢/ ١١٩ – ١٢٠).

وتكرر المعنى أيضًا في الحديث القدسي الذي رواه عياض بن حمار[1] ﷺ عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى يقول: [إني خلقت عبادي حنفاء[2] كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم[3] عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا].[4]

وهذا الحديث الشريف يقرر أمرين:

أولهما: أن الأصل في القلب توحيد الله ومحبته، والميل إلى دينه وشرعه [إني خلقت عبادي حنفاء] يقول ابن تيمية: (أخبرهم أنه خلقهم حنفاء، وذلك يتضمن معرفة الرب وتوحيده ومحبته، فهذه الثلاثة تتضمن الحنيفية، وهي معنى قول (لا إله إلا الله)).[5]

---

(١) هو عياض بن حمار بن أبي حمار بن ناجية، التميمي المجاشعي، روي له عن النبي ﷺ ثلاثون حديثًا، أحدها في صحيح مسلم، سكن البصرة وهو معدود في أهلها. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ط١، دار الجيل: (٣/ ١٢٣٢)، الإصابة: (٤/ ٦٢٥).

(٢) جمع حنيف، وهو المائل إلى الإسلام، وأصل الحنَف الميل. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٤٥١)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ١٩٧).

(٣) اجتال الشيء أي ذهب به وساقه، والمعنى: استخفوا بهم، وأزالوهم عن الهدى، وجالوا معهم في الباطل والضلال. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣١٧)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ١٩٧).

(٤) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها. باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار: (٣/ ٢١٩٧).

(٥) مجموع الفتاوى: (١٦/ ٣٤٥).

وثانيهما: أن الشيطان هو المؤثر الرئيس في انحراف الناس عن هذا الأصل الذي هو سلامة الفطرة واتجاه القلب إلى خالقه سبحانه [وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم].

ومن مجموع النصوص السابقة يتبين أن القلب إذا ترك لأصل حاله، ومقتضى فطرته، وانتفت عنه المؤثرات والأسباب المخلّة، وسلم من الواردات والعوارض المفسدة من شياطين الجن والإنس، كان قلبًا عابدًا لله تعالى، معترفًا له بالوحدانية، مقرًا له بالألوهية، متهيئًا لقبول دينه، مائلًا إلى الحق، ملازمًا له، مستقيمًا على ما يقتضيه أصل الطبع وأساس الفطرة من معرفة الله جل شأنه ومحبته.

وكل ما يخالف الإسلام والتوحيد من الأديان الفاسدة، والمذاهب الضالة، والاتجاهات الباطلة، إنما تنتج عن آفات خارجية تعرض للقلب فتمرضه وتسقمه، أو تميته وتفسده، ومن ثَمّ يعدل بها العبد عن دين الفطرة إلى مسالك الانحراف على اختلاف صوره ومذاهبه.

وإذا بقي القلب سليم الفطرة، ثم استجاب لنداء الرسل عليهم السلام، وتقبل ما يبلّغونه عن الله سبحانه من المناهج والشرائع المتناسقة مع نداء الفطرة، والمتجاوبة معها، والمكملة لها، تمكن حينئذ من الهداية، واستكمل الصلاح، واستجمع الخير والسعادة، وأشرق بالضياء والنور، إذ تحصّل له المقصود، وتحققت الغاية التي من أجلها خلق.

ومتى انحرف القلب عن السلامة الأصلية التي فطره الله عليها من محبة الله تعالى والتذلل له، وأصبحت حركاته وأعماله منافية لتوحيد الله وإرادته والإقرار بعبوديته، وتعلّق بغيره من المعبودات الباطلة، صار حينئذ قلبًا فاسدًا خبيثًا، محجوبًا عن ربه سبحانه، يصيبه الشقاء، وتتقاذفه الأهواء، ويتمكن منه الشر والضلال.(١)

ذلك أن القلب حين لا يتحقق بالإيجابية، بالبقاء على الفطرة التي فطره الله تعالى عليها، و بتكميلها وتقريرها بقبول شرعه سبحانه، فيستكبر ويستنكف عن السير في منازل عبوديته جل شأنه، فإن القلب ولابدّ سيقف موقفًا سلبيًا من معالم التوحيد الخالص، والاستسلام لله تبارك وتعالى، وسيتجه إلى الجهة المضادة، والطريق المعاكس، طريق العبودية الباطلة المناقضة للفطرة.

تلك هي عبودية الشيطان التي تستولي وتستحوذ على القلب، حين يصبح منكوسًا فارغًا من عبودية الله رب العالمين.

وكل أنواع الكفر، وصور الشرك بالله تعالى، إنما هي نماذج ومظاهر متنوعة لعبودية الشيطان.

إذ القلب لابد أن يعبد، فإن لم يعبد الله عبد الشيطان لا محالة، في معلم

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٤/ ٢٩٥ - ٢٩٦، ١٨/ ١٦٣ - ١٦٤)، فتح الباري: (٦/ ٣٠٤)، إغاثة اللهفان: (١/ ٦٩، ٢/ ٨٧٦ - ٨٧٧).

من معالم العبودية الضالة والباطلة.

يقول ابن تيمية: (وكل من استكبر عن عبادة الله لابد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلابد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهي حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهي حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلا بُدّ أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبدا لذلك المراد المحبوب، إما المال وإما الجاه وإما الصور، وإما مايتخذه إلهًا من دون الله، كالشمس والقمر والكواكب والأوثان وقبور الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أربابًا، أو غير ذلك مما عبد من دون الله، وإذا كان عبدا لغير الله يكون مشركًا، وكل مستكبر فهو مشرك).[1]

(فكل من لم يعبد الله مخلصًا له الدين فلا بد أن يكون مشركًا عابدًا لغير الله، وهو في الحقيقة عابد للشيطان، فكل واحد من بني آدم إما عابد للرحمن، وإما عابد للشيطان).[2]

ولذلك حذر القرآن الكريم من عبادة الشيطان وطاعته باعتبارها مضادة لعبادة الرحمن جل شأنه، وعليه تتأسس كل عبادة باطلة.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ

(١) العبودية: (ص: ٨٠ – ٨١) (مع اختصار يسير)، وانظر: (ص: ٨٢).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٢٨٤).

إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

قال ابن عطية: (عبادة الشيطان هي طاعته والانقياد لإغوائه).[1]

وكان من دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

ذلك أن عبادة الأصنام والكواكب وغيرهما هي في حقيقتها أثر من آثار طاعة الشيطان في الالتزام بدين مخالف ومنهج باطل، وذلك هو المعنى المقصود من لفظ العبادة.

قال ابن كثير: (أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به).[2]

فإشراك الشيطان مع الله تعالى في العبادة هو شرك في الطاعة والاتباع لما يدعو إليه مما يخالف شرع الله جل وعلا.[3]

وحتى من يعبد الصالحين والملائكة في الظاهر إنما هو في الحقيقة عابد للشيطان الذي حسّن ذلك لهم وأمرهم به، فأطاعوه من دون الله.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ

(١) تفسير ابن عطية: (٤/ ٤٥٩)، وانظر تفسير القرطبي: (١٥/ ٣٢).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ١٢٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (١١/ ٧٥)، الإيمان: (ص: ٢٧٩ – ٢٨٠) فتح المجيد لعبد الرحمن ابن حسن، طبعة دار الكتب العلمية: (ص: ١٠١)، أضواء البيان: (٤/ ٢٨٦).

كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١].

والمراد أن: (الشياطين زينوا لهم عبادة الملائكة، فهم كانوا يطيعون الشياطين في عبادة الملائكة).[1]

ولذا قال ابن تيمية: (وكل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان، وإن كان يظن أنه يعبد الملائكة والأنبياء..).[2]

وقال أيضًا: (والذين يعبدون الشيطان أكثرهم لا يعرفون أنهم يعبدون الشيطان، بل قد يظنون أنهم يعبدون الملائكة أو الصالحين، كالذين يستغيثون بهم، ويسجدون لهم، فهم في الحقيقة إنما عبدوا الشيطان).[3]

وقد أثبت الله جل وعلا هذه الحقيقة في حكمه على المشركين وهم يعبدون غيره سبحانه، وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧].

قال القرطبي: (يريد إبليس، لأنهم إذا أطاعوه فيما سول لهم فقد عبدوه).[4]

(١) تفسير البغوي: (٣/ ٥٦١)، وانظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٩٧٩)، نظم الدرر: (٦/ ١٨٩)، فتح الرحمن: (ص: ٢٧٧).
(٢) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٢٨٣).
(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٤٥٠ - ٤٥١).
(٤) تفسير القرطبي: (٥/ ٢٤٨ - ٢٤٩)، وانظر: نظم الدرر: (٢/ ٣٢٠).

والمفهوم من الآية كما يقول محمد الأمين: (أن من اتبع تشريع الشيطان مؤثرًا له على ما جاءت به الرسل فهو كافر بالله عابد للشيطان، متخذ الشيطان ربًا، وإن سمى اتباعه للشيطان بما شاء من الأسماء، لأن الحقائق لا تتغير بإطلاق الألفاظ عليها كما هو معلوم).[1]

ومن أنواع العبودية السلبية للقلب، والمتفرعة عن عبودية الشيطان، عبودية أهواء النفس ومراداتها، وشهواتها ومحبوباتها، المخالفة لهدي الله سبحانه، فيطلبها القلب، ويتشبث بها، ويسعى في القصد إليها، مقدّمًا إياها على مراد الله ومرضاته.

يقول الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ۖ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤].

وذلك يتحقق حين يكون مراد النفس وما تستحسنه وتميل إليه، هو الإله الذي يأمر فيطاع، وينهى فيستجاب له، من دون أمر الله جل وعلا ونهيه.[2]

(١) أضواء البيان: (١/ ٤١٤)، وانظر تفسير ابن كثير: (١/ ٥٥٦).
(٢) انظر: رياضة النفس: (ص: ٤٧)، إحياء علوم الدين: (٣/ ٦٢)، فتوح الغيب: (ص: ٦٥)، العبودية: (ص: ١٠٤)، قال ابن عطية في تفسير ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[الجاثية: ٢٣] (هذه الآية وإن كانت نزلت في هوى الكفر فهي متناولة جميع هوى النفس الأمارة) تفسير ابن عطية: (٥/ ٨٦).

ومن ثم يقول أبو حامد الغزالي عن مضمون هذه الآية ومثيلاتها: (هو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله).[1]

ولذا ذم رسول الله ﷺ من كان عبدا لشهوة المال، ودعا عليه بالبعد والتعثر والشقاء، فقال عليه الصلاة والسلام: [تعس[2] عبد الدينار والدرهم].[3]

فحين تتجه إرادة القلب ومحبته إلى المال، والحرص على جمعه، والسعي في طلبه، بحيث يبلغ حدًا يمنعه من عبادة الله تعالى، ويصده عن طاعته سبحانه، ويتشاغل به عما يجب عليه من فرائض الشرع، فإنه يصير بذلك عبدًا لشهوة المال والمتاع على اختلاف صوره وتعدد مظاهره.[4]

وهذا معنى قول أبي علي الدقاق[5]: (أنت عبد من أنت في أسره دينارًا كان أو درهمًا أو امرأة أو غير ذلك)[6]

---

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٧).

(٢) تعس: أي عثر وانكبّ على وجهه، ويأتي بمعنى شقي، والمراد الدعاء بالهلاك ونحوه. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة: (٢/ ٢٩٨)، النهاية في غريب الحديث: (١/ ١٩٠)، فتح الباري: (١٢/ ٣٦، ٢٤/ ٣٢).

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال: (٥/ ٢٣٦٤).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ٦١ – ٦٣)، الإيمان: (ص: ٦٩)، فتح الباري: (٢٤/ ٣٢).

(٥) هو الحسن بن علي بن محمد، أبو علي الدقاق، البغدادي الشافعي، صنف: (كتاب الضحايا)، توفي سنة خمس وأربع مائة. انظر: شذرات الذهب: (٣/ ١٨٠)، كشف الظنون: (٢/ ١٤٣٤).

(٦) حدائق الحقائق: (ص: ٨٠).

وقول ابن تيمية: (الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده).[1]

(إن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق لا يبالي إذا كان قلبه مستريحًا من ذلك مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقًا مستعبدًا متيمًا لغير الله، فهذا هو الذل والأسر المحض، والعبودية لما استعبد القلب، وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب).[2]

إن القلب حين يخلص العبودية، فيجعلها لله وحده، فإنه يستغني بذلك عن عبودية ما سواه من الكائنات، ويستشعر حريته الحقيقية، بعيدا عن أسر الشيطان، أو رق الهوى والشهوات.

قال شمس الدين الرازي[3]: (واعلم أن كمال الحرية نتيجة كمال العبودية، فمن صدقت عبوديته خلصت عن رق الكائنات حريته).[4]

---

(١) العبودية: (ص: ٦٠)، وانظر: (ص: ٦٦ – ٦٧).

(٢) العبودية: (ص: ٦٧ – ٦٨).

(٣) هو محمد بن أبي بكر عبد القادر، أبو عبد الله الرازي الحنفي، شمس الدين، وقيل زين الدين، أو تاج الدين، الملقب بالصدر، فقيه لغوي مفسر، من مصنفاته: مختار الصحاح، وأسئلة القرآن وأجوبتها، توفي سنة ستين وست مائة أو نحوها. انظر: كشف الظنون: (١/ ٩٢)، الأعلام: (٦/ ٥٥).

(٤) حدائق الحقائق: (ص: ٨٣)، وانظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٩٣٣).

ويقول الجنيد: (إنك لن تكون على الحقيقة عبدًا، وشيء مما دونه لك مسترقّ، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية، وعليك من حقيقة عبوديته بقية، فإذا كنت له وحده عبدًا كنت مما دونه حرًا).[1]

ويعدّد ابن القيم أقسام الناس بهذا الاعتبار فيقول: (الناس في هذا المقام ثلاثة: عبد محض، وحر محض، ومكاتب قد أدى بعض كتابته وهو يسعى في بقية الأداء.

فالعبد المحض عبد الماء والطين، الذي قد استعبدته نفسه وشهواته، وملكته وقهرته، فانقاد لها انقياد العبد إلى سيده الحاكم عليه.

والحر المحض هو الذي قهر شهوته ونفسه وملكها، فانقادت معه، وذلت له، ودخلت تحت رقّه وحكمه.

والمكاتب من قد عُقد له سبب الحرية، وهو يسعى في كمالها، فهو عبد من وجه حرٌّ من وجه، وبالبقية التي بقيت عليه من الأداء يكون عبدًا ما بقي عليه درهم، فهو عبد ما بقي عليه حظ من حظوظ نفسه.

فالحرّ من تخلص من رق الماء والطين، وفاز بعبودية رب العالمين، فاجتمعت له العبودية والحرية، فعبوديته من كمال حريته، وحريته من كمال عبوديته).[2]

(١) طبقات الصوفية: (ص: ١٥٨).

(٢) مدارج السالكين: (٣/ ٦٠).

المبحث الثاني

أركان(*) عبودية القلب

ما يقوم بالقلب من العبودية لله تعالى يمكن تقسيمه إلى قسمين، أحدهما قول القلب، والآخر عمل القلب، كما أن حركة الأعضاء تدور بين قول اللسان، وعمل الجوارح.

ويُعبّر بقول القلب عن تصديقه المبني على اعتقاد قطعي جازم، فيما يُعبّر بعمل القلب أو فعله عن ثمرات ذلك التصديق من المعاني القلبية التي تصل العبد بالله جل وعلا، كالمحبة والإنابة، والخشية والمراقبة، والرجاء والتوكل، والتعظيم والإخلاص، وغير ذلك من أعمال القلوب.[1]

فإذا أطلقت عبارة (إيمان القلب) كان المراد بها ما يجمع الأمرين، قول القلب وعمله، كما يطلق عليهما اسم (الإيمان) إذا اقترن باسم (الإسلام)، بينما إذا ذكرت حقيقة الإيمان الشرعية بإطلاق فإن المراد حينئذ يشمل بالإضافة إلى تصديق القلب وفعله قول اللسان وعمل الجوارح، وهو قول

(*) الأركان جمع ركن، وركن الشيء جانبه الأقوى الذي يُعتمد عليه وتحصل به القوة. انظر: مقاييس اللغة: (ص ٣٩٨)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٣٨٤).

(١) يطلق بعض أهل العلم لفظ (اعتقاد القلب) أو (المعتقدات والنيات) أو (علم الباطن) أو (أعمال القلب) ويريد بها ما يشمل تصديق القلب وعمله، ومن ثم يضمّن هذا اللفظ معنى التصديق وما يقارنه من أعمال القلب كالمحبة والتوكل، والخوف والرجاء.. انظر: الإيمان: (ص: ١٦٢، ١٦٣)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٠٥ - ٥٠٦، ١٣/ ٢٣٢ - ٢٣٣)، فتح الباري: (١/ ١٠٥).

أكثر أهل السنة.[1]

والعبارة المشهورة لكثير من أئمة السلف (الإيمان قول وعمل)[2] يراد بها ما ذكر آنفًا من قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح.[3]

وبين قول القلب وعمله علاقة وثيقة، إذ القول أصل، والعمل ثمرة تابعة له، ومن ثَمّ فإن الاعتقاد الجازم في القلب يستلزم حركة القلب محبة وتعظيمًا، وخشية وإجلالاً، ولا يتصور أن يصدق عبد بالله ورسوله فيدخل في دائرة الإيمان، دون أن يتحرك قلبه بمحبة الله جل شأنه، ومحبة رسوله ﷺ، ولا يمكن أن يكون إيمان القلب تامًا بمجرد العلم والاعتقاد، دون لازم ذلك من أعمال القلوب.[4]

يقول ابن تيمية: (وهذا التصديق يتبعه عمل القلب، وهو حب الله ورسوله، وتعظيم الله ورسوله، وتعزير الرسول وتوقيره، وخشية الله

(١) انظر: الاعتقاد للبيهقي: (ص:٨٠)، لوامع الأنوار البهية للسفا ريني، ط٢، مؤسسة الخافقين: (١/ ٤٠٣ - ٤٠٥، ٤٢٦)، الإيمان: (ص: ١٠ - ١١، ٢٩٢ - ٢٩٥، ٣١٣ - ٣١٤)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٢)، جامع العلوم والحكم: (١/ ١٠٤ - ١٠٨).

(٢) انظر: صحيح البخاري: (١/ ١١)، اعتقاد أهل السنة لأبي القاسم اللالكائي، طبعة دار طيبة: (٥/ ٨٨٩).

(٣)انظر: الإيمان: (ص: ١٦٣، ١٧٦ - ١٧٧)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٠٥ - ٥٠٦، ٦٧٢، ١٠/ ٢٦٨، ٢٧٢)، شرح الطحاوية: (ص: ٣١٠).

(٤) انظر: الإيمان: (ص: ٣٤٧)، طهارة القلوب لعبد العزيز الديريني، ط٢، دار الفجر: (ص: ٩ - ١٠).

والإنابة إليه، والإخلاص له والتوكل عليه، إلى غير ذلك من الأحوال، فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان، وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد إيجاب العلة المعلول، ويتبع الاعتقاد قول اللسان، ويتبع عمل القلب عمل الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك).[1]

(فمجرد علم القلب بالحق، إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه، مثل محبة القلب له، واتباع القلب له، لم ينفع صاحبه).[2]

وقال ابن رجب: (ويدخل في مسمى الإيمان وجل القلوب من ذكر الله، وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه، وزيادة الإيمان بذلك، وتحقيق التوكل على الله، وخوف الله سرًا وعلانية، والرضا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا..).[3]

ولكلٍّ من قول القلب وعمله أسس وأركان.

أما قول القلب المتمثل في علمه واعتقاده وتصديقه فإن شعبه وأنواعه كثيرة[4] على التفصيل، لكن أركانه وأصوله[5] مقررة في حديث جبريل

(١) مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٢)، وانظر: (١٣/ ٢٣٤).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢٧١)، وانظر: (٢٧٢، ٧٥٨ - ٧٥٩).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ١١٦).

(٤) انظر: ترجمان شعب الإيمان للبلقيني، ط١، مكتبة العلوم والحكم: (ص: ٦٢ - ٦٩).

(٥) انظر: الإيمان لابن مندة ط٢، مؤسسة الرسالة: (١/ ١٢٣ - ١٢٥)، صيانة صحيح مسلم لابن الصَّلاح، ط٢، دار الغرب الإسلامي: (ص: ١٣٤)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٢)، تيسير العزيز الحميد: (ص: ٦٨٩ - ٦٩٠)، العقيدة الإسلامية لعبد الرحمن الميداني، ط٥، دار القلم: (ص: ٧٨ - ٧٩)، العقيدة في الله: (ص: ١٠).

المشهور، والذي يتضمن سؤاله عليه السلام رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقال ﷺ: [أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره].(١)

وهذا الجواب منه عليه الصلاة والسلام يثبت للإيمان ستة أركان، تضمنها القرآن الكريم في أكثر من آية كريمة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وفيما يلي إشارة إلى المراد بكل ركن منها:

١- الإيمان بالله جل وعلا هو التصديق الجازم بأنه تبارك وتعالى إله واحد في ربوبيته وألوهيته، موصوف بصفات الكمال، منزه عن

(١) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الطويل في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان: (١/ ٣٦ - ٣٧).

العيب والنقص سبحانه.

٢- الإيمان بالملائكة هو التصديق الجازم بهم، وأنهم عباد لله مطيعون لأمره، قائمون بوظائفهم التي كلفهم الله جل وعلا بها.

٣- الإيمان بالكتب هو التصديق الجازم بكتبه المنزلة على رسله عليهم السلام، وأنها من كلامه تبارك وتعالى، متضمنة للحق والهدى في شرعه ودينه جل شأنه.

٤- الإيمان بالرسل عليهم السلام هو التصديق الجازم بهم دون تفريق بينهم، وبأنهم صادقون فيما أخبروا به عن ربهم سبحانه، وفيما بلغوا من كتبه ورسالاته.

٥- الإيمان باليوم الآخر هو التصديق الجازم بيوم القيامة وما يشتمل عليه من البعث والحساب والجنة والنار.

٦- الإيمان بالقدر هو التصديق الجازم بأن جميع الكائنات بقضائه وتقديره، وكل خير أو شر يحدث بإرادته وعلمه، ولا يكون شيء إلا بإذنه ومشيئته تبارك وتعالى.

هذه الأصول الستة يجب على العبد الإيمان بها على سبيل الإجمال، ثم على سبيل التفصيل فيما يصل إليه علمه من الكتاب العزيز وصحيح السنة الشريفة.(١)

(١) انظر: شرح الأربعين النووية لابن دقيق: (ص: ٥٠ - ٥١)، الإيمان: (ص: ٢٩٦- ٢٩٧)، جامع العلوم والحكم: (١/ ١٠٢ - ١٠٣)، فتح الباري: (٢/ ١٩٦ - ١٩٨)، الكواشف الجلية: (ص: ٥٣ - ٨٤).

وأما أعمال القلوب فان دعائمها وأركانها تتمثل في ثلاث عبادات قلبية: المحبة، والخوف، والرجاء.

ذلك أن العبادة لله تعالى تعني غاية الحب والذل وكمالهما، والتذلل لله جل وعلا يتضمن خوفه ورجاءه[1]، فإذا قارن ذلك ولازمه محبة لله سبحانه أثمر تحقيقًا للأسس والقواعد الرئيسة التي تحرك القلب في عبوديته لله تبارك وتعالى، إذ هو جل شأنه الإله الذي تألهه القلوب محبة ورجاء وخوفًا.[2]

وعلى هذه الأركان الثلاثة تنبني وتقوم كافة أعمال القلوب الأخرى، كالصبر والرضا، والزهد والشكر، والتوكل والإنابة، والحياء والإخلاص، والتضرع والخشوع، وغيرها، بل هذه الأركان هي مدار السير إلى الله تعالى بجميع مقامات الإيمان والإحسان.[3]

وبزوال هذه الأركان لا يبقى في القلب عبودية لله أصلًا.

يقول ابن تيمية: (ما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه، بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادًا لا يرجى صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه

(١) انظر: تفسير الطبري: (١/ ٦٩)، تفسير ابن كثير: (١/ ٢٥).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (١/ ٩٥ - ١٨/ ٣١٩)، مدارج السالكين: (٣/ ٢٣).
(٣) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٣٩)، التفسير القيم لابن القيم، جمع محمد الندوي، دار العلوم الحديثة: (ص: ٢٥٦).

بحسبه).[1]

ويقول ابن القيم: (القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان، فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد كاسر) ثم قال: (فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه).[2]

وبين هذه الأركان الثلاثة ترابط كبير، وتلازم وثيق، وقد جمع الله تعالى بينها في قوله سبحانه: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧].

والمقصود باسم الإشارة عيسى ابن مريم وأمه وعزير والملائكة عليهم السلام، ونحوهم ممن كان يعبدهم بعض طوائف المشركين بزعم التقرب بهم إلى الله تعالى.

والمعنى أن هؤلاء المعبودين هم أنفسهم يتجهون إلى الله تعالى بالعبادة، يبتغون القرب منه جل وعلا، ويرجون رحمته وثوابه، ويخافون سطوته وعقابه.[3]

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٢١).
(٢) مدارج السالكين: (١/ ٣٩٢).
(٣) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ١٢٠)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٣١٦ - ٣١٧)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٨١)، تفسير النسفي: (٢/ ٢٥٣ - ٢٥٤)، نظم الدرر: (٤/ ٣٩٦ - ٣٩٧).

قال ابن القيم في تفسير الآية الكريمة: (يقول الله تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني هم عبادي، يتقربون إلي بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني، فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم، من الحب والخوف والرجاء).[1]

فالآية الكريمة تضمنت رجاء الرحمة وخوف العذاب، كما تضمنت مقامًا ثالثًا، هو طلب القرب والتوسل إليه سبحانه بالعمل الصالح، إشارة إلى وصف المحبة، فاجتمع بذلك شمل المقامات الثلاثة التي عليها بناء العبودية لله تعالى.[2]

والأصل أن هذه الأركان الثلاثة لا ينفك بعضها عن الآخر، بل كلّ منها يمد الآخر ويقويه، وكلما تمكنت محبة الله تعالى في قلب العبد قوي خوفه واشتد رجاؤه ولابُدّ.

يقول ابن القيم: (وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء، فكل محب راج خائف بالضرورة، فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه، وكذلك خوفه، فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرد محبوبه له، وإبعاده واحتجابه عنه، فخوفه أشد خوف، ورجاؤه ذاتي للمحبة، فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه، فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء لما يحصل له به من حياة روحه ونعيم قلبه).[3]

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠).
(٢) انظر مدارج السالكين: (٢/ ٣٥، ٣/ ٢٠).
(٣) مدارج السالكين: (٢/ ٤٠)، وانظر: (٢/ ٤٧).

هذه الأصول الثلاثة لابد من التوازن بينها مجتمعة في قلب العبد، بحيث (يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء).[1]

ذلك أن المسافر السائر في الطريق يحتاج إلى محبة تقوده وتحركه وتبعث فيه الشوق إلى السير الحثيث، وإلى رجاء يشجعه ويؤمله ويطمعه في المآل الطيب والعاقبة الحسنة للمسير، وإلى خوف يزجره عن التوقف ويمنعه من الخروج عن الطريق.

أما الغلو في أحد هذه الأركان، والإفراط فيه، بحيث يستغرق القلب فيه دون غيره، فإن لذلك أثرًا سلبيًا على العبد، قد ينزلق به إلى نوع من أنواع الضلال والانحراف عن المنهج الشرعي الصحيح.

والى هذا المعنى تتجه عبارة مكحول الدمشقي[2] حين قال: (من عبد الله بالخوف فهو حروري[3]، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ[4]، ومن عبده

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٤٦)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٥/ ٢١)، العقيدة في الله: (ص: ٢٣٣-٢٣٤).
(٢) هو مكحول الدمشقي، أبو عبد الله، من فقهاء التابعين، عالم أهل الشام، كان مولى لهذيل، توفي سنة اثنتي عشرة ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٩٣٠ - ٣٩٣١)، طبقات الحفاظ: (ص: ٤٩).
(٣) الحرورية طائفة من الخوارج الذين تضمن مذهبهم تكفير مرتكب الكبيرة، نسبة إلى حروراء، موضع قريب من الكوفة، انحاز إليه الخوارج واجتمعوا فيه بعد صفين. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٦٦)، تاريخ الفرق الإسلامية لعلي الغرابي، ط٢، (ص: ٢٦٤).
(٤) المرجئة فرقة تتضمن عقائدهم إرجاء العمل عن الإيمان، أي تأخيره، يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فالفاسق عندهم كامل الإيمان مهما فعل من المعاصي أو ترك من الطاعات. انظر: الملل والنحل للشهرستاني، دار المعرفة، (١/ ١٣٩)، شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين، ط٢، مكتبة الإمام البخاري: (ص: ١٦٢ - ١٦٣).

بالمحبة فهو زنديق[1]، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد).[2]

قال ابن رجب: (وسبب هذا أنه يجب على المؤمن أن يعبد الله بهذه الوجوه الثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، ولا بدّ له من جميعها، ومن أخل ببعضها فقد أخل ببعض واجبات الإيمان).[3]

والمقصود أن تغليب المحبة على وجه الغلو والإفراط، مجردة عن الخوف، غير مقرونة بالخشية، يوصل العبد إلى الغرور، والتساهل في أمر الشرع، والتواني عن الواجبات، والخروج عن التكليف أمرًا ونهيًا، ومن ثَمّ يحصل الضرر بدل الانتفاع.

ولذا نقل أبو طالب المكي[4] قول بعض الأئمة: (من عرف الله من طريق المحبة بغير خوف هلك بالبسط والإدلال).[5]

---

(١) الزنديق بكسر الزاي، والاسم الزندقة، قيل هو المبطن لكفره السابق مظهر للإسلام، كالمنافق، وقيل من لا دين له، وقيل من لا يؤمن بالآخرة والربوبية، وقيل غير ذلك. انظر: ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٤٨١)، عمدة القاري: (٢٤/ ٧٩).

(٢) قوت القلوب: (١/ ٤٨٤)، إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٩)، وذكرها ابن تيمية في التحفة العراقية: (ص: ٤٤٥)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢٠٧، ١٥/ ٢١)، وابن رجب في التخويف من النار، ط١، دار البيان: (١/ ١٧)، وابن أبي العز في شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٧).

(٣) التخويف من النار: (ص: ١٧).

(٤) هو محمد بن علي بن عطية، أبو طالب المكي، من الزهاد الوعاظ المجتهدين في العبادة، سمع الحديث وروى عن غير واحد، من مصنفاته قوت القلوب، توفي سنة ست وثمانين وثلاث مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٥٨٩)، البداية والنهاية: (١١/ ٣٦٥ - ٣٦٦).

(٥) قوت القلوب: (٢/ ١١٦).

(وذلك لأن الحب المجرد ودعواه تتبسط النفوس فيه حتى تتوسع أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله).[1]

وفي المقابل فإن تغليب جانب الخوف على سبيل الإفراط ومجاوزة الحد الشرعي يؤدي بالعبد إلى اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى، وقطع الطمع في مغفرته جل وعلا، ومن ثم ترك الطاعة والتكاسل عنها، و الانهماك في المعصية واعتيادها.[2]

كما يمكن أن يدفع العبد إلى المنهج التكفيري المغالي في التعامل مع أهل الكبائر من المسلمين، فيحكم بكفرهم، كما فعل الخوارج[3]، ويقرر خلودهم في النار، كما قال المعتزلة[4].[5]

وكذلك فإن الإفراط ومجاوزة الحد في جانب الرجاء قد يوقع العبد في

---

(١) التحفة العراقية: (ص: ٤٤٥)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢٠٧، ١٥/ ٢٠ - ٢١).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٩)، تفسير النسفي: (٣/ ٢١١)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٥٧٧)، شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٦).

(٣) الخوارج هم الذين خرجوا على علي ﷺ، من عقائدهم تكفير فاعل الكبيرة وتخليده في النار، وهم فرق كثيرة. انظر: الملل والنحل: (١/ ١١٤ - ١١٥)، تاريخ الفرق الإسلامية: (ص: ٢٦٤)، ومابعدها، شرح لمعة الاعتقاد: (ص: ١٦٢).

(٤) المعتزلة هم أتباع واصل بن عطاء، الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، من عقائدهم أن الفاسق مرتكب الكبيرة مخلد في النار، خارج من الإيمان في منزلة بين منزلتين: الإيمان والكفر. انظر: الملل والنحل: (١/ ٤٣ - ٤٥)، شرح لمعة الاعتقاد: (ص: ١٦٣).

(٥) انظر: قوت القلوب: (١/ ٤٧٨ - ٤٧٩، ٢/ ١١٦).

الاغترار والأمن من مكر الله جل شأنه، والانكفاء عن الالتزام بفرائض الله تعالى وعن العمل بطاعته، وإلى التقصير والتساهل في شأن المعصية والمخالفة.[1]

بل قد يصل بالعبد إلى اعتقاد أن الموحّد لا يدخل النار أبدًا، وأن الذنب لا يضر مع الإيمان مطلقًا، كما قالت المرجئة.[2]

وفي المسألتين التاليتين عرض لهذه الأسس الثلاثة على سبيل الإيجاز:

المسألة الأولى: المحبة.

وهي أوثق الأركان الثلاثة وأقواها، وأجلّها وأعلاها، إذ هي في مقام الأصل لأعمال القلب، والقاعدة لحركاته، والأساس لإراداته، وعنها تنشأ وتصدر كافة أفعال القلوب والجوارح في دائرة العبادة لله جل وعلا.

بل هي الغاية القصوى، والمقصد الأعلى، الذي وجد القلب لتحقيقه وبلوغه.[3]

وإذا تحققت المحبة وتمكنت في القلب تبعها كل من الخوف والرجاء،

(١) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٨)، المسائل في أعمال القلوب والجوارح للمحاسبي: (ص: ٧٠ – ٧١)، تفسير النسفي: (٣/ ٢١١).

(٢) انظر: قوت القلوب: (١/ ٤٧٨ - ٤٧٩).

(٣) انظر: قوت القلوب: (٢/ ٩٩)، إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٨٩)، التحفة العراقية: (ص: ٣٧٣)، مجموع الفتاوى: (١/ ٩٥، ١٣٤ – ١٣٥)، مدارج السالكين: (١/ ٨٤، ٣/ ٢٣)، إغاثة اللهفان: (٨٤٠، ٩٣٠ - ٩٣٣)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٤٢٠).

ولازمها، وعاد إليها، وذلك باعتبار أن المحبة تجذب القلب إلى الله سبحانه، فيتقلب المحب حينئذ بين الخوف والرجاء، الخوف من فوات ما يطلبه من رضا ربه سبحانه وثوابه، والرجاء في تحقق ما يطمع فيه ويأمله من ذلك، فيفّر من محل الخوف ومصدره لينال مرغوبه ومراده.

ومن ثم يقبل العبد على ربه تبارك وتعالى، وينبعث إلى سلوك الصراط المستقيم الموصل إلى محبوبه وهو الله جل شأنه، وعلى قدر تلك المحبة في القلب وضعفها يكون السير في طريق الاستقامة على أمر الله وشرعه ﷻ.[1]

ولذا كانت منزلة المحبة أعلى، ومقامها أرفع من منازل الخوف والرجاء.[2]

ومن المعتبر في ذلك أن المحبة عبادة مرادة لذاتها، ولذلك تستمر وتبقى مع المؤمنين في الجنة، بينما تزول عنهم عبادة الخوف، باعتبارها وسيلة مقصودة لغيرها[3]، كما قال الله جل وعلا: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨].

(١) انظر: التحفة العراقية: (ص: ٣٩٩)، العبودية: (ص: ١٠٣ - ١٠٤).

(٢) انظر: مدارج السالكين: (١/ ٣٩٠).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (١/ ٩٥)، مدارج السالكين: (١/ ٣٩٠).

وقد عرّف بعض الأئمة المحبة بأنها: (ميلك إلى الله بكليتك، وإيثارك له على نفسك وأهلك ومالك، وموافقتك له سرًا وجهرًا، ثم اعترافك بالتقصير في حبه).[1]

ومن الأقوال في تعريف المحبة أيضًا أنها: (موافقة القلب لمراد الرب).[2]

وهو تعريف لها بلازمها ومقتضاها.

ومن ثَمَّ قال ابن القيم: (لا تُحدُّ المحبة بحدّ أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدّها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من (المحبة)، وإنما يتكلم الناس في أسبابها موجباتها، وعلاماتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة..).[3]

هذه المحبة لله ﷻ يحرّك بواعثها العلم بالله تبارك وتعالى، ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله، وما هو أهل له سبحانه من العظمة والجلال.

---

(١) حدائق الحقائق: (ص: ١٤٠)، وانظر: قوت القلوب: (٢/ ١١٧)، مدارج السالكين: (٣/ ١٢ – ١٦)، روضة المحبين: (ص: ٢٧٩)، شرح الطحاوية: (ص: ١١٧ – ١١٨).

(٢) حدائق الحقائق : (ص : ١٤٠) ، وانظر بصائر ذوي التمييز : (٢ / ٤١٦ – ٤١٧)، مدارج السالكين: (٣/ ١٢).

(٣) مدارج السالكين: (٣/ ١٠).

ولذا قال الحسن البصري: (من عرف الله أحبه).[1]

كما يحرّكها في القلب النظر إلى نعمه وآلائه، والتفكر في مظاهر إحسانه تبارك وتعالى.[2]

وقد فرض الله تعالى محبته على عباده، وجعلها مقدمة على جميع المحبوبات، وتوعّد من يقدم محبة غيره على محبته جل وعلا[3]، فقال سبحانه ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وأثنى تبارك وتعالى على عباده المؤمنين بوصف المحبة له فقال سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) الأربعين في أصول الدين لأبي حامد الغزالي، ط١، دار الكتب العلمية: (ص: ١٥٠ – ١٥١)، والقول مروي أيضا عن عتبة بن أبان البصري ، المعروف بعتبة الغلام ، من أتباع التابعين ، بلفظ (من عرف الله أحبه، ومن أحبه أطاعه) انظر: حلية الأولياء: (٦ / ٢٣٦) ، سير أعلام النبلاء: (٢ / ٢٦٤٥).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٩٨ – ٤٠٥)، الأربعين في أصول الدين: (ص: ١٥٢ – ١٥٥)، التحفة العراقية : (ص: ٤٤٩ – ٤٥٢) .

(٣) انظر: تفسير القرطبي: (٨ / ٦٢).

كما وصفهم بشدة المحبة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي المقابل ذم كفار مكة وأشباههم بوصف المحبة للدنيا وتقديمها على محبة الله سبحانه، وذلك على وجه الإنكار عليهم، فقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

كما ذم الله جل وعلا من يجعل مرغوبه ومحبوبه الذي يهواه إلها يطيعه، ويتبعه سائر حياته، ويقدمه على شرع الله تعالى. قال جل شأنه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وأنكر جل شأنه على اليهود الذين عكفوا على عبادة العجل، وتوجهت قلوبهم لمحبته من دون الله تعالى، ولذا وصفهم ﷻ بقوله: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

والمعنى (أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم).[1]

فلما تمكن حب العجل من قلوبهم، ولازمها وخالطها، عبدوه من دون الله تعالى.[2]

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ١٢٦).
(٢) انظر: تفسير البغوي: (١/ ٩٥)، تفسير القرطبي: (٢/ ٢٣)، تفسير النسفي: (١/ ٧١).

وتوجّه الذم والتوبيخ أيضًا للمشركين بالله جل وعلا في عبادة المحبة كما في قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فالآية الكريمة تخبر أن هؤلاء الذين يحبون أوثانهم ومعبوداتهم المدّعاة كحبهم لله تعالى هم في الواقع جعلوها أندادًا ونظراء لله جل شأنه، ومن ثم وقعوا في دائرة الشرك به سبحانه، بالتسوية بينه وبين الأوثان في العبادة.

وفي معنى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ قولان أوردهما المفسرون[1]:

أحدهما: أن المشركين يحبون أصنامهم كما يحب المؤمنون ربهم سبحانه.

والثاني: أن المشركين يحبون آلهتهم المزعومة كما يحبون الله تعالى.

ورجح بعض أهل التفسير القول الثاني باعتبار قول الله تعالى بعد ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ فالمؤمنون أعظم محبة لله تعالى، لأنها محبة خالصة كلها له ﷻ، قائمة على التوحيد له سبحانه، بينما هي ليست كذلك عند المشركين.[2]

المسألة الثانية: الخوف والرجاء.

الخوف عبادة قلبية عظيمة، بل هي من أعلى منازل عبودية القلب

(١) انظر: تفسير البغوي: (١/ ١٣٦)، تفسير القرطبي: (٢/ ١٣٧)، تفسير النسفي: (١/ ١٠٦).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٢٠٢)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٣٥٩)، التحفة العراقية: (ص: ٣٨٩ - ٣٩٠)، مدارج السالكين: (٣/ ١٨ - ١٩).

وأجلها، وأكثرها ثمرة ونفعًا، واشتمال قلب المؤمن عليها علامة على صحة ما فيه من الإيمان، كما أن مفارقته له علامة على خرابه كما قال أبو سليمان الداراني[1].[2]

وقد عُرّف الخوف بأقوال منها:

(عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال).[3]

(توقع مكروه أو فوات محبوب).[4]

(اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف).[5]

والأقوال متقاربة المعنى.

وقد أمر الله تعالى عباده بالخوف، وأوجبه عليهم، وجعله شرطًا في صحة إيمانهم، فقال تعالى:

---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد، وقيل ابن عطية، العَنْسي، أبو سليمان الداراني، من أهل (دَارَيَّا) من قرى دمشق، إمام عابد زاهد، روى عن سفيان الثوري وغيره، توفي سنة خمس عشرة ومائتين. انظر: طبقات الصوفية: (ص:٧٥-٨٢)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٩٠٩ – ١٩١٠).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٤)، مدارج السالكين: (١/ ٣٩١)، عجائب القرآن: (ص:١٣٠-١٣١).

(٣) هو تعريف أبي حامد الغزالي. إحياء علوم الدين: (٤/ ٢٠٥)، الأربعين في أصول الدين: (ص: ٤٠).

(٤) هو تعريف شمس الدين الرازي. حدائق الحقائق: (ص: ٤٠)، وانظر: المفردات: (ص: ١٦٦)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٥٧٦).

(٥) مدارج السالكين: (١/ ٣٨٨)، وانظر تفسير القرطبي: (٧/ ١٤٥).

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وأثنى سبحانه على أهله المتصفين به فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وأمر رسوله ﷺ بإعلانه والجهر به، فقال تعالى:

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٥، وسورة الزمر: ١٣].

وللخوف أسبابه ومحرّكاته في قلب المؤمن، فقد يتذكر العبد ذنوبه فيخاف، وهذه مرتبة عظيمة، تؤهل المؤمن للتوبة والإنابة، وقد يتذكر العبد ربه، ويزداد علمه بأسمائه وصفاته وجلاله، فيهاب ويخاف ويخشى، وتلك مرتبة أعلى وأعظم.

يقول الغزالي: (وقد يكون ذلك الخوف من جريان ذنوب، وقد يكون الخوف من الله تعالى بمعرفة صفاته التي توجب الخوف لا محالة، وهذا

أكمل وأتم، لأن من عرف الله خافه بالضرورة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].[1]

ولا ريب أن الخوف يُحمد حين يكون له أثره في الحيلولة بين العبد وبين معصية الله تعالى، وفي نهزه إلى طاعة الله والالتزام بشرعه، والترقي في مقامات العبودية.

قال أبو سليمان الداراني: (إذا سكن الخوف القلب أحرق الشهوات وطرد الغفلة من القلب).[2]

ويقول ابن القيم: (الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ﷻ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط).[3]

وفي مقابل الخوف الرجاء، وهو بمعنى الأمل والطمع.

قال أبو طالب المكي: (الرجاء اسم لقوة الطمع في الشيء، بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشيء، ولذلك أقام الله تعالى الطمع مقام الرجاء في التسمية[4]، وأقام الحذر مقام الخوف[5]).[6]

(١) الأربعين في أصول الدين: (ص: ١٢٠)، وانظر إحياء علوم الدين: (٤/ ٢٠٩).

(٢) طبقات الصوفية: (ص: ٨١).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٣٩٠).

(٤) وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

(٥) وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

(٦) قوت القلوب: (١/ ٤٣٤).

وقد ورد في تعريف الرجاء أقوال منها:

(النظر إلى سعة رحمة الله).[1]

(تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل).[2]

(قرب القلب من لطف الرب).[3]

(الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه).[4]

والأقوال متقاربة.

ومقام الرجاء عظيم، إذ هو من أجل منازل العبودية وأشرفها وأعلاها، يحدو قلب العبد إلى ربه تبارك وتعالى، ويطيّب له السير في سبل الطاعة والإنابة، ويقوده إلى رضا الرحمن والخضوع لأمره، ويسوقه إلى منازل الآخرة ونعيمها، ويبشره بحلاوة العاقبة، ويذكّره بلذتها ومتاعها، ولولاه لما سار إلى الله أحد.[5]

ولذا كان الرجاء وصفًا ثابتًا من أوصاف أهل الإيمان[6]، أمرهم الله به، ومدحهم و أثنى به عليهم . بقول الله سبحانه:

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٦).

(٢) قاله شمس الدين الرازي في حدائق الحقائق: (ص: ٤٣)، وانظر تفسير القرطبي: (٧/ ١٤٥).

(٣) حدائق الحقائق: (ص: ٤٣).

(٤) مدارج السالكين: (٢/ ٣٥).

(٥) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٤٦ – ٤٧).

(٦) انظر: قوت القلوب: (١/ ٤٣٤).

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٩].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

واخبر سبحانه أن من رجاه ﷻ وقام بلازم ذلك الرجاء فإن الله تعالى سيحقق أمله، وسيوفيه ثوابه كاملاً وافيًا.(١)

قال جل وعلا: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ [العنكبوت: ٥].

وفي المقابل ذم الكافرين فوصفهم بعدم الرجاء في ثواب الله، وعدم الطمع في جنته.(٢)

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٠٤)، تفسير النسفي: (٢/ ٦٧٢).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (١٧/ ٣٨).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧ - ٨].

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾ [النبأ: ٢٧ - ٢٨].

والمؤمن في مراحل سيره في طريق العبودية في أمس الحاجة إلى تتابع رجائه لربه تبارك وتعالى، إذ يرجو غفرانا لمعصية وتجاوزا عن سيئة، أو قبول طاعة وكتب حسنة، أو إقالة عثرة وعفوا عن خطيئة، أو دوام استقامة وحسن خاتمة، أو تنزل رحمة ورفعة منزلة عند الله سبحانه.(١)

وحتى يتحقق اسم الرجاء فلا بد من العمل بأسبابه، والسعي في حصولها، وإلا أصبح الرجاء تمنيًا أو غرورًا.

يقول الغزالي: (الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابد وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظارًا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره، لأنه انتظار من غير سبب) ثم قال: (اسم

(١) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٤١).

الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات).[1]

والعلاقة بين مقامي الرجاء والخوف علاقة تكامل وتلازم وترابط وثيق، ولذلك قد يطلق لفظ الرجاء ويراد به الخوف.[2] كما في قول الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] والمعنى (مالكم لا تخافون لله عظمة).[3]

قال الراغب: (ووجه ذلك أن الرجاء والخوف يتلازمان).[4]

وقال القرطبي: (والرجاء أبدًا معه خوف ولابد، كما أن الخوف معه رجاء).[5]

وقال أبو طالب المكي: (الخوف باطنه الرجاء، والرجاء باطنه الخوف، ولذا يطلق لفظ الرجاء على الخوف).[6]

---

(١) إحياء علوم الدين: (٤/ ١٨٨)، وانظر: الأربعين: (ص: ١٢٢)، المسائل في أعمال القلوب: (ص: ٧٠).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٥)، تفسير القرطبي: (٣/ ٣٥، ٨/ ١٩٩).

(٣) تفسير الطبري: (٢٩/ ٩٥)، وانظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٤٨٧)، حدائق الحقائق: (ص: ٤٣)، شجرة المعارف: (ص: ٧٢).

(٤) المفردات: (ص: ١٩٤).

(٥) تفسير القرطبي: (٣/ ٣٤).

(٦) قوت القلوب: (١/ ٤٣٦)، وانظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٦).

وقال أيضًا: (من لم يعرف الخوف لم يعرف الرجاء، ومن لم يقم في مقام الخوف لم يرفع إلى مقامات أهل الرجاء على صحة وصفاء) ثم قال: (ومن علامة صحة الرجاء في العبد كون الخوف باطنًا في رجائه، لأنه لما تحقق برجاء شيء خاف فوته لعظم المرجو في قلبه وشدة اغتباطه به، فهو لا ينفك في حال رجائه من خوف فوت الرجاء).[1]

وقال شمس الدين الرازي: (واعلم أن الرجاء لا يتحقق إلا مع الخوف، كما أن الخوف لا يتحقق إلا مع الرجاء، فهما متلازمان، لأن الرجاء بلا خوف أمن في الحقيقة، والخوف بلا رجاء قنوط في الحقيقة ويأس من رحمة الله تعالى).[2]

ويقول أبو حامد الغزالي: (كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف، لأنهما متلازمان، فإن كل من رجا محبوبًا فلابد وأن يخاف فوته، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذًا لا يحبه، فلا يكون بانتظاره راجيًا، فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه).[3]

---

(١) قوت القلوب: (١/ ٤٣٥)، وانظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٦).

(٢) حدائق الحقائق: (ص: ٤٣)، وانظر: المسائل في أعمال القلوب: (ص: ٧١)، مدارج السالكين: (٢/ ٤٧).

(٣) إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٤).

ولذا شبّه عدد من الأئمة هذين المقامين للمؤمن بالجناحين للطائر، لابُدّ لسلامة طيرانه من سلامتهما معًا.[1]

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تجمع وتقرن بين الرجاء والخوف، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والثواب والعقاب، والجنة والنار.

يقول الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠].

فدلت الآيتان الكريمتان على مقامي الرجاء والخوف.[2]

يقول القرطبي: (هذه الآية وزان قوله ﷺ: [لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد][3]).[4]

وقد أثنى القرآن على المؤمنين بالوصفين معًا في أكثر من آية كريمة.

يقول الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

---

(١) انظر: قوت القلوب: (١/ ٤٣٤، ٤٣٦)، إحياء علوم الدين: (٤/ ١٨٧)، مدارج السالكين: (٢/ ٣٦).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٥٣).

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه: (٣/ ٢١٠٩).

(٤) تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٣).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المعاصي، وبالرجاء يكثر من الطاعات).[1]

ويقول سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

قال النسفي: (دلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته لا عمله، ويحذر عقابه لتقصيره في عمله).[2]

كما قرن القرآن بين هاتين العبادتين الجليلتين في الأمر بهما والدعوة إليهما وذلك في قول الله جل وعلا: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال القرطبي: (أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتخوف وتأميل لله ﷻ، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر، يحملانه في

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٧).

(٢) تفسير النسفي: (٣/ ٢١١)، وانظر تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٧).

طريق استقامته، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان).[1]

هذا الاقتران بين المقامين في الآيات الكريمات يدل على أن الأصل في الخوف والرجاء أن يعتدلا في قلب العبد، بحيث يتنقل بينهما بصورة متساوية، لا يترجح أحدهما على الآخر، مثله في ذلك مثل الطائر في حاجته إلى استواء جناحيه ليصح ويتم طيرانه، فإذا وقع النقص في أحدهما حدث الخلل، وإذا انتفيا بالكلية صار الطائر إلى حتفه وموته.[2]

وهذا القول منقول عن بعض السلف أن (أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه).[3]

وهو المراد من قول مطرف بن عبد الله[4] (لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا).[5]

---

(١) تفسير القرطبي: (٧/ ١٤٥)، وانظر تفسير الطبري: (٨/ ٢٠٧).

(٢) انظر: حدائق الحقائق: (ص: ٤٣)، مدارج السالكين: (٢/ ٣٦)، الآداب الشرعية: (٢/ ٣٢).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٣٩٢)، وانظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٨)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢١٠).

(٤) هو مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، أبو عبد الله العامري البصري، إمام قدوة حجة. توفي سنة ست وثمانين، وقيل غير ذلك. انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٢٢٢ – ٢٢٦)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣٨٦٢ – ٣٨٦٥).

(٥) قوت القلوب: (١/ ٤٣٦)، ورواه أحمد في الزهد: (ص: ٢٩٢) بلفظ: (لو وزن رجاء المؤمن وخوفه ما رجح أحدهما صاحبه)، وانظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٧)، كشف الخفاء: (٢/ ٢١٦).

قال ابن تيمية معلقًا على قول مطرف: (وهو كلام صحيح).[1]

يقول سهل بن عبد الله:[2] (الرجاء والخوف زمانان على الإنسان، فإذا استويا استقامت أحواله، وإذا رجح أحدهما بطل الآخر).[3]

وفي المسألة قول ثان يجعل اعتدال الخوف والرجاء إنما هو في حق التقي المستقيم على طاعة الله تعالى، أما من غلب عليه العصيان فالأفضل في حقه تغليب جانب الخوف حتى يعود إلى طاعة الله سبحانه.

يقول أبو حامد الغزالي: (لا ينبغي أن يفرط ـ أي الخوف ـ بحيث يورث القنوط، فذلك مذموم، بل إذا غلب ينبغي أن يمزج الرجاء به، نعم ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء مادام العبد مقارفًا للذنوب، فأما المطيع المتجرد لله تعالى فينبغي أن يعتدل خوفه ورجاؤه).[4]

ويرى بعض العلماء التفريق في ذلك بين حال الصحة وحال المرض، فالأفضل في حال الصحة والأمل في الحياة تقوية جانب الخوف وترجيحه.[5]

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٨/ ٣٧٩)، وانظر: كشف الخفاء: (٢/ ٢١٦).

(٢) هو سهل بن عبد الله بن يونس، أبو محمد التستري، واعظ زاهد، توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين. انظر: طبقات الصوفية: (ص: ٢٠٦ – ٢١١)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٩٤٩ – ١٩٥٠).

(٣) تفسير القرطبي: (١٠/ ١٨١).

(٤) الأربعين في أصول الدين: (ص: ١٢٢)، وهو قول الرازي. انظر: عجائب القرآن: (ص: ١٤٣).

(٥) انظر: قوت القلوب: (١/ ٤٤٢)، مدارج السالكين: (١/ ٣٩٢)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢١٠).

وهو قول الغزالي[١] والقرطبي[٢] وغيرهما، واستدل له ابن كثير[٣] بتقديم الخوف على الرجاء في قول الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

ونقل ابن القيم عن أبي سليمان الداراني قوله: (ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد).[٤]

أما في حال المرض واقتراب الأجل فإن الأولى حينئذ تغليب جانب الرجاء باعتباره داعيًا إلى محبة الله تعالى ولقائه، باعثًا إلى حسن الظن به جل وعلا.[٥]

يقول الفضيل بن عياض: (الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحًا، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف).[٦]

ويقول أبو حامد الغزالي: (والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٩ – ٢٢٠).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٣، ٧/ ١٤٥).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٧).

(٤) مدارج السالكين: (١/ ٣٩٢)، وانظر: طبقات الصوفية: (ص: ٧٦).

(٥) انظر: قوت القلوب: (١/ ٤٤٢)، إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٩)، الأربعين في أصول الدين: (ص: ١٢٢)، تفسير القرطبي: (٧/ ١٤٥، ١٠/ ٢٣)، مدارج السالكين: (١/ ٣٩٢)، الآداب الشرعية: (٢/ ٣٢).

(٦) حلية الأولياء: (٨/ ٨٩)، وانظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٣٠٤٥).

لأنه أجلب للمحبة، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات، وأقمع لمحبة الدنيا في القلب).[١]

وقال ابن كثير: (فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه).[٢]

عن جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ قال: سمعت رسول ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: [لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ﷻ].[٣]

قال النووي: (قال العلماء: هذا تحذير من القنوط، وحث على الرجاء عند الخاتمة)[٤] و(معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا، ويكونان سواء، وقيل: يكون الخوف أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محضه، لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح، والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال، فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له).[٥]

---

(١) إحياء علوم الدين: (٤/ ٢٢٠)، وانظر: شرح الصدور للسيوطي: (ص: ٣٣ – ٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٧)، وانظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٧).

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت: (٣/ ٢٢٠٥).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢٠٩).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢١٠).

ولأبي حامد الغزالي كلام جيد يمكن اعتباره فصلًا في هذه المسألة، حيث يقول: (والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل) ثم قال: (وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل، فنقول أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي، فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه، وخفيه وجليه، فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه).[1]

(١) إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٧).

المبحث الثالث

منازل الناس في عبودية القلب

تتفاوت منازل الناس في عبودية القلب قربًا أو بعدًا عن الله تبارك وتعالى، وهم في ذلك درجات ومراتب بحسب ما تشتمل عليه قلوبهم من الحسنات والسيئات.

وكما يتفاضل المؤمنون في الأعمال البدنية الظاهرة، فإنهم كذلك يتفاضلون في الأعمال القلبية الباطنة، ويرتقي بعضهم إلى منزلة أعلى من منزلة غيره في السير إلى الله ﷻ حسب ما قام بقلبه من عبودية الله جل شأنه.

ذلك أن ما يقوم بالقلوب من الأعمال الصالحة ليس متساويًا ولا متفقًا، بل هو متفاوت ومتفاضل، على سبيل الإجمال في مجموع العبادات القلبية، وعلى سبيل التفصيل في أفراد العبادات، أو في الأحوال والأزمنة، فقد يجتمع من العبادات القلبية لدى بعض المؤمنين ما لا يجتمع لدى آخرين، ثم في نوع من تلك العبادات قد يفوق فيها بعضهم ويتميز عمّن سواه، بل قد تتفاضل تلك العبودية في القلب لدى المؤمن الواحد في الأزمان والأحوال المختلفة، فقد يكون قلب العبد في زمن أو حال أعظم محبة ورجاءً، أو خشية وتقوى، أو صبرًا وتوكلًا، منه في حال أو زمن آخر.

يقول ابن تيمية: (ثم أحوال القلوب وأعمالها، مثل محبة الله ورسوله،

وخشية الله، والتوكل عليه، والصبر على حكمه، والشكر، والإنابة إليه، وإخلاص العمل له، مما يتفاضل الناس فيها تفاضلًا لا يعرف قدره إلا الله ﷻ، ومن أنكر تفاضلهم في هذا فهو إما جاهل لم يتصوره وإما معاند).[1]

هذا التفاضل في عبودية القلب تؤيده وتشهد له نصوص الكتاب والسنة، كما يجده المؤمن ويشعر به ويتصوره في حال نفسه، وقوتها وضعفها، وإقبالها وفترتها في مجال الطاعة والعبادة.

يقول ابن تيمية: (وكل أحد يعلم أن ما في القلب من الأمور يتفاضل، حتى إن الإنسان يجد نفسه أحيانًا أعظم حبًا لله ورسوله، وخشية لله ورجاء رحمته، وتوكلاً عليه وإخلاصًا، منه في بعض الأوقات).[2]

وبهذا التفاوت في عبودية القلب تتفاضل طاعات البدن وعبادات الجوارح، وبنمائها تزيد وتنمو، وبصلاحها تصلح وتربو، إذ (الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب).[3]

وفيما يلي جملة من النصوص التي تدل على هذا التفاضل في عبودية القلب بين المؤمنين، وذلك ضمن المسائل التالية:

---

(١) الإيمان: (ص: ٣٩١).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٨/ ٢٧٨).

(٣) شرح الطحاوية: (ص: ٣١١)، وانظر مجموع الفتاوى: (١١/ ٦٦٠، ١٧/ ٦٨، ٢٥/ ٢٨٢)، الوابل الصيب: (ص: ٤١).

المسألة الأولى:

يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

تشتمل الآية الكريمة على منازل المؤمنين[1] ومراتبهم باعتبار موقفهم من الحسنات والسيئات فعلًا وتركًا، فهم بين ظالم ومقتصد وسابق بالخيرات.

وللمفسرين في المراد أقوال أقربها أن من التزم الواجبات، وترك المحرمات، مقتصرًا على ذلك، فقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات، فذلك هو المقتصد، ومن بالغ في الاجتهاد أداء للفرائض واجتنابا للمعاصي، مضيفًا إلى ذلك التقرب إلى الله تعالى بالنوافل والمندوبات وترك المكروهات، فذلك هو السابق بالخيرات، ومن قصّر في الواجبات، وارتكب الذنوب والآثام، فذلك هو الظالم لنفسه.[2]

قال القرطبي بعد إيراده عددًا من الأقوال في المسألة: (وبالجملة فهما

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ١٣٦)، تفسير البغوي: (٣/ ٥٧١ - ٥٧٢)، تفسير الفخر الرازي: (٢٦/ ٢٤)، التسهيل: (٣/ ١٥٨).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٣/ ٥٥٤ - ٥٥٥)، مجموع الفتاوى: (١١/ ١٨٣)، أضواء البيان: (٦/ ١٦٤-١٦٥).

طرفان وواسطة، فالمقتصد اللازم للقصد، وهو ترك الميل، فلذلك كان المقتصد منزلة بين المنزلتين، فهو فوق الظالم لنفسه، ودون السابق للخيرات).[1]

وهذا التفاضل بين هذه الأصناف يشمل أعمال الجوارح من العبادات الظاهرة، كما يشمل أعمال القلوب من العبادات الباطنة، إذ يتفاوت المؤمنون فيهما بين ظالم لنفسه ومقتصد وسابق.[2]

وقريب من هذا المعنى ما تضمنه قول الله تعالى في الحديث القدسي: [من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه..].[3]

ففي الحديث الشريف إشارة إلى أن أولياء الله تعالى في سيرهم إلى ربهم جل وعلا بمنازل عبوديته على درجتين:

الأولى: المتقربون إلى الله سبحانه بأداء الفرائض فعلًا وتركًا.

الثانية: المتقربون إلى الله سبحانه بما هو زائد على ذلك، مضاف إليه، من نوافل الطاعات، ومستحبات العبادات، والكف عن المكروهات.[1]

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار: (ص: ٤٥).

(٢) انظر: الإيمان: (ص: ٣٥١)، التحفة العراقية: (ص: ٢٩٠)، مجموع الفتاوى: (٢/ ٣٩٤، ١٨/ ١٨٥)، شرح الطحاوية: (ص: ٣٢٧).

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب الرقاق، باب التواضع: (٥/ ٢٣٨٥).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى: (١١/ ٢٣، ١٧٩ - ١٨٠)، جامع العلوم والحكم: (٢/ ٣٣٥ - ٣٣٧).

وذلك التفاضل بين الدرجتين يشمل أفعال القلوب والجوارح.[1]

يقول ابن أبي العز في معرض كلامه عن أولياء الله المتقين: (وهم قسمان: مقتصدون ومقربون، فالمقتصدون الذين يتقربون إلى الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح، والسابقون الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد الفرائض).[2]

وقد يتقلب العبد بين هذه المراتب والأصناف بحسب العبادات وتنوعها، فيكون مرة مقتصدًا، وأخرى سابقًا، وفي الثالثة ظالمًا، فقد يقتصر في عبادة على الواجب فيكون مقتصدًا، وقد ينقص عن الواجب في أخرى فيكون ظالمًا، وقد يسابق في عبادة ثالثة فيأتي بالمستحبات والمكملات البدنية والقلبية فيكون فيها من السابقين.[3]

المسألة الثانية:

يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

تقرر الآية الكريمة أن من أخص أوصاف المؤمنين عظم محبتهم لله جل وعلا يوحدونه بها ولا يشركون فيها أحدًا سواه سبحانه.

---

(١) انظر: فتح الباري: (٢٤/ ١٤٣)، الإيمان: (ص: ٢٧).

(٢) شرح الطحاوية: (ص: ٣٤٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (١٩/ ٢٩٠).

فمحبة المؤمنين لربهم جل شأنه أكمل وأتم من محبة المشركين لأوثانهم، أو محبتهم لله تعالى، لأنها محبة قائمة على التسوية بين الخالق والمخلوق، فقاعدتها الشرك بالله تعالى، بينما المؤمنون ينشئون محبتهم على التوحيد، فهي محبة خالصة لله ﷻ.

ويرى أبو طالب المكي في لفظ: ﴿أَشَدُّ﴾ في الآية إشارة إلى تفاضل المؤمنين أيضًا في تحقيق هذا الوصف (لأن الله تعالى وصف المؤمنين بشدة الحب له فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا﴾ وفي قوله: ﴿أَشَدُّ﴾ دليل على تفاوتهم في المحبة، لأن المعنى أشد فأشد، ولم يقل شديدو الحب لله، فأشبه هذا الخطاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فدل على تفاوتهم في الإكرام على قدر تفاضلهم في التقوى).[1]

والمؤمن الصادق يعمل على الترقي في مقام المحبة لله تبارك وتعالى، والتدرج في مراتبها ومنازلها، ليصل إلى كمالها وتمامها، بحيث تستولي على القلب، وتحكم على الأعضاء والجوارح[2]، وحينئذ يتحقق الإيمان، ويجد العبد حلاوته، كما في حديث أنس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: [ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان. أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما[3]..].[4]

(١) قوت القلوب: (٢/ ٩٩)، وانظر مجموع الفتاوى: (١٧/ ٦٠).
(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٤/ ٢٣٣)، التسهيل: (١/ ٦٧).
(٣) قال ابن حجر: (إنما قال (مما سواهما) ولم يقل ممن ليعم من يعقل ومن لا يعقل)، فتح الباري: (١/ ١١٨-١١٩).
(٤) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان: (١/ ١٤)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان: (١/ ٦٦).

ولفظ (أحب) في الحديث يفيد أن الحب معنى يقبل التفاوت والتبعض، والكمال والنقصان، ولذا كان أهل العبودية متفاضلون فيه على درجات ومراتب.

يقول أبو طالب المكي بعد إيراده هذا الحديث وغيره: (دل على فرض الحب لله، وإن تفاضل المؤمنون في نهايات فضائله) ثم قال: (والمحبون لله على مراتب من المحبة، بعضها أعلى من بعض..).[1]

المسألة الثالثة:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

تبين الآية الكريمة أن التقوى هي ميزان التفاضل بين الناس، فمن حازها كان أرفع منزلة، وأعظم قدرًا، وكلما تمكنت التقوى من القلب، الذي هو منطلقها ومركزها، ثم ترجمتها الجوارح استقامة وامتثالًا، واجتهد العبد في تحقيق ذلك، كانت العاقبة لصاحبها نيلًا لمرتبة أعظم وأجل، وحصولاً على مقام أعلى وأكرم عند ربه تبارك وتعالى.[2]

وقد استدل أبو طالب المكي بلفظ: ﴿أَتْقَاكُمْ﴾ على حصول التفاوت في التقوى بين العباد، لأن الآية عبرت باسم التفضيل ﴿أَتْقَاكُمْ﴾، ولم

(١) قوت القلوب: (٢/ ١٠٠).
(٢) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٢١٧)، تفسير القاسمي: (١٥/ ١٣٧)، مجموع الفتاوى: (١١/ ١٧٥).

تقل: إن الكرام المتقون، وعلى قدر التفاضل في التقوى يكون التفاوت في الإكرام.[1]

هذا المعنى ورد أيضًا ضمن حديث أبي هريرة ﷺ (قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: [أتقاهم]).[2]

ولما كان أصل التقوى وجذرها في القلب[3] أضيفت إليه في الحديث القدسي [يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا].[4]

ولفظ (أتقى) و(أفجر) يدلان على تفاوت ما في قلوب الناس من التقوى أو الفجور، وأن المؤمنين في تقوى القلوب منازل ومراتب بعضها أعلى وأكمل من بعض، كما أن الكافرين في فجور القلوب درجات ودركات بعضها أشد من بعض.

---

(١) انظر: قوت القلوب: (٢/ ٩٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء عليهم السلام، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾: (٣/ ١٢٢٤)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل يوسف عليه السلام: (٢/ ١٨٤٦).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم: (٢/ ٤٧).

(٤) رواه مسلم من حديث أبي ذر ﷺ في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم: (٣/ ١٩٩٥).

ولا ريب أن رسول الله ﷺ أكمل المؤمنين في تحقيق التقوى، ولذلك كان أكرم العباد منزلة ومقامًا عند الله جل شأنه.

عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول ﷺ: [ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية].[1]

وفي رواية للبخاري[2] [إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا].[3]

ومن حديث عائشة ﵂ أيضًا، أن رسول الله ﷺ قال: [والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي].[4]

ومن حديث أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: [أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له].[5]

ومن حديث عمر بن أبي سلمة[6]، أن رسول الله ﷺ قال: [أما والله إني

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب: (٥/ ٢٢٦٣)، ومسلم بنحوه في كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته: (٢/ ١٨٢٩).

(٢) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو عبد الله البخاري، إمام أهل الحديث في عصره، رحل في طلب الحديث، وسمع من نحو ألف شيخ، من أشهر مصنفاته الجامع المسند الصحيح المعروف بصحيح البخاري، توفي سنة ست وخمسين ومائتين. انظر: البداية: (١١/ ٣٠ - ٣٣)، الأعلام: (٦/ ٣٤).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: [أنا أعلمكم بالله].. (١/ ١٦).

(٤) رواه مسلم في كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب: (١/ ٧٨١).

(٥) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح: (٥/ ١٩٤٩).

(٦) هو عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسود، أبو حفص القرشي المخزومي، ربيب النبي ﷺ، أمه أم المؤمنين أم سلمة ﵂، ولد بالحبشة، روى عن النبي ﷺ أحاديث، استعمله علي ﷺ على فارس والبحرين، توفي سنة ثلاث وثمانين. انظر: الاستيعاب: (٣/ ١١٥٩ - ١١٦٠)، الإصابة: (٤/ ٤٨٧).

لأتقاكم لله وأخشاكم له].[1]

ففي هذه الألفاظ دليل على أن عبودية القلب من الإيمان بالله والعلم به وخشيته وتقواه درجات ومراتب، وأنها قابلة للتفاوت والتبعيض، والزيادة والنقصان، وأن التفاضل في ذلك حاصل بين المؤمنين، وان رسول الله ﷺ حائز على أعلى المنازل في تلك المعاني والصفات.[2]

فقد بلغ عليه الصلاة والسلام درجة الكمال الإنساني، إذ جمع بين القوة العلمية، بالمعرفة بالله والعلم بصفاته وأحكامه، والقوة العملية، في الخشية والتقوى، فهو أشد الناس خشية وتقوى، وأكثرهم علمًا، وأكملهم إيمانًا.[3]

المسألة الرابعة:

عن عبد الله بن هشام ﷺ[4] قال: [كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: [لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك] فقال له عمر: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال

(١) رواه مسلم في كتاب الصيام، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته: (١/ ٧٧٩).

(٢) انظر: فتح الباري: (١/ ١٣٢).

(٣) انظر: فتح الباري: (١/ ١٣٤، ٢٢/ ٣١٣).

(٤) هو عبد الله بن هشام، القرشي التيمي، له ولأبيه صحبة، سكن المدينة، أدرك النبي ﷺ وهو صغير، عاش إلى خلافة معاوية ﷺ. انظر: الاستيعاب: (٣/ ١٠٠٠)، الإصابة: (٤/ ٢١٧ – ٢١٨).

النبي ﷺ: [الآن يا عمر].[1]

في هذا الحديث الشريف إشارة إلى أن ما في القلب من المحبة الشرعية يتفاوت ويتفاضل[2]، إذ لا يكفي أن يكون قدر محبة العبد لرسول الله ﷺ بمقدار محبته لنفسه، بل ينبغي أن تعظم وترتفع المحبة القلبية لرسول الله ﷺ لتكون أعلى من محبة النفس، وبذلك يقدم المؤمن ما جاء به عليه الصلاة والسلام على أهواء نفسه ومحبوباتها.

يقول ابن حجر: (جواب عمر أولاً كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه، لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيار، ولذلك حصل الجواب بقوله: [الآن يا عمر] أي الآن عرفت فنطقت بما يجب).[3]

ويرد في هذا المعنى حديث أنس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: [لا يؤمن[4] أحدكم حتى أكون أحب[5] إليه من والده وولده والناس أجمعين].[6]

(١) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ: (٦/ ٢٤٤٥ – ٢٤٤٦).

(٢) انظر: عمدة القاري: (١/ ١٤٤).

(٣) فتح الباري: (٢٥/ ١٤ – ١٥)، وبذلك يكتمل الإيمان، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام (الآن) (يعني كمل إيمانك) عمدة القاري: (٢٣/ ١٦٩)، وانظر: المواهب اللدنية: (٢/ ٦١٧ – ٦١٨).

(٤) المقصود الإيمان الكامل. انظر: فتح الباري: (١/ ١١٤).

(٥) قال ابن حجر: (المراد بالمحبة هنا حب الاختيار لا حب الطبع) فتح الباري: (١/ ١١٥).

(٦) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان: (١/ ١٤)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ.. (١/ ٦٧).

فلفظ (أحب) في الحديث، وهو اسم تفضيل، يدل على حصول التفاوت في المحبة القلبية، ولذلك كان من كمال الإيمان أن تكون محبة المؤمن لرسول ﷺ زائدة في القدر على محبته للناس جميعًا، بما فيهم الأقربون كالأب والأبناء.

والمؤمنون في تحقيق هذا المستوى الإيماني متفاضلون في الواقع بحسب ما يحصل لهم من التفكر أو الغفلة عن منزلة رسول الله ﷺ، وما حصل بسبه من النفع العظيم في الانتقال من ظلمة الكفر إلى نور الهداية.

(وكل من آمن بالنبي ﷺ إيمانًا صحيحًا لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنهم متفاوتون، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى، كمن كان مستغرقًا في الشهوات، محجوبًا في الغفلات، في أكثر الأوقات).[1]

المسألة الخامسة:

عن حذيفة ﷺ قال: (حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر: (أن الأمانة نزلت في جذر[2] قلوب الرجال، ثم علموا من

(١) فتح الباري: (١/ ١١٦).

(٢) أي في أصل القلوب، والجذر، بفتح الجيم وكسرها: أصل الشيء. انظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (٤/ ١١٨)، النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٥٠)، والمعنى أن الأمانة نزلت في قلوبهم بحسب الفطرة التي فطرهم الله عليها ثم حصلت لهم وتقوّت وتأكّدت بما علموه من القرآن والسنة. انظر: عمدة القاري: (٢٣/ ٨٤).

القرآن، ثم علموا من السنة).

وحدثنا عن رفعها قال: (ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت[1]، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل[2]، كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا[3] وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده[4]، وما في قلبه مثقال حبة خردل[5] من إيمان).[6]

(١) بفتح الواو وسكون الكاف جمع وكتة، وهي الأثر اليسير في الشيء كالنقطة من غير لونه. انظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (٤/ ١١٨)، النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٢١٨)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٦٨).

(٢) بفتح الميم وسكون الجيم، وهو ما يحصل في اليد من التنفط عقب العمل بها في أشياء صلبة أو خشنة، إذ يظهر ما يشبه البثور فيها ماء قليل. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٣٠٠)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٦٩)، فتح الباري: (٢٤/ ١٢٨ .

(٣) نفط: بفتح النون وكسر الفاء، أي صار منتفطًا، وهو بمعنى المنتبر، يقال: انتبر الجرح وانتفط إذا ورم وامتلأ ماء، والمنتبر في الأصل المرتفع. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٧)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٦)، فتح الباري، ط دار الفكر: (١٣/ ٣٩).

(٤) أي ما أقواه، من الجلد بفتح اللام: وهو القوة والصبر. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٨٤).

(٥) نوع من الحبوب. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٣٢٥)، هدي الساري مقدمة فتح الباري: (١/ ١٠٢)، وقيل إنه الحبة السوداء. انظر تحفة الأحوذي: (٥/ ٤٠٧).

(٦) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة: (٥/ ٢٣٨٢ - ٢٣٨٣)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان عن بعض القلوب: (١/ ١٢٦ - ١٢٧).

يفيد هذا الحديث الشريف أن الأمانة أساسها ومصدرها في القلب، وبحسب قوتها أو ضعفها فيه تتحرك الجوارح، وتتصرف الأعضاء.

والمراد بالأمانة جملة التكليف الذي شرعه الله جل وعلا لعباده أمرًا ونهيًا[1]، وهي شاملة لأمانة التعامل بين الناس بيعًا وشراءً ونحوهما - ولا ريب - كما يدل عليه آخر الحديث، إلا أنها غير مقتصرة عليه.

ومن ثم فالأمانة ثمرة للإيمان، لازمة له.[2]

كما يدل الحديث على أن تلك الأمانة القلبية مما يتفاوت فيه الناس، ويتفاضل فيه المؤمنون، بحسب ما يحصل في قلوبهم منها كمالاً ونقصانًا، وأن من الناس من تذهب الأمانة من قلبه، وتضعف شيئًا فشيئًا بحسب ما يعتريه من الخلل في دينه، بحيث تتناقص فلا يبقى منها في القلب إلا الأثر الموصوف في الحديث، وهكذا حتى تزول وترتفع.[3]

قال ابن حجر: (وحاصل الخبر أنه أنذر برفع الأمانة، وأن الموصوف بالأمانة يسلبها حتى يصير خائنًا بعد أن كان أمينًا).[4]

المسألة السادسة:

عن عمار بن ياسر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها،

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٦٨).
(٢) انظر: الإيمان لابن منده: (١/ ٤٦٥)، فتح الباري: (٢٤/ ١٢٨).
(٣) انظر: فتح الباري، ط دار الفكر: (١٣/ ٤٠)، عمدة القاري: (٢٣/ ٨٤).
(٤) فتح الباري، ط دار الفكر: (١٣/ ٤٠).

خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها].[1]

يشير هذا الحديث إلى أن عمل القلب في الصلاة من الخشوع والحضور، والتدبر والتفهم، يختلف ويتفاوت، ويتفاضل فيه المصلون، ويتأسس على ذلك تفاوت أجر الصلاة وثوابها و كمالها، فكلما كان حضور القلب وخشوعه لله سبحانه أعظم، كان قدر ما يناله العبد من ثواب الصلاة أكثر وأكبر.[2]

وهكذا سائر الطاعات تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من معاني العبودية.

يقول ابن القيم بعد ذكره للحديث: (وينبغي أن يعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرى، فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل ما في القلوب من الإيمان، والإخلاص، والمحبة، وتوابعها).[3]

وفي هذا الباب يرد صبر القلوب عند نزول المصائب.

عن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: [الصبر عند الصدمة[4] الأولى].[5]

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة: (١/ ٥٠٣)، وأحمد في المسند: (٤/ ٣٢١)، وصححه الحافظ العراقي في المغني: الإحياء: (١/ ٢٤٠)، والسيوطي في الجامع الصغير، فيض القدير: (٢/ ٣٣٤)، وحسنه الصبابطي: عون المعبود: (٢/ ١٦٩) (الهامش)، وانظر: الترغيب والترهيب: (١/ ٣٤١).
(٢) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٩)، فيض القدير: (٢/ ٣٣٣ - ٣٣٤).
(٣) الوابل الصيب: (ص: ٤١).
(٤) الصّدم: ضرب الشيء الصلب بمثله، ثم استعير لشدة أثر المصيبة الواردة على القلب. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ١٩)، فتح الباري: (٦/ ١٨١).
(٥) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب الصبر عند الصدمة الأولى: (١/ ٤٣٨)، ومسلم في كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى: (١/ ٦٣٧).

ففي هذا الحديث الشريف إشارة إلى أن الصبر على المصائب يتفاوت في القلوب، وأن المؤمنين فيه يتفاضلون، فأعلاهم منزلة من يحصل منه الصبر لأول وهلة إثر وقوع المصيبة، وزمن قوتها وشدتها، فيثبت به القلب في مواجهة معاني الجزع والهلع.

قال ابن حجر: (والمعنى: إذا وقع الثبات أول شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع، فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر).[1]

وقال النووي: (معناه الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر الجزيل، لكثرة المشقة فيه).[2]

المسألة السابعة:

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢].

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤].

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر: ٣١].

---

(١) فتح الباري: (٦/ ١٨١)، وانظر عمدة القاري: (٨/ ٦٨).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/ ٢٢٧)، وانظر فيض القدير: (٤/ ٢٣٤).

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤].

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

هذه الآيات الكريمات وما يماثلها في القرآن الكريم تدل صراحة على أن ما في القلب من الإيمان يتفاوت ويتفاضل، ويزيد وينقص، ويقوى ويضعف، بحسب أحوال المؤمنين.[1]

وهو قول جماهير أهل العلم من السلف والخلف.[2]

قال ابن كثير في تفسيره لآية التوبة المصرحة بزيادة الإيمان: (هذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل حكى غير واحد الإجماع على ذلك).[3]

---

(١) انظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣٢٠ - ٣٢١).

(٢) انظر: التوحيد لابن خزيمة: (٢/ ٧٠٣)، الإيمان: (ص: ٢٩٢ - ٢٩٥)، اعتقاد أهل السنة: (٥/ ٨٩٠ - ٨٩٤، ٩٤١ - ٩٦٠)، الاعتقاد للبيهقي: (ص: ٨٠)، شعب الإيمان: (١/ ٧٠، ٧٧ - ٧٩)، لوامع الأنوار: (١/ ٤١١)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١/ ١٤٦ - ١٤٨)، فتح الباري: (١/ ٩٤ - ٩٥)، روح المعاني: (٩/ ١٦٥ - ١٦٦).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ٤٠٢)، وانظر: (٣/ ٧٤، ٤٧٥)، اعتقاد أهل السنة: (١/ ١٧٤)، التمهيد: (٩/ ٢٥٢ - ٢٥٣)، الدر المنثور: (٢/ ٣٨٩، ٤/ ١٢)، لوامع الأنوار: (١/ ٤١٢).

وقال في تفسيره لآية الفتح: (وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب).[1]

هذا الاستدلال من البخاري ورد في صحيحه ضمن باب الإيمان بعد تقريره أن الإيمان (قول وفعل، ويزيد وينقص).[2]

قال ابن حجر: (شرع المصنف يستدل لذلك بآيات من القرآن مصرحة بالزيادة، وبثبوتها يثبت المقابل، فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة).[3]

ولذا بوب البخاري في كتاب الإيمان فقال: (باب زيادة الإيمان ونقصانه) مستدلاً بجملة من نصوص الكتاب والسنة.[4]

يقول محمد الأمين: (هذه الآيات المذكورة نصوص صريحة في أن الإيمان يزيد، ومفهومها أنه ينقص أيضًا، كما استدل البخاري رحمه الله تعالى على ذلك، وهي تدل عليه دلالة صريحة لاشك فيها، فلا وجه معها للاختلاف في زيادة الإيمان ونقصه كما ترى، والعلم عند الله تعالى).[5]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٨٤)، وانظر: (٢/ ٢٨٥).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب الإيمان: (١/ ١١).

(٣) فتح الباري: (١/ ٩٥).

(٤) انظر: صحيح البخاري: (١/ ٢٤).

(٥) أضواء البيان: (٤/ ٢٩)، وانظر: (٢/ ٣٤٦)، الغُنْية: (١/ ٦٢)، تفسير السعدي: (٢/ ١٨٩).

ومسألة تفاضل الإيمان في القلوب تتضح من خلال وجوه عدة منها:

١. أن إيمان القلب يزداد بزيادة العمل الصالح، ويستوي في ذلك القول بأن الأعمال الظاهرة داخلة في مسمى الإيمان، وهو قول الأئمة الثلاثة وغيرهم، أو القول بأنها لازمة لإيمان القلب، وهو قول أبي حنيفة[1]، وهما قولان مشهوران لأهل العلم في تحديدهم لدائرة الإيمان.[2]

يقول عمر بن عبد العزيز[3]: (إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان).[4]

ذلك أن تفاضل المؤمنين في الأعمال الظاهرة للجوارح مبني على تفاوت ما في قلوبهم من الأعمال الباطنة، ومن المعلوم أن عدم تحقق اللازم يؤثر على قوة الملزوم فيضعفه.

---

(١) هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت، التيمي الكوفي، إمام الفقهاء، عالم العراق، كان قوي الحجة، امتنع عن القضاء مرارًا، انقطع للتدريس والإفتاء، توفي سنة خمسين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٥٨١ – ١٥٨٥)، الأعلام: (٨/ ٣٦).

(٢) انظر: الاعتقاد للبيهقي: (ص: ٨٠)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٧٥)، شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٩)، لوامع الأنوار: (١/ ٤٢٦).

(٣) هو الخليفة الزاهد العابد عمر بن عبد العزيز بن مروان، أبو حفص القرشي الأموي، إمام حافظ مجتهد، توفي سنة إحدى ومائة. انظر: طبقات ابن سعد: (٥/ ٣٣٠ – ٤٠٨)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٩٠٦ – ٢٩١٥).

(٤) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب الإيمان: (١/ ١١).

ومن ثم فإن: (العلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به)[1] و(تفاضل الناس في الأعمال الظاهرة يقتضي تفاضلهم في موجب ذلك ومقتضيه).[2]

وكلما كان التصديق في القلب جازمًا، والعبودية فيه متمكنة، كان العبد حازمًا في مواجهة الشبهة، قويًا في معارضة الشهوة.

يقول ابن أبي العز: (ولاشك أن من قام بقلبه التصديق الجازم، الذي لا يقوى على معارضته شهوة ولا شبهة، لا تقع معه معصية، ولولا ما حصل له من الشهوة والشبهة أو أحدهما لما عصى، بل يشتغل قلبه ذلك الوقت بما يواقعه من المعصية، فيغيب عنه التصديق والوعيد فيعصي، ولهذا - والله أعلم - قال ﷺ: [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن][3] الحديث، فهو حين يزني يغيب عنه تصديقه بحرمة الزنا، وإن بقي أصل التصديق في قلبه، ثم يعاوده، فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فإذا لم يبصر بقي قلبه في عمى، والشيطان يمده في غيه، وإن كان التصديق

(١) شرح الطحاوية: (ص: ٣١٢).

(٢) مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٦٣)، وانظر: إحياء علوم الدين: (١/ ١٦٩ - ١٧٠).

(٣) الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ في كتاب المظالم، باب النُّهبى بغير إذن صاحبه: (٢/ ٨٧٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي.. (١/ ٧٦).

في قلبه لم يكذب، فذلك النور والإبصار، وتلك الخشية والخوف تخرج من قلبه، وهذا كما أن الإنسان يغمض عينه فلا يرى وإن لم يكن أعمى، فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق، وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر).[1]

وعلى ذلك يتفاوت الناس في إيمانهم بمقدار التزامهم بالشرائع والتكاليف الدينية، أو تفريطهم فيها، وبحسب سلامتهم من اقتراف الذنوب وارتكاب الفواحش، أو وقوعهم فيها (فليس إيمان السارق والزاني والشارب كإيمان غيرهم، ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه مثل دين هذا وبره وتقواه، بل هذا أفضل دينًا وبرًا وتقوى، فهو كذلك أفضل إيمانًا).[2]

وهذا هو التفاضل في إيمان القلوب من جهة العبد فيما يفعله من امتثال أمر الرب سبحانه، وتنفيذ ما أوجبه، واجتناب ما حرمه.

٢. أن إيمان القلب يزداد بزيادة العلم والمعرفة، فكلما علم العبد شيئًا من دين الله تعالى، أو بلغه نصّ من كتاب الله جل شأنه، أو حديث الرسول ﷺ، يتضمنان أمرًا أو خبرًا، وصدق بذلك واستيقنه، وعزم على الموافقة والانقياد، عن محبة وخوف ورجاء، قوي بذلك إيمانه، وارتفعت في ذلك

(١) شرح الطحاوية: (ص: ٣١٣ - ٣١٤ (مع حذف يسير).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٣/ ٥٥)، وانظر: (٧/ ٥٦٢ - ٥٦٣، ١٣/ ٥١).

مرتبته ومنزلته، وازداد بذلك تصديقًا إلى تصديق، ويقينًا إلى يقين.[1]

ولا ريب أن الإيمان على سبيل التفصيل أعلى درجة من الإيمان بالله ورسوله وما ورد عنهما على وجه الإجمال.

قال ابن أبي العز: (وأما زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل أحد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره).[2]

ثم قال: (وأيضًا فمن وجب عليه الحج والزكاة مثلًا يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به، ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره الإيمان به إلا مجملًا، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل.

وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان).[3]

وهذا تفاضل في الإيمان من جهة أمر الله جل وعلا إجمالا وتفصيلًا، فإن الناس وإن كانوا متساوين في ضرورة الإيمان والإقرار المجمل، لكنهم

(١) انظر: فتح الباري: (١/ ١٧٧).

(٢) شرح الطحاوية: (ص: ٣١٢).

(٣) شرح الطحاوية: (ص: ٣١٣).

يتمايزون بعد ذلك فيما أمروا به من شرع الله تفصيلًا، وقد يجب على بعضهم من التصديق والإقرار والعمل ما لا يجب على الآخرين.

يقول ابن تيمية: (إنه وإن وجب على جميع الخلق الإيمان بالله ورسوله، ووجب على كل أمة التزام ما يأمر به رسولهم مجملًا، فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغ غيره، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها، لزمه من الإيمان المفصل بذلك ما لا يلزم غيره، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطنًا وظاهرًا، ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمنًا بما وجب عليه من الإيمان، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع عنه مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها، بل إيمان هذا أكمل وجوبًا ووقوعًا، فإن ما وجب عليه من الإيمان أكمل، وما وقع منه أكمل).[1]

هذا من جهة الأمر الإلهي، وهو كذلك من جهة العباد، فإنه كلما زاد العلم وعظمت المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ﷻ، وبشرعه وقدره، وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، مع التصديق الجازم، والمحبة الخالصة، والتقلب بين الخوف والرجاء، وعزم القلب على الامتثال والانقياد، كان ذلك العلم عاملاً في ازدياد نسبة الإيمان في القلب.

(١) الإيمان: (ص: ٢١٩)، وانظر: مجموع الفتاوى: (٧/ ٥١٨ - ٥١٩، ١١/ ١٨٧ - ١٨٨، ١٣/ ٥١ - ٥٣).

يقول ابن تيمية: (فكلما علم القلب ما أخبر به الرسول فصدقه، وما أمر به فالتزمه، كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك، وإن كان معه التزام عام وإقرار عام، وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها فآمن بها، كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء، بل آمن بها إيمانًا مجملًا، أو عرف بعضها، وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته كان إيمانه به أكمل).[1]

٣. أن تصديق القلب في ذاته قابل للتفاوت والتفاضل[2]، بحيث يكون بعضه أقوى من بعض ، وأثبت عن الشك، وأبعد عن الريب. ذلك أن مراتب اليقين تتفاوت مع سلامتها كلها من الشك[3]، مع التسليم بأن للتصديق حدًّا أدنى لا يمكن النزول عنه، وهو ما يعبر عنه بأصل التصديق.[4]

وهو معنى قول ابن تيمية: (أما أصل الإيمان الذي هو الإقرار بما جاءت به الرسل عن الله تصديقًا به وانقيادًا له، فهذا أصل الإيمان الذي من لم يأت به فليس بمؤمن).[5]

---

(١) الإيمان: (ص: ٢٢٠).

(٢) انظر: الإيمان: (ص: ٢٣٤)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٦٥، ١٨/ ٢٧٨)، لوامع الأنوار: (١/ ٤١٩)، روح المعاني: (٩/ ١٦٧)، اختلاف المفسرين: (ص: ٣٠٠).

(٣) انظر: لوامع الأنوار: (١/ ٤٣١).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين: (١/ ١٦٩ – ١٧٠)، فتح الباري: (١/ ١٧٧).

(٥) مجموع الفتاوى: (١٢/ ٤٧٥).

ولعل ذلك ما يقصده أبو جعفر الطحاوي[1] حين قال: (والإيمان واحد وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى، وملازمة الأولى).[2]

يقول ابن أبي العز في شرحه لمقالة الطحاوي: (يشير إلى أن التساوي إنما هو في أصله، ولا يلزم منه التساوي من كل وجه، بل تفاوت درجات نور (لا إله إلا الله) في قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى، فمن الناس من نور (لا إله إلا الله) في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علمًا وعملًا، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم، أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته، بحيث إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنبًا إلا أحرقه، وهذه حال الصادق في توحيده، فسماء إيمانه قد حرس بالرجوم من كل سارق).[3]

---

(١) هو أحمد بن محمد بن سلامة، أبو جعفر الطحاوي الحنفي، إمام حافظ، محدّث مصر وفقيهها، من مصنفاته: معاني الآثار، توفي سنة إحدى وعشرين وثلاث مائة. انظر: البداية والنهاية: (١١/ ١٩٨)، سير أعلام النبلاء: (١/ ٩٧٩ – ٩٨٠).

(٢) شرح الطحاوية: (ص: ٣٠٧ – ٣٠٨).

(٣) شرح الطحاوية: (ص: ٣١٠).

ولا ريب أن ما في القلب من التصديق واليقين لدى الفسّاق ليس كمرتبته لدى أولياء الله المتقين.

يقول ابن رجب: (.. وهذا مبني على أن التصديق القائم بالقلوب متفاضل، وهذا هو الصحيح، وهو أصح الروايتين عن أحمد، فإن إيمان الصديقين الذين يتجلّى الغيب لقلوبهم حتى يصير كأنه شهادة، بحيث لا يقبل التشكيك ولا الارتياب، ليس كإيمان غيرهم ممن لم يبلغ هذه الدرجة بحيث لو شُكِّك لدخله الشك، ولهذا جعل النبي ﷺ مرتبة الإحسان أن يعبد العبد ربه كأنه يراه، وهذا لا يحصل لعموم المؤمنين).[1]

قال النووي: (الأظهر والله أعلم أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم، بحيث لا تعتريهم الشبه، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة، وإن اختلفت عليهم الأحوال، وأما غيرهم من المؤلفة قلوبهم ومن قاربهم ونحوهم، فليسوا كذلك[2]، فهذا مما لا يمكن إنكاره، ولا يتشكك

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ١١٣ – ١١٤)، وانظر: عمدة القاري: (١/ ١٠٨).

(٢) ومما يشهد لذلك حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: [يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار] رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة.. (١/ ١٩)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه.. (١/ ١٣٣) والمعنى ـ كما ذكر النووي ـ أعطي من أخاف عليه لضعف إيمانه أن يكفر ويرتد عن الإسلام، وأترك آخرين هم أحبّ إليّ، لما أعلمه من=

عاقل في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق ﷺ لا يساويه تصديق آحاد الناس).[1]

وقال في موضع آخر: (المختار أن نفس التصديق يزيد وينقص، لا نقص تردد وشك، بل زيادته بمعنى بعده عن قبول الشك والتزلزل والشبهة، ونقصه تطرق ذلك إليه).[2]

ويقول أبو السعود: (الأصوب أن نفس التصديق يقبل القوة، وهي التي عبر عنها بالزيادة، للفرق النير بين يقين الأنبياء ويقين آحاد الأمة).[3]

= طمأنينة قلوبهم وصلابة إيمانهم، فأكلهم إلى ما جعله الله في قلوبهم من النور وتمام الإيمان وكماله، بحيث لا يتزلزل ولا يضطرب. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٨٢، ٧/ ١٤٨ – ١٤٩)، فتح الباري: (١/ ١٤٥)، ومثله حديث عمرو بن تغلب ﷺ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: [أما بعد، فوالله إني لأعطي الرجل، وأدع الرجل، والذي أدع أحب إليّ من الذي أعطي، ولكن أعطي أقوامًا لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير] رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب من قال في الخطبة بعد الثناء، أما بعد: (١/ ٣١٢ – ٣١٣)، وفي رواية: [إني لأعطي قومًا أخاف ظلعهم وجزعهم، وأكل أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغناء] كتاب الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم.. (٣/ ١١٤٦) والظلع: بفتح الظاء واللام، وأصله الميل والاعوجاج، وأطلق هنا ـ كما ذكر ابن حجر ـ على مرض القلب وضعف اليقين. انظر: فتح الباري: (١٢/ ٢٣٧، ١٣/ ٥١١).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (١/ ١٤٨ – ١٤٩)، وانظر: مجموع الفتاوى: (٦/ ٤٧٩ – ٤٨٠، ١٣/ ٥٢)، عمدة القاري: (١/ ١٠٨ – ١٠٩)، روح المعاني: (٩/ ١٦٥).

(٢) فتاوى الإمام النووي: (المسائل المنثورة)، ط٣، دار السلام: (ص: ٣٠٤).

(٣) تفسير أبي السعود: (٤/ ٤) (مع اختصار يسير).

ولذا قال ابن أبي مليكة[1]: (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل).[2]

قال ابن حجر: (أي لا يجزم أحد منهم بعدم عروض النفاق لهم، كما يجزم بذلك في إيمان جبريل، وفي هذا إشارة إلى أن المذكورين كانوا قائلين بتفاوت درجات المؤمنين في الإيمان، خلافًا للمرجئة القائلين بأن إيمان الصديقين وغيرهم بمنزلة واحدة).[3]

وباعث هذا الخوف من النفاق، من الصحابة رضوان الله عليهم، وهم أعظم الناس إيمانًا، إنما هو شدة حرصهم على بلوغ درجة التقوى، فيخشون أن يشوب عملهم من علل القلوب ما يؤثر على مرتبة الكمال.[4]

ولقد كان قلب الصديق أبي بكر ﷺ أعظم قلوب هذه الأمة إيمانًا بعد رسول الله ﷺ، حتى وإن لم يكن أكثر الأصحاب عملًا.

---

(١) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مُلَيكة، القرشي التيمي، إمام حجة حافظ، ولاّه ابن الزبير ﷺ قضاء الطائف، توفي سنة سبع عشرة ومائة. انظر: طبقات ابن سعد: (٥/ ٤٧٢)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٤٢٣ - ٢٤٢٤).

(٢) رواه البخاري تعليقًا في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر: (١/ ٢٦).

(٣) فتح الباري: (١/ ١٨٧).

(٤) انظر: فتح الباري: (١/ ١٨٧).

يقول ابن القيم: (ما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل، وقد كان منهم من هو أكثر صيامًا وحجًا وقراءة وصلاة منه، ولكن بأمر آخر قام بقلبه، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه).[1]

٤. أن دائرة إيمان القلب لا تقتصر على التصديق فقط، بل تتعداه إلى ما يقتضيه التصديق ويوجبه من أعمال القلب وأحواله.

إذ الإيمان يشمل قول القلب واللسان، كما يشمل عمل القلب والجوارح، وقول القلب يستلزم قول اللسان، كما أن عمل القلب يستلزم عمل الأركان.

ويتمثل قول القلب في التصديق الجازم بالله ورسوله وما ورد عنهما، ويتمثل عمل القلب فيما يقوم بالقلب من معان وأحوال تحرّكه إلى ربه جل شأنه، وتعلقه وتصله به سبحانه، كالمحبة والخوف والرجاء والصبر

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٣٢). روى البيهقي وغيره عن عمر ﷺ قال: (لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم) شعب الإيمان: (١/ ٦٩)، فضائل الصحابة: (١/ ٤١٨ - ٤١٩)، اللآلي المنثورة: (ص: ١٢٣)، كشف الخفاء: (٢/ ٢١٦)، الفوائد المجموعة: (ص: ٣٣٥)، قال الذهبي: (مراد عمر ﷺ أهل أرض زمانه) سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٤٧٥)، وروى أحمد في فضائل الصحابة: (١/ ١٤١) عن بكر بن عبد الله المزني قال: (إن أبا بكر لم يفضل الناس بأنه كان أكثرهم صلاة وصومًا، وإنما فضلهم بشيء كان في قلبه). وذكره ابن القيم من كلام أبي بكر بن عياش الأسدي بلفظ: (ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة وإنما سبقكم بشيء وقر في صدره) نقد المنقول، ط١، دار القاري: (١٠٤)، وانظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ١١٤).

والتوكل والإنابة والإخلاص، وغير ذلك من الأفعال القلبية، وكل ذلك داخل ولا ريب في إيمان القلوب.

يقول ابن تيمية: (فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ) ثم قال: (وهذا التصديق يتبعه عمل القلب، وهو حب الله ورسوله، وتعظيم الله ورسوله، وتعزير الرسول وتوقيره، وخشية الله والإنابة إليه والإخلاص له والتوكل عليه، إلى غير ذلك من الأحوال، فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان، وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد).[1]

ولا يتصور تصديق للقلب مجردًا بالكلية عن هذه الأعمال القلبية، إذ هو بهذا التجريد لا يعبر عن حقيقة الإيمان الشرعي الذي أراده الله تبارك وتعالى وفرضه على عباده، ولا يتميز حينئذ عن تصديق إبليس وفرعون وأمثالهما.

ذلك أن العبد يمكن أن يصدق بقلبه، ويكون مع ذلك كافرًا بالله ورسوله، باعتبار عداوته وبغضه ومخالفته، وبذلك يتقرر الارتباط العميق والتلازم الوثيق بين تصديق القلب وأعماله التي تحركه وتبعثه إلى رضا الله جل وعلا وموافقة أمره.

(١) مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٧٢)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١/ ١٤٧).

يقول ابن تيمية: (إن المسلم المستحق للثواب لابد أن يكون مصدقًا، وإلا كان منافقًا، لكن ليس كل من صدق قام بقلبه من الأحوال الإيمانية الواجبة، مثل كمال محبة الله ورسوله، ومثل خشية الله والإخلاص له في الأعمال والتوكل عليه، بل قد يكون الرجل مصدقًا وهو مع ذلك يرائي بأعماله، ويكون أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله) ثم قال: (فمن لم تقم بقلبه الأحوال الواجبة في الإيمان فهو الذي نفى عنه الرسول الإيمان وإن كان معه التصديق، والتصديق من الإيمان، ولابد أن يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله، وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس إيمانًا البتة، بل هو كتصديق فرعون واليهود وإبليس).[1]

ومن ثم فإن الإيمان القلبي يتضمن ـ إضافة إلى التصديق الجازم ـ موافقة القلب ومواطأته لمراد الله ﷻ، وموالاته له، وانقياده لأمره، عن محبة وإنابة، وتذلل وخشية، ورغبة ورجاء.

ولما كانت الأعمال القلبية جزءًا من إيمان القلب، لا تنفك عنه، وهي مما يقبل التفاوت والتفاضل، والناس فيها منازل ومراتب، كان ذلك جانبًا ظاهرًا، يزيد مسألة التفاضل في عبودية القلب وإيمانه كشفًا وبيانًا.

ولذا قال البخاري مستدلًا على زيادة الإيمان ونقصانه بعد سرد الآيات

(١) الإيمان: (ص: ٢٩١ - ٢٩٢)، وانظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣١٦ - ٣١٧).

الدالة على ذلك: (والحب في الله والبغض في الله من الإيمان).[1]

قال ابن حجر: (استدل بذلك على أن الإيمان يزيد وينقص، لأن الحب والبغض متفاوتان).[2]

يقول ابن تيمية: (الوجه الثاني في زيادة الإيمان ونقصه: وهو زيادة أعمال القلوب ونقصها، فإن من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه والتوكل عليه والإخلاص له، وفي سلامة القلوب من الرياء والكبر والعجب ونحو ذلك، والرحمة للخلق والنصح لهم، ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية).[3]

ولا ريب أن من امتلأ قلبه بتلك الأعمال الإيمانية الدينية التي يحبها الله ويرضاها أكمل إيمانًا ممن هم دون ذلك، إذ (التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق، ورسوله حق، والجنة حق، والنار حق، وهذا علمه أوجب له محبة الله، وخشيته، والرغبة في الجنة، والهروب من النار، والآخر علمه لم يوجب ذلك، فعلم الأول أكمل، فإن قوة المسبب دل على قوة السبب، وهذه

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب الإيمان: (١/ ١١).

(٢) فتح الباري: (١/ ٩٥).

(٣) مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٦٣)، وانظر: (٧/ ٥٠٦، ٥٦٦ - ٥٧١، ١٣/ ٢٣٥)، فتح الباري: (١/ ٩٤)، فتح الرحمن: (ص: ٣٣٥).

الأمور نشأت عن العلم، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه، والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم).[1]

ومما يذكر في هذا المقام أن بعض الآيات التي سبق إيرادها، والمصرحة بزيادة الإيمان، أشار بعضها، كآيتي الأنفال والتوبة، إلى أن نزول آيات القرآن وتلاوتها أو سماعها سبب في حصول الزيادة والقوة والكمال الإيماني، غير أن بعض المفسرين اعتبر أن المقصود بهذه الزيادة في الإيمان هو اتساع دائرة العلم، وزيادة التصديق اللاحق إلى ما سبق لدى المؤمن من التصديق، مقتصرًا في المعنى المراد على ذلك.[2]

والذي يظهر أن مسألة الزيادة في الإيمان بتلاوة الآيات أو سماعها لا يقتصر على زيادة التصديق فحسب، بل يراد بالزيادة الإيمانية أيضًا ما يحصل للآيات من أثر في القلوب، يزيدها خشية وخشوعًا، ومحبة وإنابة، وطمأنينة ويقينًا، ورغبة ورهبة، وعزمًا على التسليم والخضوع، والموافقة والانقياد، وتصبح تلك المعاني أحوالاً لها وصفات، ترتقي بها في منازل الكمال الإيماني.

يقول ابن تيمية: (والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ

(١) الإيمان: (ص: ٢٢١)، وانظر: (ص: ٢٢٢، ٣٩١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٧٨، ١١/ ٧٢)، معاني القرآن الزجاج: (٢/ ٤٠١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٣٣)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٨٥).

ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: ٢].

وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات، أي وقت تليت، ليس هو تصديقهم بها عند النزول، وهذا أمر يجده المؤمن، إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته، وهذه زيادة في الإيمان، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو، لم تكن عند آية نزلت، فازدادوا يقينًا وتوكلًا على الله، وثباتا على الجهاد، وتوحيدًا بأن لا يخافوا المخلوق، بل يخافون الخالق وحده.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥] وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها، بل زادتهم إيمانًا بحسب مقتضاها، فإن كانت أمرًا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة، وإن كانت نهيًا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه، ولهذا قال: ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ والاستبشار غير

مجرد التصديق).[1]

٥. أن إيمان القلب يزداد بزيادة الأدلة والبراهين، فكلما تضافرت الدلائل القاطعة، وتوالت البراهين الواضحة، كان ذلك أدعى لقوة المدلول عليه، مما يثمر في القلب زيادة في الطمأنينة، ورسوخًا في اليقين، وقوة في الثبات على الحق.[2]

قال النسفي في تفسيره لآية الأنفال: (﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ ازدادوا بها يقينًا وطمأنينة، لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه).[3]

وذكر النووي: (أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة).[4]

ولعل هذا المعنى هو مراد نبي الله إبراهيم عليه السلام حين طلب مشاهدة كيفية الإحياء، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومن ثم استدل البخاري بهذه الآية ضمن جملة أدلة في مسألة زيادة الإيمان.[5]

---

(١) الإيمان: (ص: ٢١٥ - ٢١٦)، وانظر: (ص: ٢١٦ - ٢١٧، ٢٢٣ - ٢٢٤)، شرح الطحاوية: (ص: ٣٢١).

(٢) انظر: فتح الباري: (١/ ١٧٧، ٢٤/ ٢٧٧).

(٣) تفسير النسفي: (١/ ٦٠١)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٤/ ٤).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم: (١/ ١٤٨).

(٥) انظر: صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب الإيمان: (١/ ١١)، شعب الإيمان: (١/ ٧٩).

ذلك أن (المخبر وإن جزم بصدق المخبر، فقد لا يتصور المخبر به في نفسه، كما يتصوره إذا عاينه، بل يكون قلبه مشغولا عن تصور المخبر به، وإن كان مصدقًا به، ومعلوم أنه عند المعاينة يحصل له من تصور المخبر به ما لم يكن عند الخبر، فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق).[1]

قال في الفتح: (كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل، حتى إنه يكون في بعض الأحيان أعظم يقينًا وإخلاصًا وتوكلاً منه في بعضها، وكذلك في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها).[2]

فكلما كان التصديق في القلب ثابتًا، والعلم متمكنًا، متعددة دلائله، ظاهرة حججه، قوية براهينه، بحيث يبلغ بذلك مرتبة اليقين الذي لا يضعفه ريب، ولا يؤثر فيه شبهة، كان ذلك أدعى لكمال الإيمان في القلب وزيادته، وأبعد له عن ضعفه ونقصانه، وكان صاحبه أعلى مقامًا ومنزلة ممن هو دون ذلك في قوة اليقين، بحيث يقبل الشك وتخالجه الريبة لأول شبهة تعترض.

يقول ابن تيمية وهو يعرض جهات التفاضل في تصديق القلب: (ومنها أن التصديق نفسه يتفاضل كنهه، فليس ما أثنى عليه البرهان، بل تشهد له الأعيان، وأميط عنه كل أذى وحسبان، حتى بلغ أعلى الدرجات،

(١) الإيمان: (ص: ٢٢١ – ٢٢٢)، وانظر: شرح الطحاوية: (ص: ٣١٣).

(٢) فتح الباري: (١/ ٩٤).

درجات الإيقان، كتصديق زعزعته الشبهات، وصرفته الشهوات، ولعب به التقليد، ويضعف لشبه المعاند العنيد، وهذا أمر يجده من نفسه كل منصف رشيد، ولهذا كان المشائخ وأهل المعرفة والتحقيق، السالكون إلى الله أقصر طريق، متفقين على الزيادة والنقصان في الإيمان والتصديق، كما هو مذهب أهل السنة والحديث، في القديم والحديث).[1]

٦. أن إيمان القلب يزيد إذا استمر العبد على ذكر المصدق به، وداوم على استحضاره، ولم يذهل عنه أو يغفل.

يقول الديريني[2]: (الإيمان يزيد وينقص، ويظهر تفاوته بالتفاوت في ثمراته، ويرجح بقدر اليقظة والذكر، ويخف بقدر نسيان القلب وغفلاته).[3]

ولذا أجاب عمير بن حبيب ﷺ[4] حين سئل عن زيادة الإيمان ونقصانه بقوله: (إذا ذكرنا ربنا وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه).[5]

(١) مجموع الفتاوى: (٦/ ٤٨٠ – ٤٨١)، وانظر: (٧/ ٥٦٥ – ٥٦٦).

(٢) هو عبد العزيز بن أحمد بن سعيد، الدميري، المعروف بالديريني، نسبة إلى (ديرين) في الغربية بمصر، فقيه شافعي زاهد، من مصنفاته: التيسير في علم التفسير، وطهارة القلوب، توفي سنة أربع وتسعين وست مائة. انظر: الأعلام: (٤/ ١٣).

(٣) طهارة القلوب: (ص: ١٠).

(٤) هو عمير بن حبيب بن خُماشة، الأنصاري الخَطْمي، مدني له صحبة، كان فيمن بايع تحت الشجرة. انظر: الاستيعاب: (٣/ ١٢١٣)، الإصابة: (٤/ ٥٩٢ – ٥٩٣).

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان: (١/ ٧٧)، وانظر: اعتقاد أهل السنة: (٥/ ٩٤٩).

ومن كلام معاذ بن جبل ﷺ لبعض أصحابه: (اجلس بنا نؤمن ساعة)[1] يعني نذكر الله ﷻ.

وكان عمر ﷺ يقول لأصحابه: (هلموا نزدد إيمانًا) فيذكرون الله ﷻ.[2]

وذلك باعتبار أن ذكر الله جل شأنه سبب في زيادة الإيمان.[3]

ومن ثم فإن من أدام ذكر الله بقلبه ولسانه، مستحضرًا ما علمه وصدقه وآمن به من شرع الله وخبره، متعاهدًا ذلك، غير غافل ولا لاه عنه، مجددًا المتابعة والموافقة والانقياد، كان أكمل دينًا، وأعظم إيمانًا ويقينًا، وأعلى منزلة وحالًا ممن آمن بالله ورسوله وأمرهما وخبرهما، لكنه غافل عما علمه، ساه عما آمن به وصدقه.[4]

المسألة الثامنة:

عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء].[5]

(١) رواه البخاري في صحيحه تعليقًا: (١/ ١١)، وانظر: اعتقاد أهل السنة: (٥/ ٩٤٣).

(٢) اعتقاد أهل السنة: (٥/ ٩٤١)، وانظر: شعب الإيمان: (١/ ٧٨).

(٣) انظر: فتح الباري: (١/ ٩٧).

(٤) انظر: الإيمان: (ص: ٢٢٠، ٢٢٢)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٦٦).

(٥) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه: (١/ ٩٣).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: [يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير[1] ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة[2]، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة[3]].[4]

ومن حديث أنس ﷺ أيضًا، عن رسول الله ﷺ، في حديث الشفاعة الطويل، وفيه [فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل] ثم يؤذن له في الشفاعة ثانية [فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل] وفي الثالثة: [فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه أدنى، أدنى، أدنى مثقال حبة خردل[5] من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل].[6]

(١) المراد بالخير إيمان القلب وتصديقه. انظر: التوحيد لابن خزيمة: (٢/ ٦٩٩، ٦١٣ – ٦١٤).

(٢) بضم الباء وفتح الراء المشددة، واحدة القمح. انظر: هدي الساري: (١/ ٨٧).

(٣) بفتح الذال والراء المشددة، وهي النملة الصغيرة، أو الهباء الذي يظهر في شعاع الشمس، وقيل غير ذلك. انظر: هدي الساري: (١/ ١١٩)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ٦١).

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٦/ ٢٦٩٦).

(٥) الخردل: بفتح الخاء: نوع من النبات، واحدته خردلة، يشبه به الشيء البالغ القلة، والمعنى: (يدخل الجنة من كان في قلبه أقل قدر من الإيمان) عمدة القاري: (١/ ١٧٠)، وانظر: ترتيب القاموس: (٢/ ٣٤).

(٦) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم: (٦/ ٢٧٢٧ – ٢٧٢٨)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها: (١/ ١٨٣).

تدل هذه الأحاديث الشريفة على تفاوت ما في القلب من عبودية الله تعالى وتفاضله، وأن ذلك قابل للتجزئة والتبعض، ولذلك يخرج في كل مرة من النار من هم أعلى درجة في عبودية القلب، بالنسبة لمن يخرج في المرة التالية، كما هو مصرح في بعض تلك الأحاديث.

كما تدل على أن هؤلاء المستحقين للنار، والذين يخرجون منها بالشفاعة على مراحل، معهم مقدار من الإيمان أهّلهم للخروج من النار ودخول الجنة بفضل الله ورحمته.[1]

ذلك أن هذه الأحاديث نصّت على تفاوت الإيمان القائم بالقلب، وجعلت مقاديره متفاضلة، كالتفاضل القائم بين أوزان الشعيرة والبرة والخردلة والذرة.[2]

قال ابن تيمية بعد إيراده بعض تلك الأحاديث الشريفة: (فعلم أن الإيمان يقبل التبعيض والتجزئة، وأن قليله يخرج الله به من النار من دخلها).[3]

(١) انظر: الإيمان: (ص: ٢٨٩-١٩٠)، اعتقاد أهل السنة: (٥/ ٨٩٢)، مجموع الفتاوى: (١٢/ ٤٩٢، ١٨/ ٢٧٠).

(٢) انظر: التوحيد لابن خزيمة: (٢/ ٧٠٣ - ٧٠٤)، فتح الباري: (١/ ١٧٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٣٤).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٢/ ٤٧٤)، وانظر: شرح حديث النية: (ص: ٣٦).

ومن ثم استدل بها أهل العلم على تقرير التفاضل في الإيمان.

قال النووي: (قوله ﷺ [مثقال حبة] هو على ما تقدم وتقرر من زيادة الإيمان ونقصانه).[1]

وقال في حديث الشفاعة: (في هذا الحديث دلالة لمذهب السلف وأهل السنة ومن وافقهم من المتكلمين، في أن الإيمان يزيد وينقص، ونظائره في الكتاب والسنة كثيرة).[2]

وقال ابن القيم: (هذه النصوص صحيحة صريحة لا تحتمل التأويل في أن نفس الإيمان القائم بالقلب يقبل الزيادة والنقصان، وبعضه أرجح من بعض).[3]

بل اعتبر ابن أبي العز جملة هذه الأحاديث نصًا حاسمًا في تفاضل منازل الناس في عبودية القلب، إذ قال بعد إشارته إلى حديث الشفاعة ونحوه (فكيف يقال بعد هذا أن إيمان أهل السماوات والأرض سواء، وأن التفاضل بينهم بمعان أخر غير الإيمان).[4]

وكذلك فعل أبو حامد الغزالي حيث قال: (أي معنى لاختلاف

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٩١).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ٦٣).

(٣) تهذيب سنن أبي داود لابن القيم: (٧/ ٥٦ - ٥٧).

(٤) شرح الطحاوية: (ص: ٣٢٢).

المقادير إن كان ما في القلب لا يتفاوت).[1]

والمراد مما سبق تقرير التفاضل بين المؤمنين في عبودية القلب، وأن العبد مأمور بأن يهتم بصلاح ظاهره وباطنه، وتعاهدهما، بحيث يرتقي في منازل العبودية لله جل وعلا.

(١) إحياء علوم الدين: (١/ ١٧١).

الفصل الثالث:
لوازم عبودية القلب وثمراتها والمؤثرات فيها.
ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: لوازم عبودية القلب ومقتضياتها.

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في حياة القلب.

المبحث الثالث: ثمرات عبودية القلب.

المبحث الأول
لوازم عبودية القلب ومقتضياتها

إن عبودية القلب تقتضي عبودية الجوارح وتستلزمها ولاريب.

تلك قضية واضحة في دين الله تعالى، والدلائل عليها كثيرة في القرآن الكريم والسنة الشريفة.

إذ لا يمكن أن يكون القلب مؤمنًا بالله تعالى، موقنًا بالآخرة، مصدقًا برسول الله ﷺ، يمتلئ محبة لله تعالى وتقوى، ورجاء وخوفًا، وإنابة وتوكلًا، وصبرًا وخشوعًا، ثم لا يظهر لتلك الأعمال القلبية أثر في ظاهر عمل الإنسان وما تفعله جوارحه، لا يتصور ذلك أبدًا ما دامت المكنة قائمة، والموانع منتفية.

إن الإيمان في القلب يقتضي العمل الصالح، وإرادة الآخرة تستدعي السعي لها، والمحبة تستلزم الاتباع، والرجاء يبعث على الطاعة، والخوف يصد عن المعصية، وما في القلب من الخشوع يظهر على البدن، وما فيه من التقوى يُثمِر تقوى الجوارح، وهكذا القول في جميع أعمال القلوب.

ولذا جعل رسول الله ﷺ صلاح القلب أساسًا لصلاح الجوارح فقال ﷺ: [ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب].(١)

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه: (١/ ٢٩)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات: (٢/ ١٢٢٠).

فالقلب هو المركز لعمل البدن، وما يفعله البدن أو يتركه فأصله مستقر بالقلب، ثم تظهر آثاره على الجوارح عملا بمقتضاه خيرًا أو شرًا .

فإذا صلح القلب واستقام، وسلم من الأمراض والآفات، انبعثت الأعضاء إلى الطاعة، وتحركت الجوارح بالصالح من العمل، وتباعدت عن السيئات، إذ الأعضاء جنود مطيعة للقلب، تنفذ أمره ولا تخالفه.[1]

قال ابن رجب: (حركات الجسد تابعة لحركة القلب وإرادته، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده، فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله تعالى فسد، وفسدت حركات الجسد بحسب فساد حركة القلب).[2]

ثم يقول أيضًا مبينًا استلزام صلاح القلب لصلاح الجوارح: (ويلزم من صلاح حركات القلب صلاح حركات الجوارح، فإذا كان القلب صالحًا ليس فيه إلا إرادة الله، وإرادة ما يُريده، لم تنبعث الجوارح إلا فيما يريده الله، فسارعت إلى ما فيه رضاه، وكفت عما يكرهه).[3]

ومن ثم فإن عبودية الجوارح هي اللازم والمقتضى لعبودية القلب، إذ أنّ ما يستقر في القلب من الصلاح والاستقامة لابد أن يظهر مقتضاه على

(١) انظر: شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد: (ص: ٧٩)، شجرة المعارف: (ص: ٦٤)، جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٠)، فتح الباري: (١/ ٢١٢).

(٢) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٢).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٣).

الأعضاء، وأن يؤثر في استقامة حركتها بصورة أو بأخرى.[1]

يقول ابن تيمية: (القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب)[2]

وبعد أن ذكر الحديث الوارد آنفًا ذكر القول المروي عن أبي هريرة ﷺ: (القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طاب جنوده، وإذا خبث الملك خبث جنوده) ثم قارن بين الحديث الوارد والأثر فقال: (وقول أبي هريرة تقريب، وقول النبي ﷺ أحسن بيانًا، فإن الملك وإن كان صالحًا فالجند لهم اختيار وقد يعصون به ملكهم وبالعكس، فيكون فيهم صلاح مع فساده، أو فساد مع صلاحه، بخلاف القلب، فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي ﷺ: [إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد]، فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًا، لزم ضرورة صلاح الجسد..).[3]

فالدليل على ذوق القلب طعم الإيمان، ووجده حلاوته، وتصديق ذلك، يتمثل في تقلب الجوارح في عبودية الله جل شأنه.

عن الحسن قال: (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلّي[4]، ولكن ما

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢٧٢ - ١٤/ ١٢١ - ١٨/ ٢٧٢)، العقيدة في الله: (ص: ١٦ - ١٨).

(٢) الإيمان: (ص: ١٧٦).

(٣) الإيمان: (ص: ١٧٦).

(٤) أي التزيّن. فيض القدير: (٥/ ٣٥٥).

وقر[1] في القلب، وصدقه العمل).[2]

وفي المسائل التالية جملة من آيات الكتاب العزيز التي تشير إلى اقتضاء عبودية القلب عبودية الجوارح:

المسألة الأولى:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾[البينة: ٧].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: ٩].

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

قال ابن كثير: (صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة).[3]

و يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

---

(١) أي سكن وثبت. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٢١٣).

(٢) ذكره ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود: (٧/ ٥٩) وصححه من كلام الحسن البصري، ورواه أحمد بنحوه عن الحسن في الزهد: (ص: ٣١٩)، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٢١٩)، والخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل: (ص: ٤٢ – ٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير: (١ / ٦٢)، وانظر: تفسير الطبري: (١/ ١٧٠)، تفسير المنار: (١/ ٢٣٠).

قال ابن كثير: (أي من لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله).[1]

فهذه الآيات الكريمات، ومثلها كثير في القرآن الكريم، يقترن فيها العمل الصالح بالإيمان، ويتصل به، للدلالة على العلاقة الوثيقة بينهما، وأن أحدهما لا ينفك ولا ينفصل عن الآخر، فلا يكفي إيمان القلب حتى يجتمع معه مقتضاه من العمل الصالح، وبهما معا ينال المؤمن الجنة برحمة الله جل وعلا. فالإيمان أصل، والعمل الصالح لازم له، به يتحقق صدق عبودية القلب، إذ يمتنع أن يكون الإنسان مؤمنًا بقلبه إيمانًا كاملًا، مصدقًا تصديقًا تامًا، ثم لا يكون لذلك أثر في الظاهر، يتمثل في عمل الصالحات، وأداء الواجبات بالجوارح الظاهرة، إذ أن ما يستقر في القلب من الإيمان لا يمكن أن يتخلف موجبه ومقتضاه من صلاح الظاهر.

ولذا قال ابن تيمية: (من كان معه إيمان حقيقي فلابد أن يكون معه من هذه الأعمال بقدر إيمانه وإن كان له ذنوب).[2]

وقال أيضًا: (ومن قال بحصول الإيمان الواجب بدون فعل شيء من الواجبات، سواء جعل فعل تلك الواجبات لازما له أو جزءًا منه، فهذا نزاع لفظي، كان مخطئًا خطأً بينًا).[3]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ١٥٩).

(٢) التحفة العراقية: (ص: ٢٩٤)، وانظر: الإيمان: (ص: ١٨٦ – ١٨٧، ٣٤٧).

(٣) مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٢١)، وانظر: (١٠/ ٢٦٩، ١٨/ ٢٧٢).

المسألة الثانية:

يقول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

والمعنى: إن كنتم من أهل الإيمان حقيقة فصدقوا ذلك الإيمان بالقيام بمقتضياته من طاعة الله سبحانه، وطاعة رسوله ﷺ، إذ الإيمان يستلزم تلك الطاعة.(١)

ولما كان انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم نفى الله تعالى الإيمان عمن أعرض عن طاعة الله ورسوله.

يقول جل وعلا: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧].

يقول ابن تيمية: (نفى الإيمان عمن يتولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبين أن هذا من لوازم الإيمان).(٢)

وقد رد الله تعالى دعوى الإيمان في حق من يرفض شريعة الله، ويأبى الانقياد لها والالتزام بأحكامها.

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١١٦)، نظم الدرر: (٣/ ١٨٤)، تفسير المنار: (٩/ ٥٨٨)، تفسير السعدي: (٢/ ١٨٧).

(٢) الإيمان: (ص: ٢٠٩).

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

قال ابن كثير: (هذا إنكار من الله ﷻ على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله).(١)

ولذا قال جل وعلا بعد ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فالآيات تستدل بعمل الظاهر من التحاكم إلى شرع الله تعالى على عمل الباطن من الإيمان بالله جل شأنه، والخضوع لأمره، والاستسلام لحكمه، وذلك يشير إلى أن استقامة القلب تقتضي استقامة الجوارح، وأن الإيمان موجب للعمل مستلزم له، وأن ترك القيام بالواجبات الظاهرة يدل على خلل في عبودية القلب ضعفًا ونقصانًا، أو عدمًا وانتفاءً بالكلية.

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٥١٩)، وانظر: إعلام الموقعين: (١/ ٥٠-٥١)، المواهب اللدنية: (٢/ ٦٣٤-٦٣٥)، تفسير السعدي: (١/ ٣٦٣)، تفسير ابن عاشور: (٥/ ١١١).

المسألة الثالثة:

يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

تدل هذه الآية الكريمة دلالة واضحة صريحة على أن محبة الله تعالى، وهي من ركائز عبودية القلب، تقتضي اتباع رسول الله ﷺ.

ذلك أن الآية تفيد أن اتباع شريعته عليه الصلاة والسلام، والانقياد لأمره، والاحتراز عن مخالفته، شرط لتحقيق محبة العبد لله جل شأنه.

فعلامة ما في القلب من محبة صادقة لله ورسوله، هي طاعة الجوارح لله سبحانه، وتنفيذها لما جاء به رسول الله ﷺ من الأحكام والشرائع.

يقول ابن كثير: (هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله).[1]

ولذا قال أبو يعقوب النهرجوري[2]: (كل من ادعى محبة الله ﷻ ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطل).[3]

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٥٨)، وانظر: تفسير الطبري: (٣/ ٢٣٣)، شجرة المعارف: (ص: ٥٩)، المواهب اللدنية: (٢/ ٦٣٦).

(٢) هو إسحاق بن محمد، أبو يعقوب النهرجوري، من أصحاب الجنيد، جاور بمكة، وتوفي بها سنة ثلاثين وثلاثمائة. انظر: طبقات الصوفية: (٣٧٨ – ٣٨١)، سير أعلام النبلاء: (١/ ١٠٧٣).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٣).

ومن ثم فإن هذه الآية الكريمة تمتحن دعوى محبة الله تعالى، كما قال أبو سليمان الداراني: (لما ادعت القلوب محبة الله أنزلها محنة).[1]

إذ تقرير الآية أنه: (ما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية).[2]

يقول ابن رجب: (جعل الله علامة الصدق في محبته اتباع رسوله، فدل على أن المحبة لا تتم بدون الطاعة والموافقة).[3]

وقال البقاعي: (فمن ادعى محبته وخالف سنة رسول الله ﷺ فهو كذاب، وكتاب الله سبحانه وتعالى يكذبه).[4]

ذلك أن المحبة توجب موافقة المحبوب، ومواطأة القلب لمراده، وتتبع مراضيه، وفعل محبوباته، والصّدّ عن مكروهاته.

يقول ابن القيم نظمًا:

شرط المحبة أن توافق من ... تحب على محبته بلا عصيان
فإذا ادعيت له المحبة مع خلا ... فك ما يحب فأنت ذو بهتان[5]

---

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٩)، وانظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٣٥٨)، جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٢).

(٢) مدارج السالكين: (٣/ ٢٠)، وانظر: فتوح الغيب: (ص: ١٥٤)، الشفا: (٢/ ٣٧١، ٣٨٦ – ٣٨٧).

(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢١٢)، وانظر: مجموع الفتاوى: (٢/ ٤٥٤).

(٤) نظم الدرر: (٢/ ٦٣).

(٥) القصيدة النونية: (٢/ ١٣٦).

ولذا عرّف بعض الأئمة المحبة بموجبها ولازمها.

قال سهل بن عبد الله في حدّ المحبة: (معانقة الطاعة ومباينة المخالفة).[1]

وهو تفسير للمحبة بمقتضاه، من التزام الطاعات، والمباعدة عن السيئات، وذلك هو أثر المحبة إذا تأصلت في القلب، وحينئذ تتحقق ثمرتها كما قال ابن القيم: (إذا غرست شجرة المحبة في القلب، وسقيت بماء الإخلاص، ومتابعة الحبيب، أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها).[2]

ومن ادعى المحبة احتاج إلى إبراز البينة، التي هي اللازم والمقتضى.

يقول ابن القيم: (وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولذا جعل تعالى اتباع رسوله ﷺ علمًا عليها، وشاهدًا لمن ادّعاها فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٢).

(٢) مدارج السالكين: (٣/ ١٠)، وانظر: قوت القلوب: (٢/ ١٠٧).

لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم، بدون المتابعة لرسوله ﷺ).[1]

فما في القلب من عبودية المحبة يستلزم حركة الجوارح في طاعته سبحانه، والمشتملة على طاعة رسوله ﷺ.

قال ابن عطية: (محبة العبد لله تعالى يلزم منها ولابد أن يطيعه).[2]

وقال ابن تيمية: (الحب التام مع القدرة يستلزم حركة البدن بالقول الظاهر والعمل الظاهر ضرورة) (وإذا قام بالقلب التصديق به، والمحبة له، لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة، والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله).[3]

ولذا قال الجنيد لما سئل عن قوله في المحبة: (عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته، وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله).[4]

(١) مدارج السالكين: (١/ ٨٤)، وانظر: (٣/ ٣٢)، روضة المحبين: (ص: ١٨٤ – ١٨٥، ٢٠٣).

(٢) تفسير ابن عطية: (١٠/ ٤٢٢).

(٣) مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٤١)، وانظر: (١٠/ ٧٥٤).

(٤) مدارج السالكين: (٣/ ١٦)، وانظر: روضة المحبين: (ص: ٢٨٠).

وهذه العبارات تشتمل على الملزوم وهو قوة المحبة، وعلى اللازم المتمثل في استسلام الجوارح لأمر الله، ولذلك أثنى ابن القيم على هذا الكلام في المحبة فقال: (وهذا من أجمل ما قيل فيها).[1]

ومما يدل أيضًا على اقتضاء المحبة عمل الظاهر قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾[المائدة: ٥٤].

فقد تضمنت الآية الكريمة عدداً من صفات المؤمنين الصادقين، باعتبارها علامات على صحة محبتهم لله جل وعلا، وصدقهم في دعواها، وعلى تحققها منهم بحصول موجبها ومقتضاها.[2]

المسألة الرابعة:

يقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

تقرر الآية الكريمة أن علامة صحة الرجاء في قلب المؤمن هو العمل الصالح، والسلامة من الشرك في عبادة الله سبحانه.

ويأتي الرجاء في اللغة بمعنى الطمع والأمل وتوقع ما فيه سرور ومنفعة، ويستعمل توسعًا في معنى الخوف مما فيه مضرة.[3]

---

(١) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ١٦).

(٢) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ٢٠).

(٣) انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٤٢٤)، لسان العرب: (٣/ ١٦٠٤)، تفسير البغوي: (٣/ ١٨٧)، روح المعاني: (١٦/ ٥٣ – ٥٤)، أضواء البيان: (٤/ ٢٠٠).

ومن ثمّ كان للمفسرين في المراد بالرجاء في هذه الآية قولان[1]:

الأول: أن الرجاء على بابه بمعنى الطمع والأمل في ثواب الله تعالى ورؤيته سبحانه.

وبه قال الواحدي، وابن كثير، وأبو السعود، والشوكاني.[2]

قال أبو حيان: (وحمل الرجاء على بابه أجود).[3]

وقال الألوسي: (وتفسير الرجاء بالطمع أولى).[4]

الثاني: أن المراد بالرجاء هنا الخوف من الله جل وعلا.

قال ابن قتيبة: (أي يخاف لقاء ربه).[5]

واختاره البغوي، والسمرقندي.[6]

والمعنيان متلازمان، فإن المؤمن إذا رجا ثواب الله تعالى خاف عقابه أيضًا، والعكس صحيح.[7]

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري: (٢/ ٧٠٠)، معاني القرآن للزجاج: (٣/ ٣١٦)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٣٠٢)، زاد المسير: (٥/ ١٤٢).

(٢) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٦٧٤)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٠٨)، تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٥١)، فتح القدير: (٣/ ٣٢٢).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٦/ ١٦٩).

(٤) روح المعاني: (١٦/ ٥٤).

(٥) تفسير غريب القرآن: (ص: ٢٧١).

(٦) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ١٨٧)، تفسير السمرقندي: (٢/ ٣٦٥)، بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٤٥).

(٧) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٣/ ٣١٦)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ٣٠٢)، أضواء البيان: (٤/ ٢٠٠).

ولذا جمع بعض المفسرين بينهما، واعتبر اللفظ دالا عليهما جميعًا.

قال القرطبي: (أي يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه).[1]

وقال محمد الأمين: (قوله في هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يشمل كونه يأمل ثوابه ورؤية وجهه الكريم يوم القيامة، وكونه يخشى عقابه، أي فمن كان راجيًا من ربه يوم يلقاه الثواب الجزيل والسلامة من الشر، فليعمل عملًا صالحًا).[2]

وعلى كلا المعنيين فالمقصود بيان دلالة الآية على أن مقتضى اتصاف القلب بالرجاء حركة الجوارح بالطاعة، وانبعاثها إلى العمل الصالح.

ويفهم من الآية أن الذي يشرك في عبادة الله سبحانه، ولا يعمل الصالحات، لا يرجو لقاء ربه على سبيل الحقيقة.[3]

ذلك أن عبادة القلب بالرجاء لا بد أن يقارنها عمل بالجوارح يصدقها، إذ الرجاء الحقيقي هو ما كان باعثًا على الطاعة، دافعًا إلى الاستقامة، لأن من رجا شيئًا طلبه، وسعى لتحصيله، وبغير ذلك يصبح الرجاء في الواقع مجرّد تمنّ لا ثمرة له.[4]

---

(١) تفسير القرطبي: (٤٧١١)، وانظر: تفسير الطبري: (١٦/ ٣٩).

(٢) أضواء البيان: (٤/ ١٩٩).

(٣) انظر: أضواء البيان: (٤/ ١٩٩).

(٤) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ١٨٨)، عجائب القرآن: (ص: ١٤٢)، المسائل في أعمال القلوب: (ص: ٧٠-٧١)، الروح: (ص: ٣٠٤-٣٠٦).

ومثل هذه الآية قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقوله جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦].

فالآيتان الكريمتان تفيدان أن ثمرة رجاء ثواب الله تعالى وخوف عذابه جل وعلا، ولازم ذلك ومقتضاه، هو التأسي والاقتداء برسول الله ﷺ، والتزام شرعه، والتأسي بالخليل إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، في الثبات على عبادة الله جل شأنه، والبراءة من الشرك وأهله.[1]

وقد أثنى الله جل شأنه على قوم بوصف الرجاء لرحمة الله وثوابه، بعد أن ذكر سبحانه ما به استحقوا هذا الوصف من التقرب إلى الله تعالى بصالح العمل، وذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢١/ ١٤٣، ٢٨/ ٦٤)، تفسير الفخر الرازي: (٢٩/ ٣٠٢)، زاد المسير: (٦/ ١٩٠)، نظم الدرر: (٦/ ٩١)، تفسير ابن عاشور: (٢١/ ٣٠٣، ٢٨/ ١٤٩)، الشفا: (٢/ ٣٧١).

﴿رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

يقول ابن القيم: (طوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء) ثم قال: (وعلامة الرجاء الصحيح أن الراجي يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها، بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها).[1]

ولذا قال مالك بن دينار[2]: (إذا عرف الرجل من نفسه علامة الخوف وعلامة الرجاء فقد تمسك بالأمر الوثيق. أما علامة الخوف فاجتناب ما نهى الله عنه، وأما علامة الرجاء فالعمل بما أمر الله به).[3]

المسألة الخامسة:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤].

تفيد هذه الآية الكريمة أن الخوف من الله تعالى يقتضي طاعته والعمل بشرعه سبحانه أمرًا ونهيًا.

---

(١) الروح: (ص: ٣٠٤)، وانظر: شجرة المعارف: (ص: ٨٥)، عجائب القرآن: (ص: ١٤٣)، الأربعين: (ص: ١٢٢)، شرح الطحاوية: (ص: ٣٠١، ٣٠٦).

(٢) هو أبو يحي مالك بن دينار، تابعي ثقة، عالم زاهد، توفي سنة سبع وعشرين ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٢٧٣ - ٢٨٨)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ٣١٦٧ - ٣١٦٨).

(٣) تنبيه الغافلين: (٢/ ٤١٧)، وانظر: الداء والدواء: (ص: ٧٧، ١١٤)، قوت القلوب: (١/ ٤٤٠ - ٤٤١).

ذلك أن الآية الكريمة ذكرت الملزوم: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ والمقصود لازم ذلك من ترك التعرض للصيد حال التلبس بالإحرام، مهما كان الصيد سهلًا وقريبًا.

قال ابن كثير: (يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرًا وجهرًا، لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره).[1]

وفي قصة ابني آدم عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[المائدة: ٢٨].

فقد جعل التقيّ منهما العلة المانعة له من قتل أخيه هي عبادة القلب المتمثلة في الخوف من رب العالمين جل وعلا.[2]

ومثل ذلك قول الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٩٨)، وانظر: تفسير الطبري: (٧/ ٤٠)، تفسير الزمخشري: (١/ ٧١٠)، تفسير أبي السعود: (٣/ ٧٨)، روح المعاني: (٧/ ٢٧)، تفسير ابن عاشور: (٦/ ٤٠ - ٤١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٦/ ١٩٢)، تفسير البحر المحيط: (٣/ ٤٦٣)، نظم الدرر: (٢/ ٤٤٦)، تفسير أبي السعود: (٣/ ٢٧)، روح المعاني: (٦/ ١١٣)، تفسير ابن عاشور: (٦/ ١٧٠).

فخوفهم من عذاب الله يوم القيامة أنشأ لديهم طاعة لله تبارك وتعالى.[1]

وكذلك قول الله جل شأنه في وصف الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٧ - ١٠].

فالباعث لهم إلى عمل الصالحات هو خوفهم من الله جل وعلا.

قال ابن كثير: (أي يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر، ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها، خيفة من سوء الحساب يوم القيامة).[2]

ولذا جمع القرآن بين الخوف ومجانبة الهوى، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

فخشية الله جل شأنه تمنع من اتباع الهوى، وتستلزم طاعة الله سبحانه بامتثال أمره واجتناب نهيه.[3]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٨/ ١٤٨)، نظم الدرر: (٥/ ٢٦٧)، تفسير السعدي: (٣/ ٤٠٣ - ٤٠٤)، تفسير ابن عاشور: (١٨/ ٢٤٩، ٢٥٠).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٥٤)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٩/ ٢١١)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٦٩)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٥٥٢)، تفسير أبي السعود: (٩/ ٧٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٤٨)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٢٤، ١٤/ ٤٨٠)، في ظلال القرآن: (٦/ ٣٨١٨ - ٣٨١٩).

المبحث الثاني

العوامل المؤثرة في حياة القلب

إذا كان للبدن حياة حسية يتحرك بها وينتفع، وله غذاؤه الذي يعيش به وينمو، ويشترك معه في ذلك الحيوان والنبات، على تفاوت في الحياة والنمو والغذاء[1]، فإن للقلب حياة معنوية خاصة به، هي أصل صلاحه وكماله ونعيمه.

وغذاء تلك الحياة المختصة بالقلب، وأصل وجودها، وسبب نمائها، يتمثل في إخلاص العبودية لله تعالى، والتجرد في توحيده والإيمان به جل وعلا.

ذلك أن المؤمن إذا سلك طريق الهداية بتوفيق الله ولطفه، استنار قلبه واستضاء، فصار منشرحًا للإسلام، مطمئنًا بالإيمان، متسعًا لقبول الهدى، منفسحًا لإجابة الحق، فرحًا متلذذًا بتلك الحياة[2]، كما قال سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال ﷻ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

هذا الانشراح بالإسلام، والاستنارة بوحي الله تعالى وهداه، هو علامة

---

(١) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ٢٠٠ - ٢٠١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٨/ ٢٦، ٢٣/ ٢٠٩)، تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦٠ - ١٦١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٧٤ - ١٧٥)، تفسير الثعالبي: (١/ ٥٥٧).

الحياة للقلب بعد أن كان في جملة الأموات.

يقول الله جل وعلا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا[1] يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام:١٢٢].

قال ابن كثير: (هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا، أي في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ووفقه لاتباع رسله).[2]

هذه الحياة القلبية تؤثر فيها جملة من العوامل، يمكن عرض بعضها في المسائل التالية:

المسألة الأولى: العلم

يراد بالعلم ما أوصل إلى الإيمان بالله تعالى، وعبادته وحده سبحانه، ويشمل ذلك مصدرين:

المصدر الأول: الوحي المسموع المنزل من عند الله سبحانه، قرآنا أو سنة، والذي يعرف به العبد ربه بأسمائه وصفاته جل وعلا، ويدرك المسلك الصحيح الذي يعبده به جل شأنه، ويعلم الوعد المترتب على الطاعة والاهتداء، والوعيد المترتب على المعصية والضلال.

(١) فُسر النور في الآية بالقرآن، وبالإسلام، وبالهدى والإيمان. قال ابن كثير: (والكل صحيح) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ص: ١٥٩)، معاني القرآن للفراء: (١/ ٣٥٣)، تفسير القرطبي: (٧/ ٥٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ١٧٢)، نظم الدرر: (٢/ ٧٠٧).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ١٧٢)، وانظر: تفسير الطبري: (٨/ ٢٢ – ٢٣)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٦٤٩، ١٩/ ٩٤- ١٠/ ١٠٠)، مدارج السالكين: (٣/ ١٩٨ – ١٩٩)، إغاثة اللهفان: (١/ ٦٣).

المصدر الثاني: الآيات الكونية المشهودة التي يدل التأمل والتفكر والنظر فيها على عظمة الله وقدرته، وعلى عزه وسلطانه، وعلى استحقاقه للعبودية وحده دون سواه.

إن اتصاف العبد بوصف العلم من هذين الطريقين يضفي على قلبه حياة ونورًا وإشراقًا، ويثمر فيه خشية وإنابة وحبًا.[1]

إذ العلم قوت القلب وغذاؤه، يحس به كما يحس الجسم بالطعام والشراب.[2]

وبالمقابل فإن من يفقد هذا العلم من أهل الجهل بالله ودينه محكوم عليه بموت القلب، وإن كان الجسد والبدن معدودًا في دائرة الأحياء.[3]

ولذا قال الله ﷻ مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

فالكافرون موصوفون بموت القلب، وذلك بفقدهم الإحساس والحركة بالعلم الحقيقي بالله وشرعه، وثمرة ذلك من الإيمان والاهتداء، وهم في هذا الموت القلبي أشباه لأهل القبور في عدم الانتفاع.

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٣/ ٣٣٣).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (٤/ ٤١).

(٣) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ٢٠١)، إغاثة اللهفان: (١/ ٦٥).

قال القرطبي: (أي هم بمنزلة أهل القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه).[1]

ولما كان القرآن وعاء للعلم الذي تحيابه القلوب وتستضيء به سمّاه الله تعالى نورًا في أكثر من آية في الكتاب العزيز.

يقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

والمراد بالنور المبين القرآن كما ذكر عامة المفسرين.[2]

قال الزجاج: (يعني به ـ والله أعلم ـ القرآن، لأن النور هو الذي يبين الأشياء حتى ترى، ومثل الله ﷻ ما يعلم بالقلب علمًا واضحًا لما يرى بالعين رؤية منكشفة بينة).[3]

ويقول تبارك وتعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨].

قال السمرقندي[4]: (سمي القرآن نورًا لأنه يهتدى به في ظلمة الجهالة

(١) تفسير القرطبي: (١٤/ ٢١٧)، وانظر تفسير الطبري: (٢٢/ ١٢٨ – ١٢٩).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٣٨٦)، تفسير الواحدي: (١/ ٣٠٤)، تفسير السمعاني: (١/ ٥٠٧)، تفسير البغوي: (١/ ٥٠٣)، تفسير ابن عطية: (٢/ ١٤١)، تفسير القرطبي: (٦/ ١٩)، نظم الدرر: (٢/ ٣٧٩).

(٣) معاني القرآن: (٢/ ١٣٦)، وانظر: زاد المسير: (٢/ ٢٢٧).

(٤) هو نصر بن محمد بن إبراهيم، أبو الليث السمرقندي الحنفي، إمام فقيه، محدث زاهد، من مصنفاته: تنبيه الغافلين، وتفسيره المسمّى (بحر العلوم)، توفي سنة خمس وسبعين وثلاث مائة. انظر: سير أعلام النبلاء: (٣/ ٤٠٢٤)، الأعلام: (٨/ ٢٧).

والضلالة، ويعرف به الحلال والحرام).[1]

ويقول جل شأنه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال ابن الجوزي (النور الذي أنزل معه القرآن سماه نورًا لأن بيانه في القلوب كبيان النور في العيون).[2]

ويقول تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد أضافت هذه الآية الكريمة إلى وصف القرآن الكريم بأنه نور وصفه بأنه روح[3]، إشارة إلى حاجة القلب إليه، واعتماده في حياته عليه، كما تعتمد حياة الأجساد على بقاء الأرواح، فإذا أقفل العبد باب العلم الذي تضمنه الوحي الإلهي، فقد أغلق على قلبه منافذ الحياة، وأوجب له موتًا وظلمة ووحشة.[4]

(١) تفسير السمرقندي: (٣/ ٤٣٤)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٥/ ١٨٠)، تفسير السمعاني: (٥/ ٤٥١)، تفسير البغوي: (٤/ ٣٥٣)، تفسير ابن عطية: (٥/ ٣١٩)، تفسير القرطبي: (١٨/ ٩٠).

(٢) زاد المسير: (٣/ ١٨٥)، وانظر: تفسير السمرقندي: (١/ ٥٦٩)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٠٦)، تفسير القرطبي: (٧/ ١٩٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٥/ ٤)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٢٢)، إغاثة اللهفان: (١/ ٦٥ – ٦٦).

(٤) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ١٢٧، ١٩٩).

قال القرطبي: (سماه روحًا لأن فيه حياة من موت الجهل).[1]

ويقول ابن القيم في تسمية القرآن بالروح والنور في الآية الكريمة: (سماه روحًا لما يحصل به من الحياة الطيبة والعلم والقوة، وجعله نورًا لما يحصل به من الإشراق والإضاءة، وهما متلازمان، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح وجدت الإضاءة والاستنارة، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح فهو ميت مظلم، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل).[2]

ومن الآيات التي تشير إلى أثر العلم في حياة القلب قول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

فقد بينت الآية الكريمة أن المتصفين بالعلم يوقنون بأن القرآن[3] المنزل على رسول الله ﷺ هو الحق الظاهر بلاشك أو ريب فيعظم إيمانهم به، وثمرة ذلك إخبات قلوبهم لما يتضمنه الوحي الإلهي من البيان والهدى، اطمئنانًا به، وخشوعًا وانقيادًا له.

(١) تفسير القرطبي: (١٦/ ٣٧)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٩/ ٩٤).

(٢) التفسير القيم: (ص: ٤٣٤).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ١٢٩)، تفسير النسفي: (٢/ ٤٤٩)، التسهيل: (٣/ ٤٥)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٣٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١١٤).

وبين الله ﷻ في آية أخرى أن العلم سبيل إلى خشيته سبحانه.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

قال الواحدي: (أي من كان عالمًا بالله اشتدت خشيته).[1]

ذلك أن مدار الخوف والتعظيم والخشية على العلم بالله تعالى، ومعرفته بأسمائه وصفاته، وآثار عظمته وقدرته، وملكه وعزه وسلطانه، ووعده ووعيده، من جهة تدبر الآيات التنزيلية، ومن جهة التفكر في الآيات الكونية.[2]

يقول ابن كثير: (أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم، الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر).[3]

فالعلم بالله جل شأنه يوجد في القلب حياة، ويوجب خشية، وثمرة ذلك حياة الجوارح وامتثالها، فعلًا للحسنات وتركًا للسيئات.[4]

ويشير إلى ذلك أيضًا قول الله تعالى معلمًا نبيه موسى عليه السلام كيف يخاطب

(١) تفسير الواحدي: (٢/ ٨٩٣)، وانظر: الأربعين: (ص: ١٢٠ - ١٢١).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (٣/ ٩٩)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٤٣٧)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٢١٩)، تفسير القاسمي: (١٤/ ٥١ - ٥٢).

(٣) تفسير ابن كثير: (٣/ ٥٥٣)، وانظر: تفسير النسفي: (٣/ ١٢٢)، شجرة المعارف: (ص: ٥٠).

(٤) انظر: منهاج العابدين: (ص: ١٦)، مجموع الفتاوى: (١٤/ ٢٩٢ - ٢٩٤، ١٦/ ١٧٨ - ١٧٩).

فرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[النازعات:١٨ – ١٩].

فإذا تحقق للعبد الاهتداء إلى ربه جل شأنه، والعلم به سبحانه، كان سببًا في استقرار الخشية والخشوع في القلب إذ (الخشية تابعة للعلم).[1]

قال الفضيل بن عياض: (رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى).[2]

ويقول ابن تيمية: (العلم سبب الخشية فإن كان تامًا أوجب الخشية).[3]

وقد ضرب الله جل وعلا مثلًا لأثر الوحي الإلهي المتضمن للعلم والهدى في حياة القلب وضيائه وصلاحه، وذلك في قوله سبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

ففي تفسير الآية الكريمة يرى عدد من المفسرين[4] أنها مشتملة على

(١) تفسير ابن عطية: (٥/ ٤٣٣)، وانظر: تفسير الفخر الرازي، تفسير البحر المحيط: (٨/ ٤٢١)، تفسير النسفي: (٣/ ٦٤٧)، تفسير أبي السعود: (٩/ ٩٩).

(٢) أدب الدنيا والدين: (ص: ١١٣ – ١١٤)، وانظر: مدارج السالكين: (١/ ٣٨٩).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٧)، وانظر إحياء علوم الدين: (٤/ ٢٠٦).

(٤) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٢٢٢)، تفسير الواحدي: (١/ ٥٦٩)، تفسير السمعاني: (٣/ ٨٧)، تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ٣٥)، تفسير النسفي: (٢/ ١٤٤ – ١٤٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٠٨)، تفسير السعدي: (٢/ ٤٦٥)، تفسير ابن عاشور: (١٣/ ١١٧)، عجائب القرآن: (ص: ٨٣ – ٨٦).

تشبيه للعلم الذي تحيا به القلوب وتستضيء، بالماء النازل من السماء تحيا به الأرض والأبدان، وتشبيه للقلوب التي هي أوعية للعلم ومحل له، بالأودية التي هي محل الماء.[1]

يقول ابن القيم: (شبه الله الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كواد صغير، فسالت أودية بقدرها، واحتملت قلوب من الهدى بقدرها، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومرّ عليها احتمل غثاء وزبدًا، فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات، ليقلعها ويذهبها، كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه، فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه إنما أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها، وهكذا يضرب الله الحق والباطل.

ثم ذكر المثل الناري فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد، فتخرجه النار وتميزه، وتفصله من الجوهر الذي ينتفع به، فيرمى ويطرح ويذهب جفاء، وكذلك الشهوات والشبهات يرميها العلم والهدى من قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها، كما يطرح السيل والنار

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (١٩/ ٩٤ – ٩٥).

ذلك الزبد والغثاء والخبث، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستسقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره).[1]

ويؤيد هذا التأويل للآية الكريمة - كما ذكر أبو حيان[2]- ما تضمنه حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: [مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية[3] قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب[4] الكثير، وكانت منها أجادب[5] أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها

(١) إعلام الموقعين: (١/ ١٥٢ - ١٥٣) وانظر: الوابل الصيب: (ص: ١١٤)، مفتاح دار السعادة: (١/ ١٥٢).

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط: (٥/ ٣٨١)، مجموع الفتاوى: (٤/ ٤١، ٩/ ٣١٤ - ٣١٥)، تفسير ابن عاشور: (١٣/ ١١٧).

(٣) من النقاء، وفي رواية مسلم (طائفة طيبة)، والمعنى واحد. انظر: فتح الباري: (١/ ٢٧٤)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٤٧).

(٤) الكلأ والعشب من أسماء النبات، غير أن الكلأ يطلق على اليابس والرطب، بينما يختص العشب بالرطب منه. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٢٣٨، ٤/ ١٩٤)، فتح الباري: (١/ ٢٧٤)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٤٦).

(٥) الأجادب جمع جدب، وهي الأرض الصلبة التي تمسك الماء فلا تشربه سريعًا. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢٤٢)، فتح الباري: (١/ ٢٧٤)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٤٦ - ٤٧).

طائفة أخرى، إنما هي قيعان[1] لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به].[2]

فهذا الحديث الشريف مشتمل على تشبيه ما بعث به نبي الله ﷺ من ربه تبارك و تعالى بالغيث النازل حال شدة حاجة الناس إليه، فكما أن المطر يحي الأرض الميتة، فكذلك أثر الوحي الإلهي في حياة القلب.

ويفهم من هذا الحديث أيضًا أن الناس في تلقي قلوبهم للعلم وانتفاعهم به على ثلاثة أصناف:

أولها: من يتلقى الوحي المتضمن للعلم والهدى فيقبله ويفهمه، ويلتزمه ويعمل به، وينشره ويدعو إليه، فهو عالم عامل معلّم، منتفع به في ذاته، ويتعدى نفعه لغيره.

وثانيها: من يتلقاه ويقبله، ويعمل به في الأركان والواجبات دون المكملات، وفي الفرائض دون النوافل، ومن حفظه ووعاه، دون تمكّن من الفقه فيه، لكنه أداه لغيره، ونفع به من هو أوعى وأفقه.

(١) القيعان هي الأرض المستوية الواسعة الملساء التي لا تنبت، واحدها قاع. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ١٣٢ - ١٣٣)، فتح الباري: (١/ ٢٧٥)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٤٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب فضل من علم وعلّم: (١/ ٤٢)، ومسلم بنحوه في كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم: (٢/ ١٧٨٧ - ١٧٨٨).

وثالث تلك الأصناف: من تلقى الوحي بسمعه، لكنه أباه ورفضه وتجاهله، علمًا وعملًا وتعليمًا، فلم يكن قلبه محلًا قابلًا للعلم، ولا منتفعًا بما ورد عليه منه.

وهذا الصنف الأخير هو المذموم المبتلى بموت القلب، أما الصنفان الأولان فهما محمودان، على تفاوت بينهما في درجات العبودية، ومراتب الانتفاع، ومنازل الثواب.[1]

يقول النووي في شرح هذا الحديث: (أما معاني الحديث ومقصوده فهو تمثيل الهدى الذي جاء به ﷺ بالغيث، ومعناه أن الأرض ثلاثة أنواع، وكذلك الناس، فالنوع الأول من الأرض ينتفع بالمطر فيحيا بعد أن كان ميتًا، وينبت الكلأ، فتنتفع بها الناس والدواب والزرع وغيرها، وكذا النوع الأول من الناس يبلغه الهدى والعلم، فيحفظه، فيحيا قلبه، ويعمل به، ويعلمه غيره، فينتفع وينفع، والنوع الثاني من الأرض ما لا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة، وهي إمساك الماء لغيرها، فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم أهل للنفع والانتفاع، فيأخذه منهم فينتفع به،

(١) انظر: فتح الباري: (١/ ٢٧٥).

فهؤلاء نفعوا بما بلغهم، والنوع الثلاث من الأرض السباخ التي لا تنبت ونحوها، فهي لا تنتفع بالماء، ولا تمسكه لينتفع به غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس ليست لهم قلوب حافظة، ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به، ولا يحفظونه لنفع غيرهم).[1]

المسألة الثانية: الاستقامة على الطاعة.

حين يستجيب المؤمن لله تعالى ورسوله ﷺ، فيلتزم بالتكاليف الشرعية، فعلاً لما يؤمر به من الطاعات، وتركاً للمحرم من الشهوات، وتتقلب أعضاؤها وجوارحه في أنواع العبودية لربه سبحانه، فإن ذلك العمل الصالح له أثره المحمود على القلب، نورًا وضياءًا، وإشراقًا وصفاءًا، وقوة وثباتًا، وانشراحًا وطمأنينة، يطيّب حياته، ويلمّ شعثه، ويزيل كدره، ويطهره من الدنس، ويحميه من أن يكون مرتعًا للشيطان وكيده.

وفي المقابل فإن الانهماك في المعصية يؤثر في القلب سوادًا ودنسًا.[2]

إذ للحسنة نور في القلب، وللسيئة ظلمة، كما روي من كلام ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.[3]

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٥/ ٤٧ - ٤٨)، وانظر: الوابل الصيب: (ص: ١١٥- ١١٩)، القواعد الحسان: (ص: ٥٦).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ١٥ - ١٨، ٥٠)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٣٩٦، ١٥/ ٣٩٢- ٣٩٣، ٤٢٥)، مدارج السالكين: (١/ ٣٢٢، ٣/ ٧٧، ١٩٩ - ٢٠٣)، الآداب الشرعية: (١/ ١٧٠).

(٣) انظر: حلية الأولياء: (٣/ ٣٠)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٠٤)، الوابل الصيب: (ص: ٧٢)، مدارج السالكين: (١/ ٣٢٢).

ومن قول عبد الله بن المبارك[1] شعرًا:

ركوب الذنوب يميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها[2]

والمقصود أن ما تقوم به الجوارح له تأثير في القلب، إذ هي سبل موصلة إليه، وإن كان القلب هو الأصل المؤثر في البدن الذي هو فرع له، إلا أن التأثير بينهما متبادل، والآثار متداخلة يفضي بعضها إلى بعض[3]، إذ (الفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه)[4] (والشجرة كلما قوي أصلها وعرق وروي قويت فروعها، وفروعها أيضًا إذا اغتذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها).[5]

فالعين والأذن - على سبيل المثال - رسولان للقلب في المرئيات والمسموعات، يلقيان للقلب ويبعثان إليه ما يقابلانه، فبقاؤهما في دائرة المباح يقفل باب الحرام أصلًا.

---

(١) هو عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن الحنظلي التركي، ثم المروزي، إمام عصره، محدث حافظ حجة، مناقبه كثيرة، توفي سنة إحدى وثمانين ومائة. انظر: صفة الصفوة: (٤/ ١٣٤ - ١٤٧)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٤٦٧ - ٢٤٧٩).

(٢) تاريخ دمشق: (٣٢/ ٤٦٧)، وانظر: شعب الإيمان: (٥/ ٤٦٤)، حلية الأولياء: (٨/ ٢٧٩)، مدارج السالكين: (٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١/ ١٣٢)، ذم الهوى: (ص:٧٤)، اقتضاء الصراط المستقيم:(ص: ١١).

(٤) مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٤١)، وانظر: إحياء علوم الدين: (١/ ١٦٩ - ١٧٠، ٣/ ١٥ - ٣٥، ٤/ ٤٨٥).

(٥) مجموع الفتاوى: (٧/ ٥٤٢).

يقول ابن العربي عن العين باعتبارها محلًا لتقوى الله تعالى: (المحل الأول: العين، فإنها رائد القلب وربيئته[1]، فما تطلع عليه أرسلته إليه، فهو يفصل منه الجائز مما لا يجوز، وإذا جللتها بحجاب التقوى لم ترسل إلى القلب إلا ما يجوز، فيستريح من شغب ذلك الإلقاء).[2]

ثم أنشد عن بعض مشايخه[3]:

إذا لمست عينيّ اللتين أضرتا ... بجسمي وقلبي قالتا لم القلب
فإن لمت قلبي قال عيناك جرتا ... عليّ الرزايا ثم لي تجعل الذنبا

وقال آخر في هذا المعنى:

قلبي يقول لطرفي: هِجْت لي سقما ... والعين تزعم أن القلب أبكاها
والجسم يشهد أن العين كاذبة ... هي التي هيجت للقلب بلواها[4]

وفي كتاب الله العزيز ما يشير إلى أثر العمل الصالح في حياة القلب، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

---

(١) الربيئة: العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١٧٩)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٢٨٢).

(٢) أحكام القرآن: (٢/ ٨٤٩)، وانظر: ذم الهوى: (ص: ١٠٣ - ١٠٨)، إغاثة اللهفان: (١/ ١٠٤ - ١٠٥).

(٣) هو عطاء المقدسي. أحكام القرآن: (٢/ ٨٤٩).

(٤) رواه ابن الجوزي عن الدولابي. ذم الهوى: (ص:١٠٩)، وانظر روضة المحبين:(ص: ٧٨-٨١).

فالآية الكريمة تتضمن وعدًا لمن عمل الصالحات بأن يحييه الله حياة طيبة، وقد ذكر المفسرون في المقصود بالحياة الطيبة أقوالًا عدّة[1]، منها السعادة، والانشراح بالعبادة، والتلذذ بحلاوة الطاعة، والقناعة، والرضا بالقضاء، والرزق الحلال، والعافية، وغير ذلك.

والظاهر أن اللفظ في الآية عام يحتمل جميع تلك الأقوال.

يقول ابن كثير: (والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت).[2]

وبعد أن أورد عددا من الأقوال المروية عن بعض الصحابة والتابعين قال: (والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله).[3]

ولا شك أن أعظم معالم الحياة الطيبة حياة القلب، سعادة وسرورًا، وطمأنينة وسكونًا، ورضا وقوة يقين، وحلاوة إيمان.

بل ذلك هو أساس الحياة الطيبة وجوهرها، فإذا أضيف إليه سعة رزق، وتمام صحة، وغير ذلك من متاع الحياة وشهواتها المباحة، كان ذلك تكميلًا لا تأسيسًا.[4]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٧١)، زاد المسير: (٤/ ٣٥٧)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١١٥)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٥٣٤)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٨٥)، نظم الدرر: (٤/ ٣٠٩)، أضواء البيان: (٣/ ٣٥٣-٣٥٦).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٨٥).

(٣) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٨٥).

(٤) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٤١٩)، تفسير القاسمي: (١٠/ ١٥٦)، تفسير السعدي: (٣/ ٨٣).

يقول ابن القيم: (فسرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضا، والرزق الحسن، وغير ذلك، والصواب أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره، بالإيمان ومعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة).[1]

ومن الآيات التي تشير إلى أثر العمل الصالح في حياة القلب أيضًا قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: ٢٩].

فالآية الكريمة تبين أن عاقبة التقوى فرقانًا يهبه الله تعالى للعبد.

والفرقان ما يحصل به الفرق بين الحق والباطل.[2]

عن ابن إسحاق[3] في تفسير الآية قال: (أي فصلًا بين الحق والباطل).[4]

---

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٩٩)، وانظر: الداء و الدواء: (ص: ٤٣٦ - ٤٣٧، ٤٦٥).

(٢) انظر: المفردات: (ص: ٣٧٩ - ٣٨٠)، بصائر ذوي التمييز: (٤/ ١٨٦)، فتح القدير: (٢/ ٢٩٩).

(٣) هو محمد بن إسحاق بن يسار، القرشي المدني، مولى قيس المطلبي، محدث، عالم بالتفسير، إمام في السيرة والمغازي، توفي ببغداد سنة إحدى وخمسين ومائة. انظر: تهذيب التهذيب: (٩/ ٣٤ - ٤٠)، طبقات المفسرين للأدنه وي: (ص: ١٩).

(٤) تفسير الطبري: (٩/ ٢٢٦)، وانظر: تفسير البغوي: (٢/ ٢٤٣)، زاد المسير: (٣/ ٢٣٥)، التسهيل: (٢/ ٦٤)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٠١ - ٣٠٢).

وهو قول ابن زيد[1]، ورجحه محمد الأمين.[2]

والمقصود أن من ثمرات التقوى إعمار قلب المؤمن بالهدى، وتسديده بالعلم، بحيث تتحقق له رؤية الحق فيتبعه، وتمييز الباطل فيجتنبه، ووضوح الشبهة فلا تلتبس عليه، ومن ثَمّ يستنير طريقه، ويستبين له السبيل.

يقول الراغب[3] في تفسير الفرقان: (أي نورًا وتوفيقًا على قلوبكم يفرق به بين الحق والباطل).[4]

ولذا استدل ابن جزي بالآية: (على أن التقوى تنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة).[5]

وهذا المعنى المختار لا يتعارض مع بقية المعاني التي أوردها المفسرون بيانًا للفظ الفرقان في هذه الآية الكريمة[6]، إذ هي معان متقاربة[7]، واللفظ

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢٢٦)، زاد المسير: (٣/ ٢٣٥)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٥٢)، فتح القدير: (٢/ ٣٠٠).

(٢) انظر: أضواء البيان: (٢/ ٣٤٩).

(٣) هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني)، المعروف بالراغب، علامة محقق، من مصنفاته: المفردات في غريب القرآن، والذريعة إلى مكارم الشريعة. توفي سنة اثنتين وخمس مائة، وقيل غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء: (١/ ١٥١٣ – ١٥١٤)، الأعلام: (٢/ ٢٥٥).

(٤) المفردات: (ص: ٣٨٠)، وانظر: تفسير الثعالبي: (٢/ ٩٣)، روح المعاني: (٩/ ١٩٦).

(٥) التسهيل: (٢/ ٦٤)، وانظر: نوادر الأصول: (١/ ٢٤٠) فتح القدير: (٢/ ٢٩٩)، تفسير السعدي: (٢/ ١٩٨)، في ظلال القرآن: (٣/ ١٤٩٩).

(٦) من معاني الفرقان التي أوردها المفسرون: المخرج، البيان، النصر، النجاة. انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢٢٤ – ٢٢٥)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤٣)، زاد المسير: (٣/ ٢٣٥)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٠١)، نظم الدرر: (٣/ ٢٠٨).

(٧) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢٢٤).

مطلق يحتملها، ويمكن اجتماعها دون تعارض.[1]

يقول ابن كثير: (وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم، وهو يستلزم ذلك كله، فإن من اتقى الله بفعل أوامره، وترك زواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة).[2]

وقد فسّر عدد من أهل التفسير[3] هذه الآية بالآية الأخرى في سورة الحديد، وهي قول الله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

وذلك باعتبار أن النور المذكور في هذه الآية هو الفرقان المذكور في الآية السابقة.

والمعنى: علما وهدى تفرقون به بين الحق والباطل.

قال القاسمي في تفسير النور: (هو ما يبصر من عمى الجهالة والضلالة، ويكشف الحق لقاصده).[4]

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي: (١٥/ ١٥٣ – ١٥٤)، روح المعاني: (٩/ ١٩٦)، تفسير ابن عاشور: (٩/ ٣٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٠٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٣١٧)، تفسير القاسمي: (١٦/ ٦٢)، أضواء البيان: (٢/ ٣٤٩ – ٣٥٠).

(٤) تفسير القاسمي: (١٦/ ٦٢).

ويقول السعدي: (أي يعطيكم علمًا وهدى ونورًا تمشون به في ظلمات الجهل).[1]

ومن الآيات في هذا المعنى كذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

والمراد بالحياة في هذه الآية الكريمة حياة القلوب وسعادتها، واستنارتها وضياؤها، ونجاتها من الشقاء، وسلامتها من ظلمة الجهل وعمى البصيرة.[2]

وسبيل هذه الحياة هو الاستجابة لله ورسوله، وطاعتهما، وذلك بالتزام مضامين القرآن والسنة، امتثالًا للأمر ومجانبة للنهي.[3]

قال السعدي: (وقوله ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب

(١) تفسير السعدي: (٥/ ١٨٨)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٥/ ٢٨٢)، التفسير القيم: (ص: ٤٨٦).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ١٥)، أحكام القرآن لابن العربي: (٢/ ٨٤٥)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١)، مجموع الفتاوى: (١٠ / ١٠٠)، نظم الدرر: (٣/ ٢٠)، تفسير السعدي: (٢/ ١٩٦).

(٣) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ١٥)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٧)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١).

والروح بعبودية الله تعالى، ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام).[1]

ويقول ابن القيم: (الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله ولرسوله ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء بالأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول).[2]

وقد أورد المفسرون في المراد بالاسم الموصول في قوله: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ أقوالا[3] منها: الإيمان، والقرآن، والحق، والجهاد.

وكل هذه الأقوال داخلة ضمن دائرة الطاعة لأمر الله ورسوله.

ولذا قال القرطبي: (والصحيح العموم كما قال الجمهور).[4]

(١) تفسير السعدي: (٢/ ١٩٦).

(٢) الفوائد: (ص: ١١٩ – ١٢٠)، و انظر: إغاثة اللهفان: (١/ ٦٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٣ – ٢١٤)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤٠)، زاد المسير: (٢/ ٢٣٠).

(٤) تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٧)، وانظر: أحكام القرآن لابن العربي: (٢ / ٨٤٥)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١)، تفسير القاسمي: (٨/ ٣٤). وقد رجح ابن جرير أن المراد: إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق، معتبرا أن الأقوال الأخرى داخلة تحت هذا المعنى. انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٤) ولا تعارض أيضًا، لأن ما جاء به الله تعالى ورسوله ﷺ هو الحق الذي تجب طاعته.

وقال ابن القيم: (وهذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة، وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهرًا وباطنًا).[1]

وبعد أن ذكر قول بعض المفسرين بأن المراد بالحياة الحياة الطيبة الدائمة في الجنة قال: (والآية تتناول هذا كله، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة، والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة، وهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة).[2]

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ فقد أورد ابن الجوزي[3] وغيره[4] من أهل التفسير في المعنى المراد عدة أقوال، ومنها مايلي:

١. أن معنى ذلك أن الله جل شأنه قريب من قلب عبده، محيط به، مطلع عليه، لا يخفى عليه شيء من أمره، أعلنه وأظهره، أو أسره وأضمره.

وعلى هذا فالمعنى مشابه للمعنى الوارد في قول الله سبحانه: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

---

(١) الفوائد: (ص: ١٢٠).

(٢) الفوائد: (ص: ١٢١).

(٣) انظر: زاد المسير: (٣/ ٢٣١).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٥ – ٢١٧)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٩)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٧ – ٢٤٨)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٧ – ٢٩٨)، فتح القدير: (٢/ ٢٩٦).

وهذا القول مروي عن قتادة[1]، واختاره الألوسي.[2]

والمقصود على هذا القول حث المؤمنين على خشية الله تبارك وتعالى، ومراقبته سبحانه.[3]

يقول ابن القيم: (كان هذا أنسب بالسياق، لأن الاستجابة أصلها بالقلب، فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه، فيعلم هل استجاب له قلبه، وهل أضمر ذلك، أو أضمر خلافه).[4]

٢. أن المعنى يحول بين المرء وقلبه بالموت[5]، وذلك باعتبار أن الأجل إذا حان لا يمكن للإنسان تدارك ما فات.

قال ابن عطية: (لما أمرهم بالاستجابة في الطاعة حضهم على المبادرة والاستعجال فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ بالموت والقبض، أي فبادروا بالطاعات. ويلتئم مع هذا التأويل قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٧)، معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٩)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨٢)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٣٩٨)، تفسير القاسمي: (٨/ ٣٦).

(٢) انظر: روح المعاني: (٩/ ١٩١).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤).

(٤) الفوائد: (ص: ١٢٢).

(٥) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٩)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٨)، فتح القدير: (٢/ ٢٩٦).

﴿تُحْشَرُونَ﴾ أي فبادروا بالطاعات، وتزودوها ليوم الحشر).[1]

٣. أن المعنى ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فيبدل الخوف أمنًا، والجبن جرأة وشجاعة.[2]

والمقصود على هذا القول تغليب الرجاء لدى المؤمنين بأن الله سبحانه قادر على تبديل ما في قلوبهم من الخوف من كثرة عدد خصومهم، وعظم عدّتهم، فيربط عليها، ويبث فيها الأمن والسكون، والشجاعة والثبات، والعكس بالنسبة لعدوهم فيجعل ثباتهم ضعفًا، وأمنهم خوفًا، وشجاعتهم جبنًا وخورًا.[3]

٤. أن المعنى يحول بين المرء وعقله بمرض أو آفة، فيصبح منتفي العقل لا يدري ما يعمل، ومن ثَمّ فلا يقدر على فعل الخير، عقوبة له على عناده.

وهذا القول مروي عن مجاهد.[4]

وهو مبني على أن القلب هنا يراد به العقل.[5]

(١) تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٢/ ٢٤١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٨)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨٢)، فتح القدير: (٢/ ٢٩٦).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٢/ ٤٠٩ – ٤١٠)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ١٤٥)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٦)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٨)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٨).

(٥) انظر: تفسير القرطبي: (٧/ ٤٨١)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٢٤٨).

والمقصود الحث على المبادرة إلى الاستجابة، لأن المرء لا يأمن زوال عقله فلا يتمكن من العمل.[1]

وقريب من هذا القول ما نقله الراغب من أن المراد: (أن يهمله ويرده إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئًا).[2]

٥. أن المعنى يحول بين المرء وما يتمناه قلبه ويشتهيه ويهواه.[3]

وهو قول يتجه إلى العموم، ويظهر أن أبا حيان اعتمد عليه في تفسير الآية الكريمة حيث قال: (المعنى أنه تعالى هو المتصرف في جميع الأشياء، والقادر على الحيلولة بين الإنسان وبين ما يشتهيه قلبه، فهو الذي ينبغي أن يستجاب له إذا دعا، إذ بيده تعالى ملكوت كل شيء وزمامه، وفي ذلك حض على المراقبة، والخوف من الله تعالى، والبدار إلى الاستجابة له).[4]

٦. أن المعنى يحول بين المرء وقلبه فلا يقدر على الإيمان أو الكفر إلا بإذن الله تعالى ومشيئته.

وهذا القول مروي عن السدي[5]، واختاره الواحدي.[6]

(١) انظر: زاد المسير: (٣/ ٢٣١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٨).

(٢) المفردات: (ص: ١٤٣).

(٣) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ١٧٨)، زاد المسير: (٣/ ٢٣١).

(٤) تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١).

(٥) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٦ – ٢١٧)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ١٤٥)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٨)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٨).

(٦) انظر: تفسير الواحدي: (١/ ٤٣٦).

ولهذا القول تعلّق واتصال بالقول التالي، ومآلهما واحد.

٧. أن المعنى يحول بين المؤمن والكفر إن أراد هدايته، ويحول بين الكافر والإيمان إن أراد ضلالته، ويحول بين أهل الطاعة والمعصية، ويحول بين أهل المعصية والطاعة.

وهذا القول هو المشهور في تفسير الآية، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والضحاك، وسعيد بن جبير[1]، وغيرهم.[2]

واختاره الفراء[3]، وعزاه ابن القيم إلى جمهور المفسرين.[4]

وعلى هذا القول فالمقصود[5] التخويف والتهديد من ترك الاستجابة لله تعالى والرسول ﷺ، وأن مآل مجانبة الطاعة عدم الأمن من نزول العقاب الإلهي بالحول بين المرء وقلبه، كما جرى للمعاندين من أهل الكفر.

---

(١) هو سعيد بن جبير بن هشام، الأسدي مولاهم الكوفي، إمام حافظ، مقرئ مفسر، من تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهما، روى عنه فأكثر وجوّد، وقرأ عليه القرآن، قتله الحجاج سنة خمس وتسعين. انظر: صفة الصفوة: (٣/ ٧٧ – ٨٦)، سير أعلام النبلاء: (٢/ ١٧٩٥ – ١٨٠١).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٥ – ٢١٦)، معاني القرآن للنحاس: (٣/ ١٤٤)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤١)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٧ – ٢٤٨)، تفسير البحر المحيط: (٤/ ٤٨١)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٧ – ٢٩٨)، نظم الدرر: (٣/ ٢٠٢)، تفسير القاسمي: (٨/ ٣٥)، الاعتقاد: (ص: ١٥٤)، عمدة القاري: (٢٣/ ١٦١).

(٣) انظر: معاني القرآن: (١/ ٤٠٧).

(٤) انظر: الفوائد: (ص: ١٢٢).

(٥) انظر: تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤).

وهذا المعنى يناسب الآيتين السابقتين على هذه الآية، وهما قول الله جلا وعلا: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ – ٢٣].

ووجه المناسبة - كما يقول ابن القيم -: (إنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة، وأبطأتم عنها، فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة، عقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون كقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١].

ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب وإن استجاب بالجوارح.

وفي الآية سر آخر، وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به وهو الاستجابة، وبين القدر والإيمان به. فهي كقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ – ٢٩] وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٥ – ٥٦] والله اعلم).[1]

---

(١) الفوائد: (ص: ١٢٢ – ١٢٣)، وانظر: (ص: ١٦٨).

وقد جعل البخاري الآية الكريمة عنوانًا لأحد أبواب كتاب القدر في صحيحه فقال: (باب (يحول بين المرء وقلبه))[1]، وأورد فيه حديث ابن عمر ﷺ قال: (كثيرًا مما كان النبي ﷺ يحلف [لا، ومقلب القلوب].[2]

قال ابن حجر: (كأنه أشار إلى تفسير الحيلولة التي في الآية بالتقلب الذي في الخبر).[3]

إذ يفيد الحديث أن الله جل وعلا يصّرف قلوب عباده، ويغيّر ما يعتريها من الأحوال والأعراض والإرادات حسب مشيئته وحكمته سبحانه.[4]

قال ابن حجر: (معنى الحديث أن الله يتصرف في قلوب عباده بما شاء لا يمتنع عليه شيء منها ولا تفوته إرادة).[5]

وقال نقلًا عن بعض العلماء في مناسبة الحديث للباب: (مناسبة حديث ابن عمر للترجمة أن الآية نص في أن الله خلق الكفر والإيمان، وأنه يحول بين قلب الكافر وبين الإيمان الذي أمره به، فلا يكسبه إن لم يقدره عليه، بل أقدره على ضده وهو الكفر، وكذا في المؤمن بعكسه، فتضمنت الآية أنه

(١) صحيح البخاري: (٦/ ٢٤٤٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب القدر، باب (يحول بين المرء وقلبه): (٦/ ٢٤٤٠).

(٣) فتح الباري: (٢٤/ ٣٤٨)، وانظر: عمدة القاري: (٢٣/ ١٦١).

(٤) انظر: فتح الباري: (٢٥/ ١٢)، المفردات: (ص: ٤١٢).

(٥) فتح الباري، ط دار الفكر: (١٣/ ٣٧٧).

خالق جميع أفعال العباد خيرها وشرها، وهو معنى قوله: (مقلب القلوب) لأن معناه تقليب قلب عبده عن إيثار الإيمان إلى إيثار الكفر، وعكسه، قال: وكل فعل الله عدل فيمن أضله وخذله، لأنه لم يمنعهم حقًا وجب لهم عليه).[1]

وممن فسّر الآية بالحديث أيضًا الراغب حيث قال: (وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ فإشارة إلى ما قيل في وصفه: يقلب القلوب، وهو أن يلقي في قلب الإنسان ما يصرفه عن مراده لحكمة تقتضي ذلك).[2]

وقد ورد هذا المعنى أيضًا في حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء] ثم قال رسول الله ﷺ [اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك].[3]

قال البيهقي: (أراد به كون القلب تحت قدرة الرحمن).[4]

وقد أورد ابن كثير هذا الحديث بروايات متعددة، معتبرًا إياها مناسبة

(١) فتح الباري: (٢٣/ ٣٤٨ – ٣٤٩)، وانظر: تفسير القرطبي: (٧/ ٢٤٧ – ٢٤٨).

(٢) المفردات: (ص: ١٤٢ – ١٤٣).

(٣) رواه مسلم في كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء: (٣/ ٢٠٤٥). وانظر: مجموع الفتاوى: (٣/ ٤٥).

(٤) الاعتقاد: (ص: ١٥٢).

للآية الكريمة، على عادته في تفسير القرآن بالسنة.[1]

مما يشير إلى ميله إلى أن تقليب الله جل شأنه للقلوب وتصريفه لها الوارد في الحديث، هو الحول بين المرء وقلبه الوارد في الآية.

واعتبر القاسمي هذه الأحاديث أدلة مؤيدة لهذا القول الأخير في تفسير الآية الكريمة.[2]

ومع أن هذا القول هو أقرب الأقوال في تفسير الحول بين المرء وقلبه، إلا أن لفظ الآية محتمل لجميع تلك الأقوال.[3]

ولذا قرر الشوكاني: (أنه لا مانع من حمل الآية على جميع تلك المعاني).[4]

يقول ابن جرير: (وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك أن يقال: إن ذلك خبر من الله ﷻ أنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئًا من إيمان أو كفر، أو أن يعي به شيئًا، أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته، وذلك أن الحول بين الشيء والشيء إنما هو الحجز بينهما، وإذا حجز جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبه إدراكه سبيل، وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك قول من قال: يحول بين المؤمن والكفر

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٩٨)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٤١).
(٢) انظر: تفسير القاسمي: (٨/ ٣٥)، روح المعاني: (٩/ ١٩١).
(٣) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٢١٧)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٥١٤)، تفسير القاسمي: (٨/ ٣٤).
(٤) فتح القدير: (٢/ ٢٩٦)، وانظر: روح المعاني: (٩/ ١٩١ - ١٩٢).

وبين الكافر والإيمان، وقول من قال: يحول بينه وبين عقله، وقول من قال: يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه، لأن الله ﷻ إذا حال بين عبد وقلبه، لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حيل بينه وبينه، ما منع إدراكه به على ما بينت.

غير أنه ينبغي أن يقال: إن الله عمّ بقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ الخبر عن أنه يحول بين العبد وقلبه، ولم يخصص من المعاني التي ذكرنا شيئًا دون شيء، والكلام محتمل كل هذه المعاني، فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له).[1]

المسألة الثالثة: الذكر والاستغفار والتوبة.

لاريب أن ذكر الله جل شأنه سبب مؤثر في حياة القلوب، إذ هو قوتها الذي تتغذّى به، ودواؤها الذي تسلم به من ضعف المرض، وشفاؤها الذي تبرأ به من وهن الاعتلال، إذا فارقها انتكست وبارت، وإذا اشتملته أنست وسعدت، وكان لها جلاء وصقالا.[2]

(١) تفسير الطبري: (٩/ ٢١٧).
(٢) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٣٣٧)، الوابل الصيب: (ص: ٩٢). وأعلى مراتب الذكر وأكملها ما تواطأ عليه القلب واللسان، وأوسطها ما انفرد به القلب، وأدناها الذكر اللساني المجرد.
وهو وإن كان في أصله عبودية قلبية لسانية، غير أن علاقته وثيقة بعبودية الجوارح، فذكر القلب لا يستغنى عنه في كافة أعمال الجوارح، إخلاصًا للنية، وتجريدًا للباعث، واستحضارًا لمعاني العبودية، أما الذكر اللساني فإن معظم عبادات الجوارح مشتمل عليه.
ومن الذكر القلبي التفكر في آيات الله المشهودة، والاستدلال بها على عظمة الله وقدرته سبحانه، واستحضار آلائه ونعمه، وتذكر أسمائه وصفاته ووعده ووعيده، وتعظيم أمره ونهيه، ونحو ذلك.
انظر: تفسير القرطبي: (٩/ ٢٠٧)، المفردات: (ص: ١٨٤)، فتح الباري: (٢٣/ ٢٤٥ - ٢٤٦)، مدارج السالكين: (٢/ ٣٤٣)، الرسالة القشيرية: (ص: ٣١٢)، الوابل الصيب: (ص: ١٦٢ - ١٦٥)، الفوائد: (ص: ٢٣٣).

وقد أشار القرآن العزيز إلى أثر الذكر في حياة القلب، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

فالآية الكريمة تقرر أن ذكر الله[1] سبحانه يثمر في القلب طمأنينة ورضا، وسرورًا وأنسًا، فيسكن ويستقر، ويرتفع عنه الاضطراب، ويزول القلق.[2]

وذلك نوع من أنواع حياة القلب، ولون من ألوانها.

قال ابن جرير في معنى ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾: (تسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله).[3]

وقال ابن كثير: (أي تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيرًا).[4]

يقول الألوسي: (سبب الطمأنينة نور يفيضه الله تعالى على قلوب

(١) في ذكر الله في الآية قولان: (أحدهما: أنه القرآن، والثاني: ذكر الله على الإطلاق) زاد المسير: (٤/ ٢٤١)، والقول الثاني هو الأقرب في المراد، والقول به يعمّ الأول، والعلم عند الله تعالى. انظر: نظم الدرر: (٤/ ١٤٩ – ١٥٠)، فتح القدير: (٣/ ٨٤).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٣١١)، مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٤ – ٤٠٥)، في ظلال القرآن: (٤/ ٢٠٦٠).

(٣) تفسير الطبري: (١٣/ ١٤٥)، وانظر: الدر المنثور: (٤/ ٦٤٢).

(٤) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥١٢).

المؤمنين بسبب ذكره، فيذهب ما فيها من القلق والوحشة ونحو ذلك).[1]

وقد ورد هذا المعنى في حديث رسول الله ﷺ: [لا يقعد قوم يذكرون الله ﷻ إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده].[2]

والسكينة بمعنى الطمأنينة.[3]

وإذا استقرت الطمأنينة في القلب كان ذلك إيذانًا بفتح باب السعادة والأنس، ولذا قال الحسن البصري: (تفقدوا الحلاوة في الصلاة وفي القرآن وفي الذكر، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق).[4]

وقال مالك بن دينار: (ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله ﷻ، فليس شيء من الأعمال أخف مؤونة منه، ولا أعظم لذة، ولا أكثر فرحة وابتهاجًا للقلب).[5]

(١) روح المعاني: (١٣/ ١٥٠)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ٤٩ – ٥٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر: (٣/ ٢٠٧٤).

(٣) ذكر النووي هذا القول واستحسنه. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢١).

(٤) حلية الأولياء: (١٠/ ١٤٦)، وانظر: شعب الإيمان: (٥/ ٤٤٧)، الرسالة القشيرية: (ص: ٣١٥)، مدارج السالكين: (٢/ ٣٣٧).

(٥) الوابل الصيب: (ص: ١٥٢)، والعبارة الأولى في شعب الإيمان: (١/ ٤٥٦)، وذكرها ابن رجب في جامع العلوم والحكم: (٢/ ٥٢٠)، وهي في صفة الصفوة: (٣/ ٢٧٣) بلفظ (ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله تعالى).

وقد أوصى الله تعالى نبيه ﷺ بأن يكون من الذاكرين المصلين، ليكون الذكر والصلاة زادًا يعينه على تحمل الأذى، وسبيلًا إلى سلامة قلبه من عوالق الضيق والانقباض، فينكشف الغم، ويزول الهم والحزن، في مقابل ما يثيره زعماء الكفر من الشبهات، وما يواجهونه به من صور المجابهات.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٨].

قال محمد الأمين: (ترتيبه جل وعلا الأمر بالتسبيح والسجود على ضيق صدره ﷺ دليل على أن الصلاة والتسبيح سبب لزوال ذلك المكروه).[1]

وذكر الله تعالى يحرك القلوب إلى خالقها جل وعلا، ويوثق علاقتها وصلتها ببارئها سبحانه[2]، فيزيد إيمانها، ويربو خشوعها، وتزول قسوتها، ويعظم إخباتها، وذلك علامة حياتها.

عن الشعبي قال: (إن الذكر ينبت الإيمان في القلب، كما ينبت الماء الزرع).[3]

---

(١) أضواء البيان: (٣/ ٢٠٤ - ٢٠٥)، وانظر: تفسير الطبري: (١٤/ ٧٣)، تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٧٦)، تفسير الفخر الرازي: (١٩/ ٢١٥ - ٢١٦)، تفسير ابن كثير: (٢/ ٥٦٠)، نظم الدرر: (٤/ ٢٤١)، تفسير أبي السعود: (٣/ ٩٣).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (١/ ٩٥ - ٩٦).

(٣) تعظيم قدر الصلاة للمروزي: (٢/ ٦٣٦)، وهو مروي عن ابن مسعود ﷺ أيضًا. انظر: الفرقان: (ص: ٣٥)، مجموع الفتاوى: (١١/ ٢١٦).

وعن الحسن البصري، وقد شكا إليه رجل قسوة قلبه، قال: (أذبه بالذكر).[1]

قال ابن القيم: (لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله ﷻ).[2]

ولما كان الذكر عاملًا في حياة القلب شبه رسول الله ﷺ من يذكر ربه بالحي، ومن عدم هذا الذكر بالميت.

فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: [مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت].[3]

وفي رواية مسلم: [مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت].[4]

قال ابن القيم: (جعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحي، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت، وهو القبر.

---

(١) الوابل الصيب: (ص: ١٣٦)، روضة المحبين: (ص: ١١٩)، وهو في شعب الإيمان: (١/ ٤٥٦) بلفظ (أدبه بالذكر)، وفي رواية أحمد في الزهد: (ص: ٣٢٢) بلفظ (أدنه من الذكرى) وهي ألفاظ متقاربة الرسم والمعنى.

(٢) الوابل الصيب: (ص: ١٣٦).

(٣) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله ﷻ: (٥/ ٢٣٥٣).

(٤) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد: (١/ ٥٣٩).

وفي اللفظ الأول جعل الذاكر بمنزلة الحي، والغافل بمنزلة الميت.

فتضمن اللفظان أن القلب الذاكر كالحي في بيوت الأحياء، والغافل كالميت في بيوت الأموات، ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، كما قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور[1]

إن المؤمن إذا ذكر ربه سبحانه، كان ذلك داعيًا له إلى المحاسبة، وباعثًا إلى التفكر والتبصر بقلبه، كما قال الله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قال البغوي: (أي يبصرون مواقع خطاياهم بالتذكر والتفكر).[2]

ومن ثم يصدون كيد الشيطان، ويزيلون ما مسّهم من إغرائه، فيبقى لقلوبهم صفاؤها وحياتها.

ولهذا استدل الغزالي بالآية الكريمة على: (أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر، وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا).[3]

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٤٢ – ٣٤٣)، وانظر: فتح الباري: (٢٣/ ٢٤٧).

(٢) تفسير البغوي: (٢/ ٢٢٥)، وانظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٥٧ –١٥٩)، التسهيل: (٢/ ٥٩)، نظم الدرر: (٣/ ١٧٦)، مصائب الإنسان: (ص: ٦٣).

(٣) إحياء علوم الدين: (٣/ ١٧)، وانظر: الغنية: (١/ ١٠١)، مصائب الإنسان: (ص: ٦٣).

ومن ثمرات هذا الذكر لله تعالى المبادرة إلى التوبة، واللجوء إلى الاستغفار مما قد يقع فيه المؤمن من نوع إثم أو تقصير، فتحدث التوبة أثرها في صقل القلب وجلائه من صدأ الهوى والغفلة، ومن قذارة المعصية والخطيئة.

عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: [إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة[1] سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع[2] واستغفر صقل[3] قلبه] الحديث.[4]

والمعنى أن التوبة والاستغفار تزيل ما أصاب القلب من أثر المعصية، فتجلوه، وتعيد إليه صفائه ونوره ونقائه، ويبقى محفوظًا بإذن الله من السواد

---

(١) (أي أثر قليل كالنقطة) النهاية في غريب الحديث: (٥/ ١١٤)، وانظر: تحفة الأحوذي: (٨/ ٣٣٢)، بلوغ الأماني: (١٩/ ٣٣٥).

(٢) نزع: أي كف وأقلع وانتهى عن الذنب. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٤١)، مقاييس اللغة: (ص: ٩٨٥).

(٣) صقل الشيء، صَقْلًا، وصِقالا: أي جلاه ونظفه وأزال ما عليه من وسخ أو سواد. انظر: مقاييس اللغة: (ص:٥٤٧)، لسان العرب: (٤/ ٢٤٧٣)، تحفة الأحوذي: (٨/ ٣٣٢)، بلوغ الأماني: (١٩/ ٣٣٥).

(٤) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ويل للمطففين: (٥/ ٤٣٤)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة، واللفظ له، في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب: (٢/ ١٤١٨)، وأحمد في المسند: (٢/ ٢٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان: (٥/ ٤٤٠)، والحاكم في المستدرك: (٢/ ٥٦٢)، وصححه، ووافقه الذهبي. وانظر: الترغيب والترهيب: (٤/ ٩٢)، وحسنه غير واحد من المعاصرين. انظر: تحفة الأحوذي: (٨/ ٣٣٢) (الهامش)، ذم الهوى: (ص: ٧٩) (الهامش).

المتتابع، المفضي إلى موت القلب وظلمته، والعياذ بالله تعالى.

عن أبي الدرداء[1] ﷺ قال: (إن لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله ﷻ).[2]

قال ابن القيم: (لا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك صدئ، فإذا ذكر الله جلاه، وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر).[3]

ولقد كان من هدي رسولنا ﷺ كثرة الاستغفار واستمراره، وذلك لشدة حرصه عليه الصلاة والسلام على صيانة قلبه الشريف.

يقول ﷺ: [إنه ليغان[4] على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة

(١) هو عويمر بن عامر، على اختلاف في اسمه واسم أبيه، أبو الدرداء الأنصاري الخزرجي، أسلم يوم بدر، وشهد أحدًا والمشاهد بعدها، ولاه معاوية ﷺ قضاء دمشق في خلافة عمر ﷺ، من علماء الصحابة وفضلائهم، توفي سنة اثنتين وثلاثين. انظر: الاستيعاب: (٣/ ١٢٢٧ – ١٢٣٠)، الإصابة: (٤/ ٦٢١ – ٦٢٢).

(٢) شعب الإيمان: (١/ ٣٩٦).

(٣) الوابل الصيب: (ص: ٨٩)، وانظر: الفتح الرباني: (ص: ١٠٦)، إغاثة اللهفان: (١/ ١٠٣).

(٤) الغين والغيم: السحاب، والكلمتان في الأصل تدلان على ستر شيء لشيء، يقال: غين على الرجل: غطي عليه، وكل شيء يغشى شيئا: فقد غين عليه. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤٠٣)، مقاييس اللغة: (ص: ٧٨٠)، لسان العرب: (٥/ ٢٣٣٠)، قال النووي في شرح صحيح مسلم: (١٧/ ٢٣) (الغين والغيم بمعنى، والمراد هنا ما يتغشى القلب)، و انظر الشفا: (٢/ ٤٦٥).

مرة].[1]

قال ابن الأثير: (أراد ما يغشاه من السّهو الذي لا يخلو منه البشر، لأن قلبه أبدًا كان مشغولًا بالله تعالى، فإن عرض له وقتًا ما عارض بشري يشغله من أمور الأمة والملة ومصالحهما، عدّ ذلك ذنبًا وتقصيرًا، فيفزع إلى الاستغفار).[2]

وقال المناوي: (والمراد أنه يقول هذا تصفية للقلب، وإزالة للغاشية، وهو وإن لم يكن له ذنب، لكنه يجب أن يكون دائم الحضور، فإذا التفتت نفسه إلى ما هو صورة حظ بشري، كأكل وشرب ونحو ذلك مما قد يخل بكمال الحضور، عدّه ذنبًا، واستغفر الله منه).[3]

يقول ابن تيمية: (أخبر أنه يستغفر الله استغفارًا يزيل الغين عن القلب، فلا يصير نكتة سوداء، كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لا تصير رينا).[4]

وبالاستغفار الدائم والتوبة المستمرة يصفو القلب مما يمكن أن يصيبه من خلل أو فساد.

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، من رواية الأغر المزني ﷺ: (٣/ ٢٠٧٥).

(٢) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤٠٣)، وانظر أقوالا أخرى في توجيه المراد في شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢٣ – ٢٤)، فتح الباري: (٢٣/ ١١٩).

(٣) فيض القدير: (٦/ ٣٥٩)، وانظر: الشفا: (٢/ ٤٦٥)، بلوغ الأماني: (١٤/ ٢٣١).

(٤) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٢٨٣).

يقول ابن القيم: (القلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته، وهو الإيمان وأوراد الطاعات، وإلى حمية عن المؤذي الضار، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له، وذلك بالتوبة النصوح، واستغفار غافر الخطيئات).[1]

المسألة الرابعة: التعلّق بالقرآن الكريم.

سمّى الله تبارك وتعالى القرآن روحًا، فقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وهو تقرير إلهي بأن القرآن سبب في حياة القلوب، يوجب نورها وأنسها وسعادتها.[2]

ذلك أن المؤمن حين يتصل بالقرآن بصدق فإن آياته البينات تهديه سواء السبيل، وتضيء له معالم الطريق، (فتريه الحق حقًا والباطل باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال، والغيّ والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياة وسعة وانشراحًا، وبهجة وسرورًا).[3]

وقد أخبرنا الله جل شأنه أن القرآن الكريم ـ تلاوة وترتيلًا، سماعًا وإدراكًا، تأملًا وتدبرًا، فهمًا واتعاظًا، استجابة وقبولا - شفاء للقلوب: يداويها من عللها وأدوائها، ويعالجها من أمراضها وأسقامها، ويضيء لها

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٥٧).

(٢) انظر: نظم الدرر: (٦/ ٦٥٢)، مدارج السالكين: (٣/ ١٩٩).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٣٤٣)، وانظر: (١/ ٣٦٦ – ٣٦٨).

ظلمتها، ويبصرها من عماها، ويهديها بنوره من الضلالة، ويرتفع بها عن الجهالة، فلا تتأثر بالشبهة، ولا تتدنّس بالمنكر من الشهوة.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

قال السمعاني: (المراد من الشفاء هو الشفاء من الجهل بالعلم، ومن الضلالة بالهدى، ومن الشك باليقين).[1]

وقال ابن كثير: (أي يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله).[2]

فإذا برئت القلوب من أمراضها، وشفيت من أدوائها، وسلمت من وحشتها وظلمتها، تمتعت حينئذ بطيب الحياة، ونور العلم، ولذة الهداية، وذاقت طعم الإيمان، ووجدت حلاوته.

وقد أخبرنا الله تعالى أيضًا أن القرآن ينمّي الخشوع:

(١) تفسير السمعاني: (٣/ ٢٧٢)، وانظر: تفسير الواحدي: (٢/ ٩٥٧)، تفسير ابن عطية: (٣/ ١٢٦، ٤٨٠)، نظم الدرر: (٤/ ٤١٨، ٦/ ٥٨٢)، إغاثة اللهفان: (١/ ٥٢).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٥٩)، وانظر: (٢/ ٤٢١)، تفسير البغوي: (٣/ ١٣٣)، تفسير القرطبي: (٨/ ٢٢٦)، الداء و الدواء: (ص: ٣٧)، إغاثة اللهفان: (١/ ٩٩ – ١٠٢).

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].(١)

ويلين القلوب:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

ويزيد في الإيمان واليقين:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

والمقصود أن المؤمن كلما سمع آية صدق بها، وتقبّلها، فيربو بذلك إيمانه، ويعظم يقينه.

ولذا قال جندب بن عبد الله ﷺ(٢): (تعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ١٨١)، تفسير البغوي: (٣/ ١٤١)، زاد المسير: (٥/ ٦٩)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٦٨).

(٢) هو جندب بن عبد الله بن سفيان، أبو عبد الله البجلي، روى عدة أحاديث، سكن الكوفة ثم البصرة، كان يلقب بجندب الخير، وجندب الفاروق. انظر: الاستيعاب: (١/ ٢٥٦ - ٢٥٧)، الإصابة: (١/ ٦١٣ - ٦١٤).

القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا).(١)

وذلك باعتبار أن (القرآن يعطي العلم المفصل فيزيد الإيمان).(٢)

وحين يقرأ المؤمن القرآن، أو يستمع إليه، عن إيمان ويقين، وانقياد وقبول، فيهتدي به في ظلمة الأهواء المخالفة، ويدفع به الشبهات والآراء المعارضة، ويزيل به عن نفسه الشكوك والريبة، أثمر ذلك طمأنينة في القلب وسكينة.(٣)

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة..].(٤)

وعن البراء بن عازب ﷺ قال: (بينما رجل من أصحاب النبي ﷺ

(١) رواه ابن ماجة في المقدمة، باب في الإيمان: (١/ ٢٣)، والبيهقي: شعب الإيمان: (١/ ٧٦)، وانظر: الإيمان لابن منده: (١/ ٣٧٠)، اعتقاد أهل السنة: (٥/ ٩٤٦ - ٩٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى: (٤/ ٣٨)، وانظر: تفسير الطبري: (١١/ ٧٢)، نظم الدرر: (٣/ ١٨٤، ٤٠٤).

(٣) انظر: مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٥، ٤٠٧).

(٤) الحديث رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر: (٣/ ٢٠٧٤) وقد نقل النووي تفسير السكينة هنا بالطمأنينة والوقار، واستحسن هذا القول. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٧/ ٢١).

يقرأ[1]، وفرس له مربوط في الدار ، فجعل ينفر ، فخرج الرجل فنظر فلم ير شيئًا، وجعل ينفر، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: [السكينة تنزلت للقرآن]).[2]

أما المعرض عن كتاب الله العزيز فقد توعده الله جل شأنه بالمعيشة الضنك، المشتملة على موت القلب وشقائه.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

والذكر في الآية القرآن[3]، والمعنى: أعرض عن الذكر الذي أنزلته، وهو القرآن المشتمل على الحق والهدى.

(١) جاء في بعض الروايات أنه يقرأ سورة الكهف. انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: (٣/ ١٣٢٣)، وكتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف: (٤/ ١٩١٤)، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن: (١/ ٥٤٧ – ٥٤٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤/ ١٨٣١)، ومسلم بنحوه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن: (١/ ٥٤٧ – ٥٤٨).

وقد اختار النووي في معنى السكينة هنا (أنها شيء من مخلوقات الله تعالى، فيه طمأنينة ورحمة، ومعه الملائكة) شرح النووي على صحيح مسلم: (٦/ ٨٣)، وانظر: فتح الباري: (١٩/ ٦٩).

(٣) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢٣٥)، تفسير النسفي: (٢/ ٣٨٤)، تفسير القاسمي: (١١/ ٢٠١ – ٢٠٢)، مفتاح دار السعادة: (١/ ٥٥)، مدارج السالكين: (٢/ ٤٠٥).

والضنك: الضيق.[1]

وللمفسرين في المراد بهذا العيش الضيق أقوال[2] متقاربة، لا يكذب بعضها بعضا، و يمكن أن تشملها الآية الكريمة كما يقول محمد الأمين وغيره.[3]

وفي مقدمة أنواع العيش الضنك ضيق القلب ونكده، واضطرابه وقلقه، وافتقاده إلى اللذة والسعادة، والسكون والطمأنينة.

فإن المرء إذا أعرض عن القرآن وجفاه وجانب هديه، كان بمعزل عن الإيمان الصحيح، واليقين الصادق، وما يثمره ذلك من معاني الصبر والرضا، والتوكل والقناعة، متلبسًا بالشكوك والأوهام، ملتصقًا بالحرص على المتاع والشهوة، قلقًا على العاقبة الدنيوية والمآل القريب، فلا يجد بذلك الحياة الرضيّة، ولا يذوق المعيشة الهانئة.[4]

يقول ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: (﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله،

(١) انظر: غريب القرآن لليزيدي: (ص: ٢٥٢)، المفردات: (ص: ٣٠٣).

(٢) انظر: تفسير البغوي: (٣/ ٢٣٥)، تفسير القرطبي: (١١/ ١٧١)، تفسير ابن كثير: (٣/ ١٦٨ – ١٦٩).

(٣) انظر: تفسير الثعالبي: (٣/ ٤٢)، أضواء البيان: (٤/ ٥٤٧ – ٥٤٨).

(٤) انظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ١٣٠)، تفسير القرطبي: (١١/ ١٧١)، تفسير النسفي: (٢/ ٣٨٥)، تفسير القاسمي: (١١/ ٢٠٣ – ٢٠٨)، في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣٥٥).

وإن تنعّم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة).[1]

ومما يدل على هذا المعنى أيضًا حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلبي[2]، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا] قال: فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: [بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها].[3]

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ١٦٨).

(٢) قال البنا: (أي أسألك أن تجعل القرآن كالربيع الذي يرتع فيه الحيوان، وكذلك القرآن ربيع القلوب، والمراد أن يجعل قلبه مرتاحًا إلى القرآن، مائلًا إليه، راغبًا في تلاوته وتدبره، منورًا لبصيرته) بلوغ الأماني: (١٤/ ٢٦٣)، وقال ابن الأثير: (جعله ربيعًا له لأن الإنسان يرتاح قلبه في الربيع من الأزمان ويميل إليه) النهاية في غريب الحديث: (٢/ ١٨٨)، وانظر: شفاء العليل: (ص: ٥١٥)، الفوائد: (ص: ٥٢).

(٣) رواه أحمد في المسند: (١/ ٣٩١)، وابن حبان في صحيحه: (٣/ ٢٥٣)، وابن السني في عمل اليوم والليلة: (ص: ٣٠١)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٦٩٠) وقال: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه من أبيه)، ورواه أيضًا الطبراني والبزار وأبو يعلى كما في مجمع الزوائد: (١٠/ ١٩٦) قال الهيثمي: (رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان)، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٥٣٥).

فالحديث الشريف يتضمن تقريرًا بأن في القرآن العظيم غذاء للقلوب ونورًا وانشراحًا، به تحيا وتستضيء، وبه تجد السعادة والطمأنينة والسكون.

المسألة الخامسة: الالتجاء إلى الله تعالى والتضرع إليه بالدعاء.

من دواعي حياة القلب أن يديم المؤمن التوجّه إلى الله جل وعلا بالدعاء أن يشرح صدره، ويثبت قلبه، ويسلّمه من مرض الشبهة والشهوة.

ومن الدعاء الوارد في هذا الباب ما تضمنته الآية الكريمة: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

ففي هذه الآية تعليم للمؤمنين دعاء ربهم سبحانه أن يثبت قلوبهم على الحق والهدى، وأن يحفظها من الانحراف إلى سبل الضلال والباطل.[1]

قال ابن كثير: (أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه).[2]

وأثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الذين يسألون ربهم سلامة قلوبهم.

يقول الله جل شأنه: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

(١) انظر: معاني القرآن للنحاس: (١/ ٣٥٥)، تفسير ابن عطية: (١/ ٤٠٤)، تفسير القرطبي: (٤/ ١٥)، روح المعاني: (٣/ ٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٤٨)، وانظر: تفسير الطبري: (٣/ ١٨٧)، تفسير البغوي: (١/ ٢٨١)، تفسير الفخر الرازي: (٧/ ١٩٢).

فهم يدعون بأن يجعل الله تعالى قلوبهم خالية من العداوة والبغضاء، صافية من الحقد والغش والحسد لإخوانهم من المؤمنين.[1]

وكان من دعاء نبي الله موسى عليه السلام حين بعثه الله تعالى إلى فرعون ما تضمنته الآية الكريمة: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾ [طه: ٢٥].

وشرح الصدر بمعنى بسطه وفسحه وتوسعته ليكون قابلًا للحق، مستنيرًا بالإيمان واليقين، متحليًا بالصبر والثبات، معمورًا بالسكينة والطمأنينة، والثقة والتوكل.[2]

وفي هذا الدعاء من موسى عليه السلام إبراز لمعنى عبوديته لربه جل وعلا، وافتقاره إلى عونه، واضطراره إلى رعايته تبارك وتعالى.

وكان من دعاء رسولنا ﷺ: [اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك][3]، كما كان يكثر عليه الصلاة والسلام أن يقول: [يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك].[4]

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: (١٨/ ٢٣)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٨١)، المفردات: (ص: ٣٦٥)، والمراد بالذين جاءوا من بعدهم: التابعون من بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة. انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٣٢٠).

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط: (٦/ ٢٣٩)، المفردات: (ص: ٢٦١)، روح المعاني: (١٦/ ١٨١ – ١٨٢).

(٣) رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء: (٣/ ٢٠٤٥).

(٤) رواه الترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه وغيره في كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن: (٤/ ٤٤٨)، وفي كتاب الدعوات: (٥/ ٥٣٨)، وأحمد في المسند: (٣/ ١١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان: (١/ ٤٧٥)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٧٠٧) وصححه، ووافقه الذهبي، قال الألباني: (هو على شرط مسلم) مشكاة المصابيح للتبريزي: (١/ ٣٧).

فرسول الله ﷺ، وهو أتقى الناس وأكثرهم لله خشية، يلجأ إلى الله جل شأنه بالدعاء أن يصرف قلبه إلى الطاعة والإنابة، وأن يثبته على الحق والهدى، وفي ذلك تعليم منه عليه الصلاة والسلام لأصحابه رضي الله عنهم، ولأمته من بعده.

قال ابن حجر: (خص نفسه بالذكر إعلامًا بأن نفسه الزكية إذا كانت مفتقرة إلى أن تلجأ إلى الله سبحانه، فافتقار غيرها ممن هو دونه أحق بذلك).[1]

وكان من دعائه ﷺ أيضًا طلب سلامة القلب: [اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا] الحديث.[2]

ويطلب من ربه سبحانه نقاء القلب وصفائه: [اللهم اغسل قلبي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس[3]] الحديث.[4]

ويسأله جل شأنه نور القلب وضيائه: [اللهم اجعل في قلبي نورًا]

---

(١) فتح الباري: (١٣/ ٣٧٧).

(٢) رواه الترمذي من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه في كتاب الدعوات، باب ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام: (٥/ ٤٧٦)، والنسائي – واللفظ له – في كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر: (٣/ ٥٤)، وأحمد في المسند: (٤/ ١٢٣)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٦٨٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٤٨١).

(٣) الدنس بفتح النون القذر والوسخ. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ١٣٧).

(٤) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب التعوذ من فتنة الفقر: (٥/ ٢٣٤٤).

الحديث.[1]

ويستعيذ به جل وعلا من غفلة القلب وقسوته: [اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها].[2]

ويسأله تبارك وتعالى أن يحلّي قلبه ويملأه بمعاني العبودية، ويجمّله بزينة الطاعة والتقوى: [رب اجعلني لك شكّارًا، لك ذكّارًا، لك رهّابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا، إليك أوّاهًا[3] منيبًا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي[4]، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدّد لساني، واسلل سخيمة[5] صدري].[6]

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل: (٥/ ٢٣٢٨)، ومسلم بنحوه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه: (١/ ٥٢٦).

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل: (٣/ ٢٠٨٨).

(٣) أي متضرعًا. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٨٢).

(٤) الحوبة الإثم، والمعنى امح وأزل إثمي وخطيئتي. انظر: غريب الحديث للخطابي: (١/ ٦٠٧)، بلوغ الأماني: (١٤/ ٢٨٥).

(٥) السخيمة الحقد والحسد ونحوها، وسلها إخراجها وتصفية القلب منها. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٥١)، بلوغ الأماني: (١٤/ ٢٨٥).

(٦) رواه أبو داود من حديث ابن عباس ﷺ، في كتاب الوتر، باب ما يقول الرجل إذا سلم: (٢/ ١٧٥ – ١٧٦)، والترمذي – واللفظ له – في كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ: (٥/ ٥٥٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي: عمل اليوم والليلة: (ص:٣٩٥)، وابن ماجة في كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ: (٢/ ١٢٥٩)، وأحمد في المسند: (١/ ٢٢٧)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٧٠١)، وصححه، ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد: (ص: ٢٢٩)، وصححه ابن القيم: الوابل الصيب: (ص: ٢٥٣)، والألباني في تخريج الأدب المفرد: (ص: ٢٢٩)، وانظر: مشكاة المصابيح: (٢/ ٧٦٦).

فهذا الحديث الشريف يشتمل على مجموعة من العبادات القلبية، يسأل رسول الله ﷺ ربه سبحانه وتعالى أن يوفقه لتحقيقها والعمل بها، ومن ذلك الشكر، والذكر، والرهبة، والانقياد، والإخبات، والتضرع، والإنابة، والتوبة، وسلامة القلب من أنواع الغل.

وفي حديث آخر يجمع ﷺ بين سؤال الخشية التي تحجز عن المعصية، وسؤال اليقين الذي يخفف أثر المصيبة: [اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا].[1]

إن ما سبق من دعائه عليه الصلاة والسلام يؤكد حرص رسول الله ﷺ على تحقيق معاني العبودية لله سبحانه، وكمالها في شخصه الشريف عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك صدق اللجوء إلى ربه جل وعلا، والاحتماء بجنابه العظيم، والتضرع إليه في هداية قلبه، وتسديد لسانه، وحفظ جوارحه ﷺ.

كما يتضمن تعليما منه عليه الصلاة والسلام لأصحابه رضوان الله عليهم ولأمته من بعده أن يلوذوا بربهم جل شأنه في طلب الحفظ والرعاية والهداية.

(١) الحديث رواه الترمذي وحسنه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في كتاب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد: (٥/ ٥٢٨)، والنسائي: عمل اليوم والليلة: (ص: ٣١٠)، والحاكم: المستدرك: (١/ ٧٠٩) وصححه، ووافقه الذهبي، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٧٠)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٢/ ١٣٣)، وصححه بعض المعاصرين، انظر: الوابل الصيب: (ص: ٢٣٣)، تحفة الأحوذي: (٩/ ١٨).

المسألة السادسة: إغلاق منافذ الشيطان والاستعاذة بالله منه.

أكد الله جل وعلا في أكثر من موضع في كتابه العزيز على عظم عداوة الشيطان للإنسان، ومن ذلك قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

ومن عداوة الشيطان الظاهرة دأبه على إضلال المؤمنين وإغوائهم، وتزيين الكفر والمعصية في قلوبهم، والوسوسة بالشر في صدروهم، ومحاولته المتجدّدة في الاستحواذ عليهم، وإيقاعهم في حبائله وأباطيله، فيصدهم عن عبودية الله جل شأنه، وينأى بهم عن الاستقامة على شرعه ودينه، لتصبح قلوبهم محلًا للغفلة، ومقرًا للشبهة، ومرتعًا للشهوة، ناسية للحق، تاركة للهدى، غافلة عن الذكر.

يقول الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ (١)﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٢)﴾ [الحجر: ٣٩].

(١) المعنى: يخوفكم الفقر حال الإنفاق في الخير، ويأمركم بالفحشاء، وهو كل ما فحش ذكره وعظم قبحه من الأقوال والأفعال، والمراد عموم المعاصي. انظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٣٦٤)، المفردات: (ص: ٣٧٦).

(٢) تعهد إبليس أن يزين لبني آدم الباطل، ويحسّن لهم الشهوة والمعصية، وأن يعمل على إضلالهم. انظر: تفسير ابن عطية: (٣/ ٣٦٢)، زاد المسير: (٤/ ٢٩٣)، المفردات: (ص: ٢٢٢).

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ (١) فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥].

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ (٢) ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ (٣) وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧].

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا (٤) كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢].

وقد أوضح رسول الله ﷺ خطورة الشيطان على قلب العبد، وسريان وساوسه وخطراته إليه، وإحاطته به من جميع جوانبه(٥)، وذلك في قوله

(١) أصل الوسوسة الهمس والكلام والصوت الخفي. انظر: المفردات: (ص: ٥٣٧)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٣٨١)، التسهيل: (٤/ ٢٢٧)، تفسير المعوذتين: (ص: ٥٦ – ٥٧).

(٢) أي غلب على قلوبهم على وجه التملك والاستيلاء. انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٤٥٨)، تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٨١)، المفردات: (ص: ١٤٢)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٣٢٨).

(٣) أي الشياطين يصدّون الكافرين عن طريق الهدى. انظر: زاد المسير: (٧/ ٩٨).

(٤) في هذا اللفظ ثلاث قراءات: ١ – جِبِلاً: بكسر الجيم والباء مع تشديد اللام، وبها قرأ نافع وعاصم. ٢ – جُبْلا: بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام، وبها قرأ أبو عمرو وابن عامر. ٣ – جُبُلا: بضم الجيم والباء مع تخفيف اللام، وبها قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي. والمعنى على اختلاف القراءات واحد: الخلق الكثير أو الجماعة العظيمة. انظر: سراج القارئ: (ص: ٣٣٢ – ٣٣٣)، حجة القراءات: (٦٠١ – ٦٠٢)، زاد المسير: (٦/ ٢٧٧)، تفسير القرطبي: (١/ ٣٢ – ٣٣)، المفردات: (ص: ٩٤)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٥٧٦).

(٥) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٨)، تفسير المعوذتين: (ص: ٦٣ – ٦٤).

عليه الصلاة والسلام لرجلين من الأنصار: [إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم[1]، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءا. أو قال: شيئًا].[2]

وفي قوله ﷺ: (إن للشيطان لمة[3] بابن آدم و للملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، و أما لمة الملك فإيعاد بالخير و تصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، و من وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء).[4]

---

(١) في المراد قولان: أحدهما: أن الكلام على ظاهره، وأن الله تعالى جعل للشيطان قدرة على ذلك. والثاني: أن المقصود الإعلام بخطورة الشيطان، وكثرة وسوسته، وشدة إغوائه، وأنه يشترك مع الدم في عدم المفارقة للإنسان. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١٤/ ١٥٧)، فتح الباري: (٩/ ١٢٣، ١٣/ ٦٩)، والقول الأول أقرب. انظر: منهاج العابدين: (ص: ٤٤ – ٤٦)، تفسير المعوذتين: (ص: ٦٢)، فيض القدير: (٢/ ٣٥٨).

(٢) رواه البخاري من رواية صفية بنت حيي رضي الله عنها في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده: (٣/ ١١٩٥)، ومسلم بنحوه في كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤى خاليا بامرأة..: (٢/ ١٧١٢).

(٣) اللمّة: بمعنى الدنو والقرب. انظر: غريب الحديث لابن الجوزي: (٢/ ٣٣٢)، والمراد القرب من قلب العبد بالخطرات والهمات، فما كان من الخير فهو من الملك ويسمى إلهامًا، وما كان من الشرّ فهو من الشيطان ويسمى وسوسة. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٢٧٣)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٤١٤)، إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٦)، مدارج السالكين: (١/ ٤٤–٤٦)، و انظر وجوه الفرق بين إلهام الملك و إلقاء الشيطان في الروح: (ص: ٣١٧).

(٤) رواه الترمذي من رواية ابن مسعود رضي الله عنه في كتاب تفسير القرآن، باب و من سورة البقرة: (٥/ ٢١٩–٢٢٠) وقال: (هذا حديث حسن غريب)، والطبري: (٣/ ٨٨)، والبيهقي: شعب الإيمان: (٤/ ١٢)، وابن حبان في صحيحه: (٣/ ٢٧٨)، وصححه الألباني في تخريج إغاثة اللهفان: (١/ ٢٠٧).

هذه المعالم للحرب الشيطانية حين تتكشّف للمؤمن الصادق، ويلحظها بقلبه، أفاد من ذلك في إعلان العداوة للشيطان، ومبارزته بالمجاهدة والمباينة والمخالفة، كما أمر الله تعالى ووصّى، فيستعدّ لوساوسه، ويتنبّه لكيده، ويتأهب لإلقاءاته، ويحترز من حبائله وغوائله، ويحذر من الانقياد لإغوائه وخطواته، ويقضي عمره متوجّسًا من أسر الشيطان لقلبه في عقبة من عقبات الطريق، فيميته أو يسقمه.[1]

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٦٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨ - ١٦٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

---

(١) انظر: المسائل في الزهد: (ص: ٢٦ – ٢٧)، إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٩)، مدارج السالكين: (١/ ١٧٥–١٧٨)، مصائب الإنسان: (ص:٨٢).

وخطوات الشيطان سبله ومسالكه في الإغواء والإضلال، وتزيين الباطل، والحض على المعصية.

فالآيات الكريمة تتضمن نهيا للناس عمومًا، والمؤمنين خصوصًا، عن طاعة الشيطان، وقبول خطراته ووساوسه، وتنفيرًا عن سلوك سبيله، والسير في طريقه الذي يدعو إليه، وتحذيرًا من متابعته فيما يأمر به من السوء، أو الاستجابة لما ينهز إليه من الضلال.[1]

ومن المهمّ لمراغمة الشيطان وحماية القلب من كيده، العمل على سدّ منافذه على القلب، وإغلاق الأبواب التي تفتح له طريقا إليه.

إذ (مثال القلب مثال حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن، فيملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله، ومواضع ثلمه[2]).[3]

ولذا أمر الله تعالى بالكلمة الطيبة والخطاب الحسن، ومجانبة الكلام الخشن الغليظ، حتى لا يجد الشيطان ثغرة لإلقاء العداوة بين المؤمنين، ومدخلًا للإفساد بينهم، وتهييج الشر، وإثارة الخصومة.[4]

(١) انظر: تفسير ابن عطية: (١/ ٢٣٧)، تفسير القرطبي: (٢/ ١٤٠، ١٢/ ١٣٧)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٧٥)، تلبيس إبليس لابن الجوزي: (ص: ٣٢ – ٣٣).

(٢) جمع ثلمة بضم الثاء، وهي فرجة المكسور والمهدوم من البناء وغيره. انظر: المشوف المعلم: (١/ ١٣٦)، ترتيب القاموس المحيط: (١/ ٤١٦).

(٣) إحياء علوم الدين: (٣/ ٤٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (١٥/ ١٠٢)، معاني القرآن للنحاس: (٤/ ١٦٥)، تفسير القرطبي: (١٠/ ١٨٠)، المفردات: (ص: ٤٩٠)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٥).

يقول الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

ومن أهم العوامل المؤثرة في إغلاق مداخل الشيطان على القلب تقوى الله جل وعلا وذكره تبارك وتعالى.

ذلك أن القلب إذا تكدّر أو خبث بغلبة المعصية من جهة، وبالغفلة عن ذكر الله تعالى من جهة أخرى، أصبح محلًا قابلًا لإغواء الشيطان ووسوسته، وكان التجافي عن التقوى، والغفلة عن الذكر، من دواعي الهجوم الشيطاني على القلب، بالاعتقادات الباطلة، والإرادات الفاسدة، بغية إسقامه أو إماتته بالكلية.[1]

والشهوات هي سلاح الشيطان يقاتل به المؤمن للاستيلاء على قلبه، والاستحواذ عليه، وهي المرعى الذي يجد الشيطان فيه مجالًا خصبًا لرعيه وقوته وكسبه، فإذا طهرت القلوب من الشهوات، وما تتلبّس به من ذميم الصفات، وعمرتها التقوى، وأنارها الذكر، نجت وسلمت من أن تكون مستقرًا للشيطان، ينشر فيها إلقاءاته، ويبسط فيها سلطانه.[2]

وهذا مراد الغزالي في قوله: (القلب الخالي عن الهوى لا يدخله

(١) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ١٢، ١٥)، مجموع الفتاوى: (٤/ ٣٤).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ٤٩، ٥٠)، إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٦٩)، مصائب الإنسان: (ص: ٥٩ – ٦٠).

الشيطان، ولذا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله، ولذلك سلط الله عليه الشيطان).[1]

وقال إبراهيم بن مفلح[2]: (والله ﷻ لم يجعل للشيطان على العبد سلطانًا حتى جعل له العبد سبيلًا بطاعته، فجعل الله حينئذ له عليه سلطانًا وقهرًا).[3]

وبعد أن ذكر العبودية الاختيارية قال: (وهذه العبودية قد يخلو الإنسان منها تارة فيتسلط عليه الشيطان).[4]

ويعتبر الغزالي العلاقة بين الذكر والتقوى كالعلاقة بين الدواء والحمية، فلابد من تقديم الاحتماء بالتقوى، ثم إردافه بدواء الذكر، فيفر الشيطان عن القلب.

يقول الغزالي: (الذكر: الدواء، والتقوى احتماء، وهي تخلي القلب عن الشهوات، فإذا نزل الذكر قلبًا فارغًا عن غير الذكر اندفع الشيطان، كما

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٧).

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن مفلح، أبو إسحاق الدمشقي، الراميني الأصل، شيخ الحنابلة في عصره، من مصنفاته: طبقات أصحاب الإمام أحمد، وشرح المقنع، توفي سنة ثلاث وثمان مائة. انظر: الأعلام: (١/ ٦٤).

(٣) مصائب الإنسان: (ص: ٥٩).

(٤) مصائب الإنسان: (ص: ٦٠).

تندفع العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الأطعمة).[1]

فإذا تعامى العبد عن ذكر الله تعالى تهيأت للشيطان على القلب ثغرة، وانفتح له باب ومدخل، يلج خلاله إلى القلب فيفسد.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦].

فالآية الكريمة تقرر أن من أعرض عن ذكر ربه تبارك وتعالى، وتغافل عن وعده ووعيده، فلم يتقلّب بين خوف العقاب ورجاء الثواب، وتجاهل هديه المنزل أمرًا ونهيًا، فلم يمتثل ولم يخضع، كان ذلك الإعراض والتجاهل سببًا في تمكين الشيطان وتسليطه على العبد، إضلالًا وإغواء وصدًا عن السبيل.[2]

وبالمقابل فإذا ذكر العبد ربه كفّ الشيطان وانجفل، إذ الذكر هو الضدّ الذي يعالج وسوسته، ويطارده كما يطارد النور الظلام.[3]

قال ابن القيم: (بالذكر يصرع العبد الشيطان، كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان).[4]

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ٥٠).

(٢) انظر: التسهيل: (٤/ ٢٨ – ٢٩)، تفسير البحر المحيط: (٨/ ١٥)، المفردات: (ص: ٣٣٨)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٢٨).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٨).

(٤) مدارج السالكين: (٢/ ٣٣٧)، وانظر: (٢/ ٣٣٨).

ولذا وصف الشيطان بالخنوس في قول الله جل وعلا: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ (١) ﴾ [الناس: ٤].

فالوسواس والخناس وصفان متقابلان للشيطان بحسب حال القلب، فإذا غفل العبد عن ذكر الله تعالى كان وسواسًا بالنسبة إليه، وإذا ذكر العبد ربه كان خنّاسًا بالنسبة إليه.(٢)

عن ابن عباس ﷺ قال: (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس).(٣)

وعن مجاهد وقتادة نحوه.(٤)

قال ابن قتيبة في تفسير الآية الكريمة: (إبليس يوسوس في الصدور والقلوب، فإذا ذكر الله خنس: أي أقصر وكفّ).(٥)

---

(١) الخناس صيغة مبالغة من خنس يخنس خنسًا وخنوسًا، إذا انقبض وتوارى، وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور، وأصله التأخر إلى الوراء. قال الراغب: (أي الشيطان الذي يخنس، أي ينقبض إذا ذكر الله تعالى) المفردات: (ص: ١٦٥)، وانظر: معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٣٨١)، تفسير المعوذتين: (ص: ٦١)، مصائب الإنسان: (ص: ١٣)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ١١٧).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٥٤٠)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٧٥)، تفسير المعوذتين: (ص: ٦٠).

(٣) تفسير الطبري: (٣٠/ ٣٥٥)، وانظر: الدر المنثور: (٨/ ٦٩٤)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٧٥).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٣٥٥ – ٣٥٦)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٧٥).

(٥) تفسير غريب القرآن: (ص: ٥٤٣).

ويقول ابن القيم: (إن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وانبسط عليه، وبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها(١)، فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به انخنس وانقبض، كما يخنس الشيء ليتوارى، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضًا تجمع ورجوع، وتأخر عن القلب إلى خارج، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء).(٢)

ويعصم الله تبارك وتعالى قلوب عباده المتقين من أن يتمكن الشيطان منها استحواذًا وتملّكًا، بسبب ذكرهم لربهم سبحانه.

يقول الله جل شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ

---

(١) ذكر ابن القيم في موضع آخر أن الآية وصفت الشيطان: (بأعظم صفاته، وأشدها شرًا، وأقواها تأثيرًا، وأعمها فسادًا، وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية، فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنّيه ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها، ويخيلها له في خياله، حتى تميل نفسه إليها، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل له ويخيل ويمني ويشهي، وينسي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددا لهم وعونًا، فإن فتروا حركهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة، فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة) تفسير المعوذتين: (ص: ٦٣ – ٦٤) مع اختصار يسير، وانظر: مصائب الإنسان: (ص: ١٣).

(٢) تفسير المعوذتين: (ص: ٦١)، وانظر: الوابل الصيب: (ص: ٨٣).

ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فالآية الكريمة تخبر أن الملازمين للتقوى حين ترد على قلوبهم وساوس الشيطان وإغراءاته، تذكروا وعد الله ووعيده، وتفكروا في عظمته وقدرته وآلائه، واستحضروا ما يجب عليهم من الامتثال لأمره ونهيه، وعرفوا أن ما ألمّ بهم هو من كيد الشيطان وتلبيسه، فيحصل لهم بذلك التذكر بصيرة في قلوبهم، يبصرون بها الهدى، ويميزون بها الحق، ويحدّدون مواطن الرجس و الزلل، ومن ثَمّ لا تجد تلك الخطرات والوساوس لديهم قبولًا، ولا تتحول إلى عزيمة تتبعها حركة وعمل في دائرة المعصية.[1]

ومن أهم السبل أيضًا في صيانة القلب من وساوس الشيطان اللجوء إلى الله سبحانه، وطلب النجاة منه، والاعتصام والاستعاذة به، والامتناع بقدرته وقوته جل وعلا.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦].

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٥٧ – ١٥٩)، تفسير القرطبي: (٧/ ٢٢٢)، التسهيل: (٢/ ٥٩)، تفسير أبي السعود: (٣/ ٣٠٩)، تفسير القاسمي: (٧/ ٣٢٧)، تفسير المنار: (٩/ ٥٤٣).

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ[1] ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧ – ٩٨].

﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ١ – ٦].

ففي هذه الآيات الكريمة تعليم للمؤمنين بأن يتجهوا إلى الله جل وعلا بالدعاء، أن يسلّمهم من وساوس الشيطان وهمزاته وحضوره إليهم بالسوء، ووصية لهم باللجوء إلى ربهم سبحانه، استعاذة واعتصامًا به من نزغات الشيطان ومداخله وإفساده، إذ هو تبارك وتعالى المتصف بكمال الربوبية للثقلين، خلقًا وقدرة وملكًا وسلطانًا، ومن ثَمّ فهو جل شأنه من يملك حفظ قلوب أهل العبودية من حضور الشياطين واستحواذهم، وهو القادر على كف شرورهم، وردّ كيدهم وإغوائهم.[2]

(١) همزات جمع هَمْزة، وأصل اللفظ النخس والدفع والطعن، والمراد بهمزات الشياطين دفع الإنسان بالإغواء إلى سبل الضلال، فهو في معنى الوساوس والنزغات. انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: ٣٠٠)، معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٢١)، زاد المسير: (٥/ ٣٣٣)، تفسير القرطبي: (١٢/ ٩٩)، التسهيل: (٣/ ٥٦)، بصائر ذوي التمييز: (٥/ ٣٧، ٣٤٣)، مصائب الإنسان: (ص: ٢٢)، إغاثة اللهفان: (١/ ١٨٧).

(٢) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٤٨٩)، تفسير ابن عطية: (٢/ ٤٩١)، زاد المسير: (٥/ ٣٣٣)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٠١).

وقد علم رسول الله ﷺ أصحابه أن يواجهوا عداوة الشيطان بذكر الله تبارك وتعالى، وبالاستعاذة به سبحانه من كيد الشيطان وشره.

يقول عليه الصلاة والسلام في حديث طويل: [إن الله أمر يحي بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات، أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها] وفيه: [وآمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سِرَاعًا، حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز[1] نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله].[2]

قال الشوكاني: (في الحديث دليل على أن الذكر يحرز صاحبه من الشيطان، كما يحرز الحصن الحصين من لجأ إليه من العدو، فالذاكر في أمان من تخبط الشيطان ووسوسته إليه، وإضلاله إياه، ومن سلم من الشيطان الرجيم فقد كفي من أخطر الخطرين، وهما الشيطان والنفس).[3]

---

(١) أحرز الشيء: أي حفظه وصانه عن الأخذ. انظر: غريب الحديث للخطابي: (٢/ ١٥)، النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٦٦).

(٢) رواه الترمذي من حديث الحارث الأشعري ﷺ في كتاب الأدب، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة: (٥/ ١٤٨ – ١٤٩) وقال هذا حديث حسن صحيح غريب، وأحمد في المسند بنحوه: (٤/ ٢٠٢)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٢٠٤ – ٢٠٥) وصححه. قال ابن كثير في تفسيره: (١/ ٥٨): (هذا حديث حسن)، وانظر: الترغيب والترهيب: (١/ ٣٦٩)، الدر المنثور: (١/ ٤٤٠)، تعظيم قدر الصلاة: (١/ ١٧٨)، وقد صحح الحديث أيضًا غير واحد من المعاصرين. انظر: الوابل الصيب: (ص: ٥٣) (الهامش)، تحفة الأحوذي: (٧/ ٢٧٩) (الهامش).

(٣) تحفة الذاكرين: (ص: ١٩)، وانظر: الغنية: (ص: ٩٨ – ١٠١)، مكاشفات القلوب: (ص: ٣٥٧)، تلبيس إبليس: (ص: ٤٦ – ٤٧).

عن أبي هريرة ﷺ: (أن أبا بكر الصديق ﷺ[1] قال: يا رسول الله: مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت قال: [قل: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه[2]] قال: [قلها إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك].[3]

ففي الحديث الشريف توجيه باللجوء إلى الله ﷻ والاستعاذة بجنابه من شر العدوين: النفس والشيطان.

---

(١) هو عبد الله بن عثمان بن عامر، أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، القرشي التيمي، خليفة رسول الله ﷺ، وأفضل الأمة بعده عليه الصلاة والسلام، أول من أسلم، شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، مناقبه عظيمة مشهورة، توفي سنة ثلاث عشرة. انظر: صفة الصفوة: (١/ ٢٣٥ – ٢٦٧)، الإصابة: (٤/ ١٤٤ – ١٥٠).

(٢) في اللفظ وجهان: أحدهما بكسر الشين وسكون الراء، والمعنى ما يدعو إليه الشيطان ويزيّنه من الشرك بالله تعالى، والثاني بفتح الشين والراء، أي حبائله ومصائده. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٤٦٧)، تحفة الذاكرين: (ص: ٦٣).

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح: (٥/ ٣١١)، والترمذي بنحوه في كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى: (٥/ ٤٦٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي: عمل اليوم والليلة: (ص: ٤٦٥)، وأحمد في المسند: (١/ ١٠ – ١١)، والدارمي في سننه: (٢/ ٦٠٠ – ٦٠١)، وابن حبان في صحيحه: (٣/ ٢٤٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة: (١/ ٦٦١، ٦٦٢)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٦٩٤ – ٦٩٥) وصححه، ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني في تخريجه: (ص: ٤٤١، ٤٤٢)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ٥٢٤ – ٥٢٥).

المبحث الثالث

ثمرات عبودية القلب

لعبودية القلب ثمرات عظيمة الشأن، وعواقب جليلة القدر، ونتائج كبيرة الأثر، في حياة المؤمن العاجلة والآجلة.

والقرآن الكريم مليء بالدلائل والشواهد والإشارات إلى تلك الثمرات المباركات، أذكر بعضها في المطلبين التاليين:

المطلب الأول: الثمرات الأخروية.

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: النجاة من النار وأهوال القيامة.

أخبر الله سبحانه بأن من أخلص العبادة له ﷻ سينجو من عذاب النار.

قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات: ٣٨ - ٤٠].

فعباد الله المخلصون[1] الذين أخلصوا قلوبهم لله فيما يفعلونه من أنواع الطاعات لا يذوقون العذاب، بل هم ناجون سالمون منه.[2]

---

(١) القراءة بكسر اللام (المخلِصين) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر. انظر: سراج القارئ: (ص: ٢٥٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٥/ ٥٢)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٦).

ووجل القلوب وخشيتها من ربها سبحانه، ورقتها وخشوعها له جل وعلا، سبب في الوقاية من النار.

قال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾[الطور: ٢٥ - ٢٧].

فمن نعيم أهل الجنة لقاؤهم وتساؤلهم فيما بينهم، وتذاكرهم عن أحوالهم في الدنيا وما حصل لهم فيها.(١)

ومن ذلك ما اشتملت عليه الآيات الكريمات من تقريرهم بأن العلة في نجاتهم من العذاب هو ما اتصفوا به في حياتهم من الإشفاق، الذي هو أعلى مراتب الخوف وأقواها(٢): ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ (أي كنا في دار الدنيا ونحن بين أهلينا نخاف من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه).(٣)

ومن ثم جازاهم الله تعالى بأن أسبغ عليهم رحمته ومغفرته، وأجارهم من النار، وحال بينهم وبين العذاب: ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧].(٤)

(١) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤١٥)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٦٤).
(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ١٩٠)، أضواء البيان: (٧/ ٦٩٠).
(٣) تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٤٣)، وانظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ٤٧)، زاد المسير: (٧/ ٢٢٠).
(٤) أي عذاب جهنم، وأصل السموم بفتح السين الريح الحارة التي تنفذ في المسام. انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤١٥)، المفردات: (ص: ٢٥٠)، التحفة القليبية: (ص: ١٣٦).

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على عباده الأبرار، فوصفهم بتصفية نياتهم وإخلاصها لله جل وعلا، وبالخوف منه سبحانه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾[الإنسان: ٥ - ١٠].

تضمنت هذه الآيات الكريمات أن الأبرار: ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ أي منتشرًا فاشيًا ممتدًا(١)، والمقصود يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظيمة.

كما تضمنت الآيات أنهم يعملون ما يعملونه من أنواع البر لسببين:

الأول: قصد ثواب الله تعالى، وطلب مرضاته، فنياتهم خالصة عن شوائب إرادة الدنيا.

الثاني: الخوف من المقام بين يدي الله ﷻ يوم القيامة ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾.

وأصل العبوس قطوب الوجه من الضيق(٢)، وصف به يوم القيامة لأن

(١) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٥٠٢)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٢٨)، المفردات: (ص: ٣١٥).
(٢) انظر: المفردات: (ص: ٣٢٣).

الوجوه تعبس فيه.[1]

والقمطرير: الشديد الصعب الغليظ.[2]

وفي اجتماع الوصفين دلالة على شدة ما يحصل في ذلك اليوم من الأهوال والأمور العظام، وهو ما يخافه ويخشاه الأبرار.

قال ابن كثير: (أي إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير).[3]

ولما كان الخوف من الله تعالى وصفًا لأولئك الأبرار، كان جزاؤهم بسبب ذلك أن يقيهم ربهم شر ذلك اليوم الذي كانوا يخشونه، وأن يدفع عنهم ما فيه من الشدائد والأهوال، وأن يحفظهم من عذاب النار[4] -رحمة منه جل وعلا-: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين الوقاية والتخلية من الشر، وبين العطاء والتحلية بحسن الوجوه وبياضها وجمالها، وفرح القلوب وبهجتها

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٢٥٩)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٥٠٤)، تفسير البغوي: (٤/ ٤٢٩)، تفسير القرطبي: (١٩/ ٨٨).

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن: (ص: ٥٠٢)، معاني القرآن للزجاج: (٥/ ٢٥٩)، تفسير الواحدي: (٢/ ٥٨)، المفردات: (ص: ٤١٣)، التحفة القليبية: (ص: ١٩١).

(٣) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٥٥).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (٤/ ٤٢٩)، تفسير أبي السعود: (٩/ ٧٢)، روح المعاني: (٢٩/ ١٩٧)، تفسير القاسمي: (١٧/ ٩).

وسرورها.[1]

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة إشارة إلى عظم شأن عبودية القلب، وأثرها في النجاة من المتاعب والمشاق، والشرور والمكاره التي تقع في ذلك اليوم العظيم.

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: [سبعة يظلهم الله تعالى في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه].[2]

فالحديث الشريف يعد أصنافًا سبعة - تمييزًا لهم وتخصيصًا، وتشريفًا لهم وتكريما - بالأمن يوم الخوف، وذلك بالاستظلال في ظل عرش الله جل شأنه[3]، حين يقف الناس للحساب، وتدنو منهم الشمس، فيشتد الكرب،

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٩/ ٢١٢ - ٢١٣)، تفسير السمعاني: (٦/ ١١٧)، زاد المسير: (٨/ ١٤٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين: (٢/ ٥١٧)، ومسلم بنحوه في كتاب الزكاة، فضل إخفاء الصدقة: (١/ ٥١).

(٣) رجح ذلك ابن حجر في الفتح: (٤/ ٢٦) مستدلًا برواية أخرى حسن إسنادها، وانظر شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ١٢١)، عمدة القاري: (٥/ ١٧٧)، سبل السلام: (٢/ ١٤٠).

ويعظم الخطب.

ومن تلك الأصناف: [رجل قلبه معلق في المساجد].

يقبل على المساجد، ويحضر الجماعات، يغادرها ببدنه، لكن قلبه معلق بها، ملازم لها حبا وشوقا[1]، ينتظر متى يعود، فكينونته بالمسجد وارتباطه بها مستمر ومتحقق في الحالين، ولذا ورد في رواية أخرى لمسلم: [ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه].[2]

وتلك عبودية للقلب عظيمة لمن وفقه الله جل وعلا.[3]

ومنهم أيضًا: [رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه].

اجتمعا بسبب الحب في الله، وصدق كل منهما في محبة صاحبه ابتغاء ثواب الله، وداوما على التآخي الصادق، والمحبة الخالصة، دون أن يؤثر عليها شيء من حظوظ الدنيا .

قال ابن حجر: (والمراد أنهما داوما على المحبة الدينية، ولم يقطعاها بعارض دنيوي، سواء اجتمعا حقيقة أم لا، حتى فرق بينهما الموت).[4]

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ١٢١)، فتح الباري: (٤/ ٢٧)، عمدة القاري: (٥/ ١٧٨).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، فضل إخفاء الصدقة: (١/ ٧١٦).

(٣) انظر: فتح الباري: (٤/ ٢٥).

(٤) فتح الباري: (٤/ ٢٧)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ١٢١)، عمدة القاري: (٥/ ١٧٩).

وتلك أيضًا عبودية للقلب خالصة[1] ويسيرة، وجزاؤها لمن هداه الله إليها عظيم.

ومنهم أيضا: [رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله].

والمراد أنها دعته إلى فاحشة الزنا، وهي تجمع بين الحسب والنسب، والجاه والمال، والجمال والحسن، ومن ثم توفر عاملان يهيئان سبيل الفاحشة، أولهما أنها هي التي دعته، فلا يحتاج الأمر إلى طلب ومراودة، وثانيهما أنها متصفة بما يرغّب في النساء عادة.

ومع تلك المغريات أبى ولم يطاوع، ينهزه إلى هذا الامتناع خوف وخشية [قال إني أخاف الله]، وسواء قال ذلك بلسانه اعتذارًا لها وزجرًا، وهو الظاهر[2]، أو قالها بقلبه لينهى نفسه عن هواها[3]، فإن صبره يدل على ما استولى على قلبه من العبودية خوفًا وإشفاقًا وتقوى، فأثابه الله تعالى بأن جعله في ظل عرشه آمنًا يوم القيامة.

وممن يظلهم الله جل شأنه أيضًا: [رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه].

---

(١) انظر: فتح الباري: (٤/ ٢٥).

(٢) انظر: فتح الباري: (٤/ ٢٧).

(٣) قال المناوي: (ولا مانع من الجمع) فيض القدير: (٤/ ٨٩).

والمقصود وصفه بالمبالغة في إخفاء الصدقة[1]، إشارة إلى عظم ما في قلبه من العبودية المتمثلة في إرادة الله تعالى وحده بصلاح العمل، وإخلاص النية والقصد عن شوائب الرياء وإرادة الثناء.

ومنهم أيضا: [رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه].

ويبرز هنا جانبان من عبودية القلب:

أولهما: خشية الله تعالى، والخوف من وعيده وعقابه، والذي تسبّب في فيضان العين بالبكاء، ويستوي في ذلك كون الذكر المراد هنا لسانيًا أو قلبيًا.

وثانيهما: الإخلاص وصدق المقصد، بالحرص على أن يكون العمل خفيًا عن أعين الناس.[2]

ولذا قال النووي: (فيه فضيلة البكاء من خشية الله تعالى، وفضل طاعة السر لكمال الإخلاص فيها).[3]

وحين يدخل بعض المسلمين النار بذنوبهم وخطاياهم، فإن ما في قلوبهم من الإيمان والعبودية يكون سببًا في خروجهم منها برحمة رب العالمين.

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ١٢٢)، فتح الباري: (٤/ ٢٩)، عمدة القاري: (٥/ ١٧٩).

(٢) انظر: فتح الباري: (٤/ ٢٩ – ٣٠).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ١٢٣).

فمن حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: [يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة].[1]

ومن حديث أنس ﷺ أيضًا، عن رسول الله ﷺ، في شأن الإذن له عليه الصلاة والسلام بالشفاعة يوم القيامة، وفيه: [فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال[2] شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل] ثم يؤذن له عليه الصلاة والسلام في الشفاعة ثانية: [فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل] وفي الثالثة: [فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى[3] مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل] الحديث.[4]

قال ابن تيمية: (هذا وأمثاله من النصوص المستفيضة عن النبي ﷺ يدل أنه لا يخلد في النار من معه شيء من الإيمان والخير وإن كان قليلًا).[5]

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٦/ ٢٦٩٦).

(٢) أي المقدار من الوزن. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٢١٧)، عمدة القاري: (١/ ١٦٩).

(٣) (التكرار للتأكيد) فتح الباري: (١٣/ ٤٧٥).

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم: (٦/ ٢٧٢٧ – ٢٧٢٨)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها: (١/ ١٨٣).

(٥) مجموع الفتاوى: (١٢/ ٤٩٢)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ٣١)، عمدة القاري: (١/ ١٧٠).

المسألة الثانية: الفوز بالجنة ونعيم الآخرة.

قرر القرآن الكريم أن الذين ينتفعون في الآخرة فيدركون سعادتها هم أصحاب القلوب السليمة، التي خلصت مما يعارض العبودية لله جل وعلا.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

والمتصفون بإخلاص العبادة هم الموعودون بالجنة وما فيها من العطايا والكرامة والنعيم.

قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الصافات: ٤٠ - ٤٣].[2]

ووُعد بالجنة أيضًا من تذكر وقوفه بين يدي الله يوم القيامة للسؤال والحساب[3]، فأوجد ذلك في قلبه خوفًا وخشية، أثمرت انتهاء عن المعصية، وإقبالًا على الطاعة.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

---

(١) انظر: تفسير ابن عاشور: (١٩/ ١٤٩ - ١٥٠).

(٢) انظر: تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ١١١).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٧/ ١٤٥، ٣٠/ ٤٨)، تفسير ابن عطية: (٥/ ٤٣٥)، تفسير القرطبي: (١٩/ ١٣٥)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٦٩)، فتح الرحمن: (ص: ٣٣٥).

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وزيادة في التكريم تقرب الجنة للمتقين، أصحاب القلوب الوجلة المنيبة، التائبة المخلصة المقبلة على الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣].

وتضمنت الآيات الكريمات وصفهم بخشية الرحمن بالغيب.

وقد ذكر بعض المفسرين في المراد بهذا الوصف أنهم يخافون الله ويخشونه وهم لم يروه جل وعلا[1]، إشارة إلى عظم إيمانهم.

وذكر آخرون أن المراد خشيتهم لله ﷻ في السر والخلوة، حين لا تراهم أعين الناس[2]، إشارة إلى عظم إخلاصهم.

وكلا القولين محتمل، والجمع بينهما ممكن.

هؤلاء الخائفون المنيبون جازاهم الله تبارك وتعالى بالخلود في الجنة، سالمين من العذاب والآفات، آمنين من العوارض والهموم، يلقون فيها من النعيم ما يشتهون، ويجدون فوق ما يطلبون ويأملون، مما لا يخطر لهم على بال.[3]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٣)، تفسير البغوي: (٤/ ٢٢٥)، تفسير القرطبي: (١٧/ ١٥).

(٢) انظر: التسهيل: (٤/ ٦٥)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٢٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٣)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٢١)، مدارج السالكين: (١/ ٣٢٩).

قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٣٤ - ٣٥].

وخشية الله جل شأنه هي الطريق الموصلة إلى ما هو أعظم جزاء من خلود الجنان: رضا الرحمن سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧ - ٨].

يقول ابن عاشور[1]: (والإشارة إلى الجزاء المذكور في قوله: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ يعني أن السبب الذي أنالهم ذلك الجزاء هو خشيتهم الله).[2]

وقال ابن كثير: (أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبده كأن يراه، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه).[3]

---

(١) هو محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة، عضو المجمع العربي بدمشق والقاهرة، من مصنفاته: التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ومقاصد الشريعة الإسلامية، توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاث مائة وألف. انظر: الأعلام: (٦/ ١٧٤).

(٢) تفسير ابن عاشور: (٣٠/ ٤٨٦)، وانظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٢٦٥)، روح المعاني: (٣٠/ ٦٤).

(٣) تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٣٨).

أما الصابرون على الالتزام بأمر الله، فقد وعدهم الله سبحانه بحسن الجزاء، وطيب العاقبة، وتحية الملائكة عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

قال ابن كثير: (أي تدخل عليهم الملائكة من ههنا وههنا، للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين، مهنئين بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام).[1]

والباء في ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ سببية، أي هذا الجزاء بسبب صبركم.[2]

يقول أبو حيان: (لما كان الصبر هو الذي نشأ عنه تلك الطاعات السابقة ذكرت الملائكة أن النعيم السرمدي إنما هو حاصل بسبب الصبر).[3]

وقال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٢].

يقول ابن كثير: (أي بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوأهم جنة وحريرًا، أي منزلًا رحبًا، وعيشًا رغدًا، ولباسًا حسنًا).[4]

---

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٥١٠)، وانظر: تفسير القرطبي: (٩/ ٢٠٥)، زاد المسير: (٤/ ٢٤٠).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: (٥/ ١٨)، تفسير ابن عاشور: (١٣/ ١٣٢).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٥/ ٣٨٧).

(٤) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٥٥).

وذكر جل وعلا أن الصابرين على المكاره والابتلاء والأذى في سبيل الله وإقامة شرعه، هم الفائزون في الآخرة بالكرامة والنعيم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٩ - ١١١].(١)

ولما أورد القرآن الكريم صفات عباد الرحمن قرر في ختامها أن صبرهم على مشقة تلك التكاليف، وتحملهم عناء فعل الصالحات وترك الشهوات المحرمات، هو السبب في نيلهم المنازل الرفيعة، والدرجات العالية في الجنة.(٢)

---

(١) قرأ الكسائي بكسر الهمزة في ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ وقرأ الباقون بفتحها. انظر: سراج القارئ: (ص: ٣٠١)، النشر: (٢/ ٢٤٧).

وعلى الفتح فالمعنى: جزيتهم بصبرهم الفوز، وعلى الكسر فالمفعول الثاني محذوف و ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ استئناف على سبيل المدح لهم والتقرير بفوزهم. انظر: حجة القراءات: (ص: ٤٩٢ - ٤٩٣)، زاد المسير: (٥/ ٣٣٦)، أضواء البيان: (٥/ ٨٢٩)، ولا تعارض في المعنى بين القراءتين.

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٩/ ٥٤)، تفسير القرطبي: (١٣/ ٥٦ - ٥٧)، روح المعاني: (١٩/ ٥٣ - ٥٤)، تفسير ابن عاشور: (١٩/ ٨٤).

قال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٥ - ٧٦].

وفي حديث رسول الله ﷺ ما يبرز عظم شأن عبودية القلب، وأثرها في بلوغ الجنة ونيل نعيمها.

ومن ذلك حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [.. فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة].(١)

قال النووي: (معناه أخبرهم أن من كانت هذه صفته فهو من أهل الجنة).(٢)

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا: (١/ ٦٠).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (٣/ ٢٣٧)، ولابن رجب تعليق جيد على معنى هذا الحديث وما في معناه، ومن ذلك قوله: (قال طائفة من العلماء: إن كلمة التوحيد سبب مقتض لدخول الجنة وللنجاة من النار، لكن له شروط، وهي الإتيان بالفرائض، وموانع، وهي إتيان الكبائر.

وقالت طائفة: هذه النصوص المطلقة جاءت مقيدة بأن يقولها بصدق وإخلاص، وإخلاصها وصدقها يمنع الإصرار معها على معصية.

فإن تحقق القلب بمعنى: (لا إله إلا الله) وصدقه فيها، وإخلاصه بها، يقتضي أن يرسخ فيه تألّه الله وحده، إجلالًا وهيبة ومخافة ومحبة ورجاء وتعظيمًا وتوكلًا، ويمتلئ بذلك، وينتفي عنه تألّه ما سواه من المخلوقين، ومتى كان كذلك لم يبق فيه محبة ولا إرادة ولا طلب لغير ما يريده الله ويحبه ويطلبه، وينتفي بذلك من القلب جميع أهواء النفوس وإرادتها ووساوس الشيطان. =

وعن أنس ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [إذا كان يوم القيامة شفعت، فقلت: يارب أدخل الجنة من كان في قلبه خردلة، فيدخلون، ثم أقول: أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء].(١)

وذلك ضمن شفاعته عليه الصلاة والسلام في إخراج أهل التوحيد من النار، وإدخالهم الجنة.(٢)

والمراد: (أنه يدخل الجنة من كان في قلبه أقل قدر من الإيمان).(٣)

ومن تلك الأحاديث التي تشير إلى ثمرة عبودية القلب أيضًا حديث أنس بن مالك ﷺ قال: (كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء،

= ومن أحب لهواه وأبغض له فإلهه هواه، وكذلك من أطاع الشيطان في معصية الله فقد عبده.

فتبين بهذا أنه لا يصح تحقيق معنى قول: (لا إله إلا الله) إلا لمن لم يكن في قلبه إصرار على محبة ما يكرهه الله، ولا على إرادة ما لا يريده الله، ومتى كان في القلب شيء من ذلك، كان ذلك نقصًا في التوحيد، وهو من نوع الشرك الخفي.

وأن من دخل النار من أهل هذه الكلمة فلقلة صدقة في قولها، فإن هذه الكلمة إذا صدقت طهرت من القلب كل ما سوى الله، فمن صدق في قول: (لا إله إلا الله) لم يحب سواه، ولم يرج إلا إياه، ولم يخش أحدًا إلا الله، ولم يتوكل إلا على الله، ولم تبق له بقية من آثار نفسه وهواه، ومتى بقي في القلب أثر لسوى الله، فمن قلة الصدق في قولها) جامع العلوم والحكم: (١/ ٥٢٢ – ٥٢٦ مختصرًا).

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم: (٦/ ٢٧٢٧).

(٢) انظر: فتح الباري: (٢٤/ ٢٥٧، ٢٧٧).

(٣) عمدة القاري: (١/ ١٧٠).

فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم في الصلاة فقرأ بها، افتتح بقل هو الله أحد، حتى يفرغ منها، ثم يقرأ بسورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى، قال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بها فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرونه أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر. فقال: [يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك، وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة؟] فقال: يا رسول الله إني أحبها. فقال رسول الله ﷺ: [إن حبها أدخلك الجنة].(١)

فحبّ هذا الصحابي ﷺ لتلك السورة الجليلة، وهو عمل قلبي، كان سببا في البشارة بالجنة.

قال ابن حجر: (عبر بالفعل الماضي في قوله: [أدخلك] وإن كان دخول الجنة مستقبلًا تحقيقًا لوقوع ذلك).(٢)

---

(١) رواه البخاري تعليقًا في كتاب صفة الصلاة، باب الجمع بين السورتين في الركعة..: (١/ ٢٦٨ – ٢٦٩)، و الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة الإخلاص: (٥/ ١٦٩ – ١٧٠)، وقال حديث حسن صحيح، وابن خزيمة في صحيحه: (١/ ٢٦٩)، وابن حبان في صحيحه: (٣/ ٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان: (٢/ ٥٠٦)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٣٦٧) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه عصام الصبابطي في تخريج أحاديث الترمذي: تحفة الأحوذي: (٧/ ٣١٩) (الهامش).

(٢) فتح الباري: (٤/ ١٦٩).

المسألة الثالثة: عظم الثواب واستمراره.

وعد الله جل شأنه أهل الخشية والإخبات، والتوكل والصبر، وغيرها من أعمال القلوب، بالثواب والأجر العظيم، وذلك في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ومن ذلك قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك: ١٢].

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ [الحج: ٣٤ - ٣٥].

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١ - ٤٢].

﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩].

ومن أبرز أعمال القلب المؤثرة في الأجر: إخلاص النية لله وحده، فإن هذا الإخلاص فاعل في استمرار الثواب، حتى في حال تأثر العمل الظاهر

بعارض يؤثر على تمامه وكماله، مما هو خارج عن إرادة العبد.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ [النساء: ١٠٠].

قال ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: (أي من يخرج من منزله بنية الهجرة، فمات في أثناء الطريق، فقد حصل عند الله ثواب من هاجر).[1]

وعلى الهجرة يقاس كل عمل صالح، يحبس المؤمن عن القيام به عذر مانع، فإن الله تعالى برحمته يبلغه أجر العاملين، بصلاح نيته وصدق مقصده.

عن أنس بن مالك ﷺ: (أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك، فدنا من المدينة، فقال: [إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم] قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: [وهم بالمدينة، حبسهم العذر].[2]

وفي رواية لمسلم: [إلا شركوكم في الأجر].[3]

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٥٤٣)، وانظر: تفسير الطبري: (٥/ ٢٣٨)، القواعد الحسان: (ص: ١٣٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر: (٤/ ١٦١٠)، ومسلم بنحوه من حديث جابر بن عبد الله ﷺ في كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر: (٢/ ١٥١٨).

(٣) صحيح مسلم: (٢/ ١٥١٨).

قال النووي: (في هذا الحديث فضيلة النية في الخير، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات، فعرض له عذر منعه، حصل له ثواب نيته).[1]

وقال ابن حجر: (فيه أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه العذر عن العمل).[2]

فالعاجز ببدنه عن العمل الصالح، مع توفر النية الخالصة والإرادة الصحيحة، هو بمنزلة العامل، فضلًا من الله سبحانه.

وفي هذا المعنى أيضًا يرد حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا].[3]

قال ابن حجر: (هو في حق من كان يعمل طاعة فمنع منها، وكانت نيته لولا المانع أن يدوم عليها).[4]

وحديث عائشة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: [ما من امرئ تكون له صلاة بليل فغلبه عليها نوم إلا كتب الله له أجر صلاته، وكان نومه صدقة

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٣/ ٥٧)، وانظر: التمهيد: (١٢/ ٢٦٧).

(٢) فتح الباري: (١٢/ ٣١٣)، وانظر: تفسير القرطبي: (٨/ ١٨٥)، مجموع الفتاوى: (٧/ ٣٤٠، ١٠/ ٤٤١).

(٣) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب: يكتب للمسافرين مثل ما كان يعمل في الإقامة: (٣/ ١٠٩٢).

(٤) فتح الباري: (١٢/ ١٠١)، وانظر: عمدة القاري: (١٤/ ٢٤٧).

عليه].[1]

قال ابن عبد البر: (في هذا الحديث ما يدل على أن المرء يجازى على ما نوى من الخير وإن لم يعمله كما لو أنه عمله، وأن النية يعطى عليها كالذي يعطى على العمل إذا حيل بينه وبين ذلك العمل، وكانت نيته أن يعمله، ولم تنصرف نيته حتى غلب عليه بنوم أو نسيان أو غير ذلك من وجوه الموانع، فإذا كان ذلك كتب له أجر ذلك العمل وإن لم يعمله، فضلًا من الله ورحمة، جازى على العمل، ثم على النية إن حال دون العمل حائل).[2]

ويدل لذلك حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [من طلب الشهادة صادقًا أعطيها ولو لم تصبه].[3]

(١) رواه أبو داود في كتاب التطوع، باب من نوى القيام فنام: (٢/ ٧٦)، والنسائي ـ واللفظ له ـ في كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب من كان له صلاة بالليل فغلبه عليها النوم: (٣/ ٢٥٧)، وأحمد في المسند: (٦/ ٧٢).

وصححه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٥/ ٤٧٢)، وصححه من المعاصرين عصام الصبابطي في تخريج سنن أبي داود: عون المعبود: (٣/ ١١٩) (الهامش)، قال الحافظ العراقي في المغني: (في طريقه أبو جعفر الرازي: قال النسائي: ليس بالقوي، ورواه النسائي وابن ماجة من حديث أبي الدرداء نحوه بسند صحيح) الإحياء: (١/ ٤٩٧).

ونص حديث أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: [من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى أصبح كتب له ما نوى صدقة عليه من ربه ﷻ].

رواه النسائي في كتاب قيام الليل: (٣/ ٢٥٨)، وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة: (١/ ٤٢٧).

(٢) التمهيد: (١٢/ ٢٦٤)، وانظر: رياضة النفس: (ص: ٦٨)، حاشية السندي على النسائي: (٣/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى: (٢/ ١٥١٧).

وحديث سهل بن حنيف ﷺ[1]، أن النبي ﷺ قال: [من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه].[2]

ففي الحديثين أن المؤمن: (إذا سأل الشهادة بصدق أعطي من ثواب الشهداء وإن كان على فراشه).[3]

ويدل لذلك أيضًا حديث أبي كبشة الأنماري، عن رسول الله ﷺ، وفيه (إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالًا وعلمًا فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء).[4]

فقد جعل ﷺ في هذا الحديث الراغب في البرّ المريد للخير، مع العجز عن العمل وعدم توفر القدرة عليه، له أجر الفاعل حقيقة، لما كان صادقًا في إرادته وتمنيه، مخلصًا في مقصده ونيته.

---

(١) هو سهل بن حنيف بن واهب، الأنصاري الأوسي، شهد بدرًا، وثبت يوم أحد، وكان ينفح عن رسول الله ﷺ بالنبل، وشهد أيضًا الخندق والمشاهد كلها، ولاّه علي ﷺ البصرة، توفي سنة ثمان وثلاثين. انظر: الاستيعاب: (٢/ ٦٦١ – ٦٦٢)، الإصابة: (٣/ ١٦٥ – ١٦٦).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى: (٢/ ١٥١٧).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٣/ ٥٥).

(٤) الحديث رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر: (٤/ ٥٦٣)، وقال هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة في كتاب الزهد، باب النية: (٢/ ١٤١٣)، وأحمد في المسند: (٤/ ٢٣١)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٣/ ٢٩٩)، وصححه الصبابطي في تخريج سنن الترمذي: تحفة الأحوذي: (٦/ ١٩٦) (الهامش).

قال ابن تيمية: (لما استويا في عمل القلب، وكان أحدهما معذور الجسم، استويا في الجزاء).[1]

وفي هذا الباب أيضًا حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، أن النبي ﷺ قال: [كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق، حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم. فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد. فقبضته ملائكة الرحمة].[2]

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢/ ٣٩٥)، وانظر: (٧/ ٣٤١، ١٠/ ٧٣٣ – ٧٣٤، ٢٢/ ٢٤٣ – ٢٤٤)، مدارج السالكين: (١/ ٣٤٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب حديث الغار: (٣/ ١٢٨٠)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله: (٣/ ٢١١٨).

وفي رواية أخرى: [فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، قال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له].[1]

فهذا الرجل لما جاء مريدًا بقلبه التوبة، صادقًا فيها، نادمًا على فعله، مخلصًا في نيته، مقبلًا على الله سبحانه، أناله الله جل وعلا رحمته وفضله، ومغفرته ورضوانه، مع عجزه عن الوصول ببدنه إلى من يعبد الله معهم من أهل الخير والصلاح، وذلك لما قام بقلبه من حقائق الإيمان.

يشهد لهذا المعنى حديث ابن عباس ﵄ عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه ﷻ، قال: [إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن همّ[2] بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة] الحديث.[3]

والعزم على الحسنة، وإرادة فعلها إرادة جازمة، وتوطين النفس على ذلك، هو عمل من أعمال القلب، ونوع من عبوديته، ولذا يؤجر عليه المؤمن.

قال ابن تيمية: (إذا هم العبد بحسنة فلم يعملها كان قد أتى بحسنة، وهي الهم بالحسنة، فتكتب له حسنة كاملة، فإن ذلك طاعة وخير).[4]

---

(١) ضمن رواية البخاري: (٣/ ١٢٨٠)، وهي بنحوها في صحيح مسلم: (٣/ ٢١١٩).

(٢) الهم: العزم على الفعل، وترجيح قصده. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٥/ ٢٧٤)، فتح الباري: (٢٤/ ١١٥)، عمدة القاري: (٢٣/ ٧٩).

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة: (٥/ ٢٣٨٠ – ٢٣٨١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة..: (١/ ١١٨).

(٤) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٣٧)، وانظر: (٢٢/ ٢٤٣)، الزهد لابن المبارك: (ص: ١٢٢ – ١٢٥)، المقاصد السنية: (ص: ١٤٧).

وإخلاص النية لله تعالى يجعل المباح قربة وطاعة، ويحوّل العادة إلى عبادة، يجد المؤمن فيها الأجر، ويحصّل المثوبة.[1]

ومما يدل على ذلك ما ورد في حديث أبي ذر ﵁، عن رسول الله ﷺ قال: [.. وفي بضع[2] أحدكم صدقة] قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: [أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر].[3]

فالأصل في النكاح أنه عادة مباحة، لكنه يتحول إلى وسيلة للثواب، إذا قصد به المؤمن غرضًا شرعيًا، يريد به التقرب إلى الله جل وعلا، والاستعانة به على الطاعة، بالعدول فيما يحتاج إليه عما حرم الله سبحانه، والاشتغال عنه بطريق الحلال.

قال النووي: (وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة، ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف الزوجة، ومنعهما جميعًا من النظر إلى حرام، أو الفكر فيه، أو الهم به،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٧/ ٤٣ – ٤٤، ٤٨).

(٢) البُضع: بضم الباء وسكون العين، ويطلق على الجماع كما يطلق على الفرج (وكلاهما تصح إرادته هنا) انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ١٣٣)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ٩٢).

(٣) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف: (١/ ٦٩٧ – ٦٩٨).

أو غير ذلك من المقاصد الصالحة).[١]

ومما ورد في هذا المعنى أيضًا حديث أبي مسعود ﷺ[٢]، عن النبي ﷺ قال: [إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها[٣]كانت له صدقة].[٤]

فهذا الحديث الشريف يفيد أن ثواب النفقة إنما يحصل إذا قصد به المنفق القربة، ناويًا رضا الله تعالى، طالبًا ثوابه.[٥]

قال ابن حجر: (ويستفاد منه أن الأجر لا يحصل بالعمل إلا مقرونًا بالنية).[٦]

ومن حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال له: [إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في في امرأتك].[٧]

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ٩٢)، و انظر تهذيب الآثار: (٢/ ١٢٢).

(٢) هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة، أبو مسعود الأنصاري، المعروف بالبدري لشهوده بدرًا أو لأنه سكن بها، شهد بيعة العقبة، وشهد أحدًا وما بعدها، سكن الكوفة، واستخلفه علي ﷺ عليها، توفي سنة إحدى وأربعين. انظر: الاستيعاب: (٤/ ١٧٥٦ – ١٧٥٧)، الإصابة: (٤/ ٤٣٢).

(٣) أي يريد بها وجه الله تعالى، ويقصد ثوابه. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٨٢)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٧/ ٨٨)، فتح الباري: (٢٠/ ١٨٥).

(٤)رواه البخاري في كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل: (٥/ ٢٠٤٧)، ومسلم بنحوه في كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين..: (١/ ٦٩٥).

(٥)انظر: فتح الباري: (١/ ٢٢٢).

(٦) فتح الباري: (٢٠/ ١٨٥).

(٧) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية..: (١/ ٣٠)، ومسلم بنحوه في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث: (٢/ ١٢٥١).

وهذا الحديث أيضًا يشترط صلاح النية لحصول الثواب على العمل، واجبًا كان في أصله أو مباحًا، والنفقة مثال لسائر أنواع المباحات، التي تصير قربات وطاعات، بما في القلب من عبودية وإخلاص.[١]

قال ابن حجر: (لأن المباح إذا قصد به وجه الله صار طاعة، وقد نبه على ذلك بأقل الحظوظ الدنيوية العادية، وهو وضع اللقمة في فم الزوجة، إذ لا يكون ذلك غالبًا إلا عند الملاعبة والممازحة، ومع ذلك فيؤجر فاعله إذا قصد به قصدًا صحيحًا، فكيف بما هو فوق ذلك).[٢]

ويقول النووي: (ويتضمن ذاك أن الإنسان إذا فعل شيئًا أصله على الإباحة، وقصد به وجه الله تعالى، يثاب عليه، وذلك كالأكل بنية التقوي على طاعة الله تعالى، والنوم للاستراحة ليقوم إلى العبادة نشيطًا..).[٣]

وهذا مراد معاذ بن جبل ﷺ، لما قال مخاطبًا أبا موسى الأشعري ﷺ، وهما يتذاكران قيام الليل: (أما أنا فأنام وأقوم، وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي).[٤]

---

(١) انظر: فتح الباري: (١١/ ٢٠٣).

(٢) فتح الباري: (١١/ ٢٠٥)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (١١/ ٧٧ – ٧٨).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: (١١/ ٧٨).

(٤) رواه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم: (٦/ ٢٥٣٨)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها: (٢/ ١٤٥٧).

فمعاذ ﷺ يرجو الأجر ويطلب الثواب في ترويح نفسه بالنوم، ليجد النشاط عند القيام للصلاة والقراءة، وذلك باعتبار أن الاستعانة بالراحة على العبادة سبيل إلى الثواب أيضًا.[1]

قال النووي: (معناه أني أنام بنية القوة وإجماع النفس للعبادة، وتنشيطها للطاعة، فأرجو في ذلك الأجر، كما أرجو في قومتي، أي صلواتي).[2]

وذلك يفيد - كما ذكر ابن حجر - (أن المباحات يؤجر عليها بالنية إذا صارت وسائل للمقاصد الواجبة أو المندوبة، أو تكميلا لشيء منهما).[3]

ومن ثَمّ فإن الأجر مقرون بما اشتمل عليه القلب من العبودية، ومؤسّس على الإرادة الجازمة لوجه الله سبحانه، وبذلك يصبح مجرد الطلب لرضا الله تعالى، وقصد الاستعانة بالمباح على الحق والخير، عملًا صالحًا ينال به المؤمن الثواب.

يقول ابن تيمية: (فالمؤمن إذا كانت له نية أتت على عامة أفعاله، وكانت المباحات من صالح أعماله، لصلاح قلبه ونيته).[4]

---

(١) انظر: فتح الباري: (١٦/ ١٨٠، ٢٦/ ١٠٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٢/ ٢٠٩)، وانظر: الزهد لابن المبارك: (ص: ٣٤).

(٣) فتح الباري: (٢٦/ ١٠٧).

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٣٦٩).

ولذا قال عبد الله بن المبارك: (رب عمل صغير تكثّره النية، ورب عمل كثير تصغّره النية).[1]

وقال عبد القادر الجيلاني: (اجتهد أن لا تأكل، ولا تمشي خطوة، ولا تعمل شيئاً في الجملة، إلا بنية صالحة، تصلح للحق ﷻ، إذا اتضح لك هذا فكل عمل تعمله يكون له لا لغيره).[2]

وفي وصية أحمد لابنه لما طلبه الوصية، قال: (يا بني انو الخير، فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير).[3]

قال ابن مفلح المقدسي[4]: (هذه وصية عظيمة سهلة على المسؤول، سهلة الفهم والامتثال على السائل، وفاعلها ثوابه دائم مستمر لدوامها واستمرارها، وهي صادقة على جميع أعمال القلوب المطلوبة شرعًا، سواء تعلقت بالخالق أو بالمخلوق، وأنها يثاب عليها، ولم أجد في الثواب عليها خلافًا).[5]

---

(١) سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٤٧٣).

(٢) الفتح الرباني: (ص: ١٥٠).

(٣) رواه ابن الجوزي عن عبدالله بن أحمد، قال: قلت لأبي يومًا: أوصني يا أبه.. مناقب الإمام أحمد: (ص: ٢٦٠).

(٤) هو محمد بن مفلح بن محمد، شمس الدين، أبو عبد الله المقدسي، الراميني ثم الصالحي، أعلم أهل عصره بمذهب الإمام أحمد، من مصنفاته: كتاب الفروع، والآداب الشرعية، توفي بصالحية دمشق سنة ثلاث وستين وسبع مائة. انظر: الأعلام: (٧/ ١٠٧).

(٥) الآداب الشرعية: (١/ ١٣٣).

ومن أنواع عبودية القلب التي تزيد من ثواب المؤمن، وتعلي منزلته، محبة أهل الصلاح والتقوى لأجل صلاحهم وتقواهم.

عن ابن مسعود ﷺ قال: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: [المرء مع من أحب].[1]

وعن أنس ﷺ: (أن رجلًا سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: [ما أعددت لها؟] قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة[2]، ولكني أحب الله ورسوله. قال: [أنت مع من أحببت].[3]

وفي رواية أخرى للحديث قال أنس: (فما فَرِحْنا بشيء فَرَحَنا بقول النبي ﷺ:[أنت مع من أحببت] قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم).[4]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله ﷺ: (٥/ ٢٢٨٣)، ومسلم بنحوه في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب: (٣/ ٢٠٣٤).

(٢) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم: (١٦/ ١٨٧): (أي غير الفرائض، معناه ما أعددت لها كثير نافلة من صلاة ولا صيام ولا صدقة).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله ﷺ: (٥/ ٢٢٨٣)، ومسلم بنحوه في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب: (٣/ ٢٠٣٣).

(٤) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ: (٣/ ١٣٤٩)، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب: (٣/ ٢٠٣٢ – ٢٠٣٣).
قال النووي: (لا يلزم من كونه معهم أن تكون منزلته وجزاؤه مثلهم من كل وجه) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٦/ ١٨٦)، وانظر: فتح الباري: (٢٢/ ٣٦٦).

المطلب الثاني: الثمرات الدنيوية.

وفيه سبع مسائل:

المسألة الأولى: العصمة من إغواء الشيطان وتسلّطه.

يأمر الشيطان بالكفر، ويزين المعصية، ويحض على الفجور، ويلقي بالشبهة ليلبّس[1] على الإنسان، فيفتنه عن الحق ، ويجذبه إلى الشر والضلال والباطل.

لكن القلب العابد لله تعالى، وقد عمره الإيمان الجازم، والتوكل الواثق، يبقى محفوظًا بإذن ربه من الاستسلام لتسلط الشيطان واستيلائه، والاستجابة لوساوسه وإلقاءاته، والتأثر بشبهات وإغراءاته.

يدل على ذلك قول الله جل وعلا: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٨ – ٩٩].

(فالذين يتوجهون إلى الله وحده، ويخلصون قلوبهم لله، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم مهما وسوس لهم، فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه، وينقادوا إليه، وقد يخطئون، لكنهم لا يستسلمون، فيطردون الشيطان عنهم، ويثوبون إلى ربهم من قريب).[2]

---

(١) (التلبيس إظهار الباطل في صورة الحق) تلبيس إبليس: (ص: ٤٦)، وأصل اللبس اختلاط الأمر وتداخله. انظر: مقاييس اللغة: (ص: ٩١٢)، المشوف المعلم: (٢/ ٦٩٠).

(٢) في ظلال القرآن: (٤/ ٢١٩٤)، وانظر: تفسير البيضاوي: (١/ ٥٥٧)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٥٣٥)، روح المعاني: (١٤/ ٢٣٠)، إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٧)، مصائب الإنسان: (ص: ٦٠)، مجموع الفتاوى: (١٤/ ٣٣٢)، إغاثة اللهفان: (١/ ١٩٢ – ١٩٣).

ذلك أن التقوى حين تعمر قلب المؤمن تبعثه إلى التذكر لوعد الله ووعيده، والتفكر في أمره ونهيه، فيبصر الحق والهدى، ويدرك كيد الشيطان، فيقطع عليه حبائله، ويلحظ طيفه ولمته فيردها، ويميز خطراته وخطواته فيتباعد عنها.

يشهد لهذا المعنى[1] قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ولذا قال سهل بن عبد الله: (من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان).[2]

يقول أبو حامد الغزالي: (القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله، ولذلك سلط الله عليه الشيطان).[3]

وقد اعترف إبليس بأن لا قدرة له على إضلال عباد الله المخلصين، أو استيطانهم والتمكن منهم، أو سوقهم والتلاعب بهم، فقال ما حكاه القرآن: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣].

(١) انظر: تفسير الطبري: (٩/ ١٥٧ - ١٥٩)، تفسير البغوي: (٢/ ٢٢٥)، إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٨)، مجموع الفتاوى: (٨/ ٢٢٢).

(٢) مدارج السالكين: (٢/ ٦)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٥٤٢).

(٣) إحياء علوم الدين: (٣/ ٣٧)، وانظر: إغاثة اللهفان: (١/ ١٩٧).

والمعنى على القراءة بكسر اللام (المخلِصين)[1]: أي الذين أخلصوا قلوبهم لله سبحانه، بحيث صفت عبادتهم من كل توجّه لغير الله جل شأنه.[2]

ومن كانت هذه صفتهم فليس للشيطان عليهم من سبيل في الإغواء، بتزيين شهوة، أو إلقاء شبهة.

يقول ابن القيم: (لما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزيّن له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن الطريق، وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى والتعرض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه، وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبّس به الإنسان، ليحصل له الدخول في ضمان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام في لفظ: ﴿ٱلْمُخْلِصِينَ﴾ في كل القرآن، وقرأ الباقون بفتح اللام، على معنى: أخلصهم الله تعالى لطاعته. انظر: النشر: (ص: ٢٢١)، سراج القارئ: (ص: ٢٥٧)، حجة القراءات: (ص: ٣٥٨ - ٣٥٩).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٠)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٣٨).

لرب العالمين، وإشعار القلب بإخلاص العلم ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين، وشمله استثناء: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].(١)

المسألة الثانية: التباعد عن الآثام والإقبال على الطاعات.

ذلك أثر آخر من آثار التزام القلب بعبودية الله سبحانه، وتنقّله في منازلها، يتمثل في توفيق الله تبارك وتعالى لعبده المؤمن، في دائرة المعصية إدبارًا وكرهًا ومباعدة، وفي دائرة الطاعة إقبالًا ومحبة ومسارعة.

ومما يشهد لذلك ما أخبر الله تعالى به من صرف المعصية عن نبيه يوسف عليه السلام حين أخلص العبادة لله سبحانه، فأخلصه الله تعالى لطاعته واصطفاه.

يقول جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

والمعنى أن تحقيق يوسف عليه السلام للإخلاص في عبوديته لربه سبحانه كان علة لصرف السوء والفحشاء عنه عليه السلام.(٢)

وهذه الآية الكريمة وإن كانت في شأن نبي الله يوسف عليه السلام إلا أنها تتضمن دلالة عامة على أن العبد إذا أخلص الدين لله سبحانه، كان ذلك حافظًا له يمنعه من ضد ذلك من الذنوب والمعاصي.

---

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٣٧ – ٣٨).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: (٤/ ٢٦٧)، تفسير المنار: (١٢/ ٢٨٠)، الآداب الشرعية: (٣/ ١١٣).

يقول ابن تيمية: (ذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له، لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره)(١)(ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج).(٢)

كذلك أخبر القرآن بأن هناك أعمالًا جليلة لا يوفّق لها إلا من غمر الصبر قلوبهم وتمكّن منها.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت: ٣٤ – ٣٥].

والمقصود أن هذه الصفة الكريمة لا يعطاها ولا يوفق لها إلا أهل الصبر.(٣)

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢١٥)، وانظر: (١٠/ ١٦١، ١٤/ ٣٣٢)، الآداب الشرعية: (٣/ ١١٣).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٨٨)، وانظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٩٣٤).

(٣) انظر: زاد المسير: (٧/ ٦٣)، تفسير النسفي: (٣/ ٢٧٥).

قال أبو حيان: (كأن هذه الخصلة الشريفة غائبة، فما يصادفها ويلقيها الله إلا لمن كان صابرًا على الطاعات، صارفًا عن الشهوات).[1]

ومثل هذه الآية في الدلالة قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠].[2]

والمعنى: لا يوفق لها و يعطاها ويرزقها غير الصابرون.[3]

والضمير يعود إلى الصفات التي تضمنتها الآية الكريمة، أي الإيمان والعمل الصالح.[4]

وقد أثنى الله جل شأنه على من اجتمعت في قلوبهم معاني الإيمان والإخلاص، والخشية والإشفاق، والوجل واليقين، وأخبر أن المتصفين بذلك يسارعون إلى الخيرات، وينشطون للطاعات، ويبادرون إلى الأعمال الصالحات.

---

(١) تفسير البحر المحيط: (٧/ ٤٩٨).

(٢) الآية في سياق قصة قارون.

(٣) انظر: زاد المسير: (٦/ ١١٤)، نظم الدرر: (٥/ ٥٢١)، عدة الصابرين: (ص: ٥٩).

(٤) انظر: تفسير القرطبي: (١٣/ ٢١٠)، التسهيل: (٣/ ١١٢) وقال بعض المفسرين بعود الضمير إلى نفس القول الوارد في الآية، يقول ابن جرير: (أي لا يوفق لقيل هذه الكلمة، وهي قوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾..) تفسير الطبري: (٢٠/ ١١٦)، وانظر: زاد المسير: (٦/ ١١٤).

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].[1]

وفي دعاء رسول الله ﷺ: (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك)[2] ما يشير إلى أن خشية الله تعالى إذا استقرت في القلب كانت حجابًا يحجز العبد عن المعصية.

قال المناوي: (لأن القلب إذا امتلأ من الخوف أحجمت الأعضاء جميعها عن ارتكاب المعاصي، و بقدر قلة الخوف يكون الهجوم على المعاصي).[3]

وعن عقبة بن عامر ﷺ[4] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يعجب

---

(١) انظر: نظم الدرر: (٥/ ٢٠٩).

(٢) الحديث رواه الترمذي وحسنه من حديث ابن عمر ﷺ في كتاب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد: (٥/ ٥٢٨)، والنسائي: عمل اليوم والليلة: (ص: ٣١٠)، والحاكم: المستدرك: (١/ ٧٠٩) وصححه، ووافقه الذهبي، وابن المبارك في الزهد: (ص: ٧٠)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير: فيض القدير: (٢/ ١٣٣)، وصححه بعض المعاصرين، انظر: الوابل الصيب: (ص: ٢٣٣)، تحفة الأحوذي: (٩/ ١٨).

(٣) فيض القدير: (٢/ ١٣٢)، وانظر: مكاشفة القلوب: (ص: ٢٦٤).

(٤) هو عقبة بن عامر بن عَبْس الجهني، روى عن النبي ﷺ كثيرًا، كان عالمًا فقيهًا، فصيحًا شاعرًا كاتبًا، من أحسن الناس صوتًا بالقرآن، ولاه معاوية ﷺ على مصر، توفي سنة ثمان وخمسين. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢/ ٢٦٩٨ – ٢٦٩٩)، الإصابة: (٤/ ٤٢٩ – ٤٣٠).

ربكم من راعي غنم في رأس شظيّة[1] بجبل يؤذن بالصلاة ويصلي، فيقول الله ﷻ: انظروا إلى عبدي هذا يؤذن ويقيم الصلاة، يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة].[2]

فهذا العبد المؤمن لما عظمت عبادة الخوف والخشية من الله في قلبه، أنشأت له حرصًا واهتمامًا على أداء ما افترضه الله عليه، وكانت سببًا في أن يتفضل الله عليه برحمته، فيثني عليه، ويرفع من قدره ومنزلته، ويعظم من مرتبته ومكانته، ويشرفه بإضافته إلى عبوديته، ويجزل جزاءه ومثوبته، فيحكم جل شأنه بمغفرة ذنوبه، ودخوله الجنة.[3]

المسألة الثالثة: الرعاية والكفاية والتأييد.

وعد الله تعالى من توكل عليه بالرعاية والكفاية فقال جل شأنه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، والحسب بمعنى الكفاية[1]، أي فهو كافيه.[5]

(١) بفتح الشين وكسر الظاء وتشديد الياء، وهي القطعة المرتفعة في رأس الجبل، مشتقة من التشظّي، وهو التشعّب، لأنها شعبة من الجبل. انظر: الفائق في غريب الحديث: (٢/ ٢٤٧)، شرح السيوطي على النسائي: (٢/ ٢٠ – ٢١) المقاصد السنية: (ص: ٣٠٦-٣٠٧).

(٢) رواه أبو داود في كتاب صلاة السفر، باب الأذان في السفر: (٢/ ٩)، والنسائي في كتاب الأذان، باب الأذان لمن يصلي وحده: (٢ / ٢٠)، قال المنذري: (رجال إسناده ثقات) مختصر سنن أبي داود: (٢ / ٥٠)، وصححه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (ص: ١٤١).

(٣) انظر: عون المعبود: (٣/ ٣٣).

(٤) انظر: المفردات: (ص: ١٢٤)، بصائر ذوي التمييز: (٢/ ٤٦٢ – ٤٦٣).

(٥) انظر: تفسير الواحدي: (٢/ ١١٠٧)، تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٢٤)، مكاشفة القلوب: (ص: ٣٣٩).

فالآية الكريمة تشتمل على شرط وجزاء.

أما الشرط فهو تحقيق التوكل من العبد على ربه سبحانه، وثقته به، وتفويض أموره إليه، وإخلاء القلب من الاعتماد على سواه.

وأما الجزاء فهو أن يكلأ الله تبارك وتعالى عبده المؤمن، ويقضي حاجته، ويكفيه ما أهمّه - فضلًا منه سبحانه ورحمة -.

كما وعد جل وعلا الصابرين على مشقة التكليف وألم الابتلاء بالمعية الخاصة، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال سبحانه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وهي معية الله لعبده بالحفظ والإعانة، والنصر والتأييد والرعاية.[1]

وقرن سبحانه بين الصبر والتقوى، وجعلهما شرطا لتنزل النصر والعون الإلهي، وذلك في قوله جل شأنه: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢/ ٣٨، ٦٢٤)، تفسير البحر المحيط: (١/ ٤٤٨)، تسلية أهل المصائب: (ص: ١٨٤).

قال ابن عطية: (ذكر تعالى الشرط الذي يقع معه الإمداد، وهو الصبر والتقوى).[1]

كما ضمن سبحانه لمن يحقق الصبر والتقوى بالحماية من كيد المنافقين، والسلامة من الضرر المترتب على مكرهم، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قال القرطبي: (شرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى).[2]

وقد أنجز الله تبارك وتعالى وعده لبني إسرائيل بالنصر والتمكين في الأرض، لـمّا صبروا على التمسك بدين الله سبحانه، وعلى الاستجابة لدعوة نبي الله موسى عليه السلام، في مواجهة فرعون وكيده وأذاه.

يقول الله عز وجل: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ[3] رَبِّكَ

(١) تفسير ابن عطية: (١/ ٥٠٤)، وانظر: تفسير البحر المحيط: (٣/ ٥١).

(٢) تفسير القرطبي: (٤/ ١١٨)، وانظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٣٩٩)، نظم الدرر: (٢/ ١٤٢)، في ظلال القرآن: (١/ ٤٤٧)، عدة الصابرين: (ص: ٥٨).

(٣) ذكر عدد من المفسرين بأن المراد بالكلمة ما تضمنه قول الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ - ٦]. انظر: تفسير الطبري: (٩/ ٤٤)، تفسير الزمخشري: (٢/ ١٤٠)، تفسير القرطبي: (٧/ ١٧٣)، أضواء البيان: (٢/ ٣٣١).

الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

(والمعنى نفذت كلمة الله ومضت على بني إسرائيل تامة كاملة، بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه).[1]

وقد اشتملت قصص الأنبياء في القرآن على إعلان الرسل عليهم السلام توكلهم على الله وحده، وصبرهم على كيد الظالمين وإيذاء المستكبرين: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فأحكم الله جل شأنه وعده لرسله عليهم السلام بالنصر والتأييد وإهلاك الظالمين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٤].

وتتضمن هاتان الآيتان تقريرا بأن اتصاف المؤمنين بوجل القلوب من ربها سبحانه، وخوفها وخشيتها من عقابه، سبب للنصر والمعونة والتأييد من الله جل وعلا لعباده المؤمنين: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

(١) تفسير المنار: (٩/ ١٠١)، وانظر: تفسير الطبري: (٩/ ٤٣ - ٤٤)، تفسير الزمخشري: (٢/ ١٤٠)، تفسير الفخر الرازي: (١٤/ ٢٢٢)، زاد المسير: (٣/ ١٧١)، تفسير أبي السعود: (٣/ ٢٦٧).

والإشارة في (ذلك) إلى ما اشتملت عليه الآية من الوعد بإهلاك الظالمين والتمكين للمؤمنين.[1]

قال ابن جرير في تفسير الآية الكريمة: (يقول جل ثناؤه: هكذا فعلي لمن خاف مقامه بين يدي وخاف وعيدي، فاتقاني بطاعته، وتجنب سخطي، أنصره على من أراد به سوءا، أوبغاه مكروها من أعدائي، أهلك عدوه وأخزيه، وأورثه أرضه ودياره).[2]

وفي ارتباط النصر والرعاية الإلهية بالصبر والتوكل يقول الرسول ﷺ: [واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا].[3]

والمقصود أن النصر ملازم للصبر لاينفك عنه، فإذا صبر المؤمنون على التكاليف الشرعية أمرًا ونهيًا، وصبروا على قضاء الله وبلائه، فهم

(١) انظر: تفسير الطبري: (١٣/ ١٩٢)، تفسير أبي السعود: (٥/ ٣٨)، تفسير القاسمي: (١٠/ ١٨).

(٢) تفسير الطبري: (١٣/ ١٩٢)، وانظر: نظم الدرر: (٤/ ١٧٨).

(٣) رواه أحمد في المسند من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (١/ ٣٠٧-٣٠٨)، والبيهقي في شعب الإيمان: (٢/ ٢٧، ٧/ ٢٠٣)، والحاكم في المستدرك: (٣/ ٦٢٤، ٦٢٥)، وحسنه العجلوني في كشف الخفاء: (١/ ٣٦٦)، وصححه شعيب الأرنؤوط: الآداب الشرعية: (٢/ ١٧٧) (الهامش)، وأصل الحديث في سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، قال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح) (٤/ ٦٦٧)، وحسنه كذلك ابن رجب في جامع العلوم والحكم: (١/ ٤٦٢)، وانظر الدر المنثور: (١/ ١٥٩ - ١٦٠).

موعودون بالنصر في مواجهة الهوى والشيطان، وفي مواجهة من يقاتلهم من أعداء الإسلام.[1]

وأما تلازم الفرج مع الكرب فالمقصود أن المؤمن الصادق حين يشتد الكرب يتمحّض في قلبه التوكل على ربه، والثقة فيه، والاعتماد عليه، والانطراح والانكسار بين يديه، فيكفيه الله ما أهمّه، ويفرّج عنه كربته.

يقول ابن رجب: (ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر: أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى، حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين، وتعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه).[2]

وخبر أصحاب الغار المشهور يؤكد أن لعبودية القلب من الصدق مع الله تعالى، والإخلاص له، والخشية منه، أثرًا عظيمًا في رعاية الله لعبده، وفي معونته وحفظه له.

يقول رسول الله ﷺ: [بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون، إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار، فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه]

(١) انظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ٤٩٠).

(٢) جامع العلوم والحكم: (١/ ٤٩٣).

فدعا أحدهم ببره والديه، والآخر بتركه للزنا بعد التمكن والقدرة، ودعا ثالثهم بأمانته وأدائه حقوق أجيره مع نمائها، وكل منهم يختم دعائه بقوله: (فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا).[1]

فاستجاب الله جل وعلا دعاءهم، وفرّج كربتهم.

فهؤلاء الثلاثة توكلوا على الله وحده، وتوسلوا إليه سبحانه بصالح أعمالهم، مما خلصت فيه نياتهم ومقاصدهم، وصدق فيه توجههم ومرادهم، مع خوف وخشية ووجل، فنزلت عليهم رحمة الله تعالى وعنايته.

المسألة الرابعة: محبة الله تعالى وثناؤه.

أخبر الله جل وعلا أنه يحب المتصفين بالصبر على أداء الفرائض والطاعات، والصبر عن المعاصي والسيئات، والصبر على المصائب والابتلاءات.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وأخبر سبحانه أنه يحب من اعتمد عليه، ووثق به، وفوض أموره إليه، ورضي بحكمه، واستسلم لقضائه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) الحديث بطوله رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾: (٣/ ١٢٧٨ - ١٢٧٩)، ومسلم بنحوه في كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال: (٣/ ٢٠٩٩ - ٢١٠٠).

وقرن سبحانه بين الصبر والتوكل في سياق الثناء على المؤمنين المتصفين بهما.

قال تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩].

وأثنى سبحانه على من غشيت قلوبهم معاني الخشية والإيمان، والوجل والإشفاق، واليقين والإخلاص، ووصفهم بالمسارعة والسبق إلى الخيرات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

كما أثنى تبارك وتعالى على الخاشعين الموقنين، الذين ذلت قلوبهم لله سبحانه، وخضعت له واستكانت، وآمنت بلقائه، وصدقت بوعده ووعيده، فخفت في حقهم التكاليف، وسهلت عليهم سبل الطاعة.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦].

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ يعود إلى الصلاة كما قال عدد من المفسرين[1]

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (١/ ٢٦١)، تفسير البحر المحيط: (١/ ١٨٥)، تفسير ابن كثير: (١/ ٨٧)، روح المعاني: (١/ ٢٤٩)، شجرة المعارف: (ص: ٤٧).

والمعنى أن الصلاة ثقيلة إلا على من خشع قلبه، وأيقن بأنه راجع إلى ربه وملاقيه للحساب والجزاء.

وفي ذلك ثناء بالغ على أهل الخشوع واليقين.

وحين يستشعر القلب حبّ الله تعالى وصفاته جل شأنه كان ذلك سبيلا إلى محبة الله سبحانه لعبده.

عن عائشة ﵂: (أن النبي ﷺ بعث رجلًا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: [سلوه لأي شيء يصنع ذلك] فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: [أخبروه أن الله يحبه].[1]

وفي موقف آخر يثني عليه الصلاة والسلام على رجل، مع تكرر المعصية منه، وذلك بما اشتمل عليه قلبه من العبودية المتمثلة في حب الله ورسوله، والباعثة على الخشية والندم.

عن عمر بن الخطاب ﵁: (أن رجلًا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبدالله[2]، وكان يلقب حمارًا، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: (٦/ ٢٦٨٦)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: (١/ ٥٥٧).

(٢) قيل هو عبد الله بن النعمان أوالنعيمان بن عمرو﵁، الأنصاري، من بني مالك بن النجار، له صحبة، معدود في أهل المدينة. انظر: الاختلاف في خبره وخبر أبيه في الإصابة: (٤/ ٢١٤، ٦/ ٣٦٥ – ٣٦٧)، وانظر: الاستيعاب: (٣/ ١٠٠٢).

قد جلده في الشراب، فأتي به يومًا، فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به. فقال النبي ﷺ: [لا تلعنوه، فوالله ما علمت. إلا أنه يحب الله ورسوله].[1]

فقد نهى رسول الله عليه الصلاة والسلام عن لعنه لكونه يحب الله ورسوله، وتلك شهادة له بما يحمله قلبه من حقائق الإيمان، في مقابل ما استحقه من العقوبة على ما ارتكبه من الذنب.[2]

المسألة الخامسة: الإمامة والقيادة.

هذه الثمرة من ثمرات عبودية القلب مستفادة من قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

والضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى بني إسرائيل، والمعنى[3]: جعلنا منهم قادة ورؤساء يُقْتدي بهم في الخير، يدعون إلى شريعة التوراة المنزلة على نبي الله موسى ﵇، ويكونون سببًا في هداية الناس إلى دين الله سبحانه.

(١) رواه البخاري في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج عن الملة: (٦/ ٢٤٨٩). وانظر: فتح الباري: (٢٥/ ٢١٣).

(٢) انظر: الشفا: (٢/ ٣٨٧)، فتح الباري: (٢٥/ ٢١٣)، مجموع الفتاوى: (١٠/ ٣٢٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (١١/ ١١٢ – ١١٣)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٣٦ – ٣٧)، تفسير الواحدي: (٢/ ٨٥٥)، تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٢٣)، تفسير النسفي: (٣/ ٤٥)، الدر المنثور: (٦/ ٥٥٦).

ثم ذكرت الآية الكريمة أن توفيقهم لذلك المقام الرفيع والمرتبة العالية كان لاتصافهم بأمرين[1]:

الأول: الصبر: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾[2]، وهو يشمل الصبر على تكاليف الشرع أمرًا ونهيًا، كما يشمل الصبر على أقدار الله وبلائه، ومن ذلك تحمل الأذى في سبيل الدعوة إلى دين الله تعالى.

الثاني: اليقين: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾، والمراد التصديق الجازم بما نزل من عند الله سبحانه من الحق، والعلم التام الذي لا يداخله شك ولا ريب.

ومع نزول هذه الآية في شأن بني إسرائيل، لكن مضمونها ودلالتها عامة[3]، تقرر أن الالتزام بالصبر، والثبات على اليقين، سببان يهيئان المؤمن ليكون من أئمة الهدى والخير، الذين يقتدي بهم الناس ويهتدون.

قال النسفي: (وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس).[4]

---

(١) انظر: نظم الدرر: (٦/ ٦٣).

(٢) قرأ حمزة والكسائي ورويس عن يعقوب بكسر اللام وتخفيف الميم: أي لأجل صبرهم، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم: أي حين صبروا، والقراءتان متقاربتان في المعنى. قال ابن عطية: (وفي القراءتين معنى المجازاة، أي جعلهم أئمة، جزاء على صبرهم عن الدنيا، وكونهم موقنين بآيات الله..). انظر: سراج القارئ: (٣٢٢ – ٣٢٣)، النشر: (٢/ ٢٦٠)، تفسير الطبري: (١١/ ١١٣)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٣٦٥)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٧٣).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري: (٣/ ٥٢٣).

(٤) تفسير النسفي: (٣/ ٤٥).

وقال ابن تيمية: (فمن أعطي الصبر واليقين، جعله الله إمامًا في الدين).[1]

والصبر يتفرع عن اليقين. ذلك أن المؤمن بحاجة إلى علم يقيني ينشئ الطمأنينة، وعلى تلك القاعدة من اليقين يتأسس الصبر على تكاليف ما تيقنه واطمأن له.

ولذا يقول ابن تيمية: (ولا يمكن للعبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ويتنعم به ويتغذى به، وهو اليقين).[2]

وإذا استقر الصبر واليقين في قلب المؤمن وتمكنا فيه نجا بإذن الله من فتنة الشهوة والشبهة، إذ بالصبر يدفع الشهوة، وباليقين يحارب الشبهة، فسلامة الدين بتوفيق الله تعالى منوطة باقتران الأمرين في القلب.[3]

المسألة السادسة: السرور والطمأنينة.

إن القلب إذا استقرت فيه عبودية الله تعالى كان ذلك طريقًا له إلى الطمأنينة والسرور.

وكلما تمكنت تلك العبودية في القلب وازدادت كلما انتقل المؤمن إلى درجة أعلى من الشعور بالفرح والأنس والارتياح.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٦/ ٢١٥)، وانظر: (٢٨/ ١٥٣)، تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٦٣)، عدة الصابرين: (ص: ٥٨)، إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٩٠)، تفسير السعدي: (٤/ ١٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٥٣).

(٣) انظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٩٠)، إعلام الموقعين: (١/ ١٣٧).

وتلك نعمة ربانية وتوفيق إلهي.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

عن السدي في تفسير الآية قال: (وسع صدره بالإسلام للفرح به والطمأنينة إليه).[1]

وقال الراغب: (شرح الصدر أي بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله تعالى).[2]

ذلك أن (الإيمان إذا باشر القلب، وخالطته بشاشته، لا يسخطه القلب، بل يحبه ويرضاه، فإن له من الحلاوة في القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه، والناس متفاوتون في ذوقه).[3]

وهذا المعنى هو ما استدل به هرقل[4] ملك الروم على صحة نبوة

(١) تفسير القرطبي: (١٥/ ١٦١)، فتح القدير: (٤/ ٤٥٦)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٥٠)، تفسير السعدي: (٤/ ٣١٧)، تفسير ابن عاشور: (٢٣/ ٣٨٠).

(٢) المفردات: (ص: ٢٦١)، وانظر: بصائر ذوي التمييز: (٣/ ٣٠٧).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٦٤٨).

(٤) هرقل: بكسر الهاء وسكون القاف، اسم علم لملك الروم الذي كتب إليه النبي ﷺ، قال الزمخشري: (كان من ملوك الروم، وهو أول من ضرب الدنانير) الفائق في غريب الحديث: (٤/ ١٠٢)، وانظر: نزهة الألباب في الألقاب لابن حجر: (٢/ ١٠٦)، المغني: (ص: ٢٦٩ – ٢٧٠).

رسول الله ﷺ[1]، حيث قال لأبي سفيان ﷺ[2] ضمن حديث طويل: [وسألتك أيرتد أحد سخطة[3] لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته[4] القلوب).[5]

ولذا يجد المؤمنون في آيات القرآن سرورًا ونعيمًا قلبيًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

أي يسرون ويفرحون.[6]

(١) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ٧١).

(٢) هو صخر بن حرب بن أمية، أبو سفيان القرشي الأموي، أسلم عام الفتح، شهد حنينًا، وكان ﷺ قبل ذلك رأس المشركين يوم أحد و الأحزاب، توفي سنة أربع وثلاثين. انظر الإصابة: (٣/ ٣٣٢ – ٣٣٥).

(٣) بسكون الخاء وفتح السين، أي كراهية له وعدم رضا به. انظر: النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٣٥٠)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٢/ ١٠٥).

(٤) البشاشة الفرح والانبساط والأنس. انظر: النهاية في غريب الحديث: (١/ ١٣٠)، شرح النووي على صحيح مسلم: (١٢/ ١٠٦).

(٥) الحديث بطوله رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ: (١/ ٧ – ١٠)، ومسلم بنحوه في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام: (٢/ ١٣٩٣ – ١٣٩٧).

(٦) انظر: تفسير السمرقندي: (٢/ ٩٩)، تفسير الواحدي: (١/ ٤٨٧)، تفسير البغوي: (٢/ ٣٤٠)، المفردات: (ص: ٥٨).

والمراد أنهم يجدون في كلام الله تعالى بغيتهم، ويدركون فيه محبوبهم، فيحصل لهم بذلك لذة ونعيم وفرح وسرور.[1]

قال ابن تيمية: (أخبر سبحانه أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن، والاستبشار الفرح والسرور، وذلك لما يجدونه في قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله).[2]

وما في القلوب من الصدق والإخلاص يستوجب لها الطمأنينة بفضل من الله سبحانه.

ذلك ما تضمنه قول الله تعالى في سياق الثناء على الصحابة ﷺ، والذين بايعوا رسول الله ﷺ يوم الحديبية على القتال والثبات: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨].

أي علم ما في قلوبهم من الصدق والصبر والإخلاص، والطاعة والعزم على الوفاء، فربط على قلوبهم وأنزل عليها الطمأنينة والثبات، والسكون والاستقرار.[3]

---

(١) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ١٢٣ – ١٢٤)، الروح: (ص: ٣٠٧).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٦٤٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ٨٨)، تفسير الزمخشري: (٤/ ٣٤٢)، تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ٩٥)، زاد المسير: (٧/ ١٦٧)، تفسير القرطبي: (١٦/ ١٨٣)، تفسير ابن كثير: (٤/ ١٩)، نظم الدرر: (٧/ ٢٠٤).

وقد بين رسول الله ﷺ أن للإيمان طعمًا وحلاوة، يجدها ويذوقها من وفقه الله تعالى للرضا والمحبة الإيمانية، التي هي من أبرز أعمال القلب ومظاهر عبوديته.[1]

عن العباس بن عبد المطلب ﷺ[2]، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا].[3]

فهذا الحديث الشريف يقرر أن من رضي بهذه الأصول الثلاثة العظيمة على سبيل اليقين، قانعًا مكتفيًا، مستغنيًا بها عما يخالفها، ذاق طعم الإيمان، وخلصت حلاوته إلى قلبه، ونال الطمأنينة والسكون، واستشعر اللذة والسرور، وهو يقوم بمقتضى ذلك من توحيد الله جل وعلا، والإخلاص له، وتنفيذ شرعه، والالتزام بسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وحينئذ فلا شيء عند القلب أطيب من ذلك الطعم، ولا أحلى من تلك اللذة.[4]

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: (٢/ ٤٥٣)، مدارج السالكين: (٣/ ٧١ – ٧٢).

(٢) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم، أبو الفضل القرشي الهاشمي، عم رسول الله ﷺ، وولد قبله بسنتين، كان رئيسًا في قريش وواليًا على السقاية، أظهر إسلامه يوم فتح مكة أو قبله بقليل، وثبت يوم حنين، كان رسول الله ﷺ يكرمه ويجلّه، عُرِف بالجود والفضل والصلة وحسن الرأي، توفي سنة اثنتين وثلاثين. انظر: الاستيعاب: (٢/ ٨١٠ – ٨١٧)، الإصابة: (٣/ ٥١١ – ٥١٢).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبائر: (١/ ٦٢).

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ٢)، مجموع الفتاوى: (٢/ ٤٥٣، ١٠/ ١٨٧)، مدارج السالكين: (٢/ ٥٩ – ٦٠، ٣/ ٧٢ – ٧٣).

وبمعنى هذا الحديث[1] أيضًا حديث أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: [ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار].[2]

والحديث مشتمل على ثلاث عبادات قلبية: محبة الله ورسوله وتقديمهما على كل محبة، والمحبة في الله سبحانه، وكراهية الكفر، أخبر ﷺ أن ثمرة الاتصاف بهذه الخصال الثلاثة هي وجد حلاوة الإيمان.[3]

ولذا بوب البخاري لهذا الحديث فقال: (باب حلاوة الإيمان).[4]

قال ابن حجر: (مقصود المصنف أن الحلاوة من ثمرات الإيمان).[5]

والمراد بحلاوة الإيمان ما يجده المؤمن من اللذة والمتعة، والنعيم والسرور، في طاعة ربه سبحانه ورضاه، وإيثار ذلك على هواه، متحملًا ما يقابله من الصعوبات، صابرًا على ما يلقاه من المشاق.[6]

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٣ - ١٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان: (١/ ١٤)، ومسلم بنحوه في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان: (١/ ٦٦).

(٣) انظر: مدارج السالكين: (٣/ ٥٦).

(٤) صحيح البخاري: (١/ ١٤).

(٥) فتح الباري: (١/ ١١٦).

(٦) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: (٢/ ١٣ - ١٤)، فتح الباري: (١/ ١١٦ - ١١٧).

يقول ابن تيمية: (بين ﷺ أن ذوق طعم الإيمان لمن رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وأن وجد حلاوة الإيمان حاصل لمن كان حبه لله ورسوله أشد من حبه لغيرهما، ومن كان يحب شخصًا لله لا لغيره، ومن كان يكره ضد الإيمان، كما يكره أن يلقى في النار، فهذا الحب للإيمان، والكراهية للكفر، استلزم حلاوة الإيمان، كما استلزم الرضا المتقدم ذوق طعم الإيمان، وهذا هو اللذة، وليس هو نفس التصديق والمعرفة الحاصلة في القلب، ولا نفس الحب الحاصل في القلب، بل هذا نتيجة ذاك وثمرته ولازم له، وهي أمور متلازمة، فلا توجد اللذة إلا بحب وذوق، وإلا فمن أحب شيئًا ولم يذق منه شيئًا لم يجد لذة، كالذي يشتهي الطعام ولم يذق منه شيئًا، ولو ذاق ما لا يحبه لم يجد لذة، كمن ذاق ما لا يريده، فإذا اجتمع حب الشيء وذوقه حصلت اللذة بعد ذلك).[1]

إن هذا الوجد لحلاوة الإيمان، والذوق لطعمه، يمثل غاية السعادة القلبية للمؤمن، وهو جنته ونعيمه في الدنيا قبل نعيم الآخرة.

قال ابن تيمية: (ليس عند القلب أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان، المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاصه الدين له).[2]

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٣٢٧ - ٣٢٨).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٢١٥).

وقال أيضًا: (فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة).[1]

ويقول ابن القيم: (فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم الآجلة، فله جنتان، لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى).[2]

ذلك أن (في القلب شعثًا[3] لا يلمّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٩٤)، الروح: (ص: ٢٧٨).
(٢) مدارج السالكين: (١/ ٣٤٤ – ٣٤٥)، روضة المحبين: (ص: ١١٨).
(٣) الشعث: بفتح الشين والعين: التفرق والانتشار، يقال: لمّ الله شعثكم، أي ما تفرق من أمركم. انظر: مقاييس اللغة: (ص:٥٠٦)، ترتيب القاموس المحيط: (٢/ ٧١٨).

هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدًا).[1]

المسألة السابعة: الاهتداء والانتفاع بالمواعظ.

حين يكون العبد مؤمنًا بالله، موقنًا باليوم الآخر، وحين تنمو في قلبه معاني الخوف والرهبة، والصبر والإنابة، وغيرها من أعمال القلوب، فإن من عواقب ذلك إكرام الله جل شأنه لعبده بالهداية والتسديد، والتوفيق لقبول الحق، والاستجابة للمواعظ، والتأثر بالدلائل، والانتفاع بالتذكير.

هذا ما يشير إليه القرآن الكريم في مواضع كثيرة.

ومن ذلك قول الله تعالى في سياق تقرير بعض الأحكام:

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢].

تبين الآيتان الكريمتان أن الذي يمتثل للأحكام، ويأتمر بها، ويتفاعل معها، ويرضى بمضمونها، هو من آمن قلبه بالله جل وعلا، وصدق بشرعه، وأيقن بالبعث، وخاف حساب الآخرة.

ومن ثم فإن المتصفين بذلك هم المنتفعون حقيقة بالآيات القرآنية، يتقبلونها، وتخشع قلوبهم لها، ويتعظون بمحتواها، ويسارعون إلى الاحتكام

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٢٨)، وانظر: إغاثة اللهفان: (٢/ ٩٣٢ – ٩٣٣).

لما تشتمل عليه من شرائع الله سبحانه، إجلالًا له، وخوفًا من عقابه تبارك وتعالى.[1]

قال الرازي: (لما كان المؤمن هو المنتفع به حسن تخصيصه).[2]

وقال أبو حيان: (خص المؤمنين لأنه لا ينتفع بالوعظ إلا المؤمن، إذ نور الإيمان يرشده إلى القبول).[3]

ذلك أن المؤمنين ذوي القلوب الحية، الوجلة المنيبة، هم الذين تجدي فيهم أساليب التذكير، وتؤثر فيهم أدواته ووسائله، كما قال جل وعلا مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وما تضمنته هذه الآية من تخصيص المؤمنين بالتذكير هو باعتبار أنهم المنتفعون بالذكرى، القابلون لها، المستفيدون منها، الذين تزيد بالموعظة بصيرتهم، ويقوى بالتذكير يقينهم.[4]

قال ابن كثير: (أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة).[5]

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٢٨٢، ٤/ ٣٧٩)، تفسير المنار: (٢/ ٤٠٤ – ٤٠٥)، تفسير السعدي: (٥/ ٢٦١)، في ظلال القرآن: (١/ ٢٤٧، ٦/ ٣٦٠١).

(٢) تفسير الفخر الرازي: (٦/ ١٢٣)، وانظر: تفسير أبي السعود: (٨/ ٢٦١)، روح المعاني: (٢٨/ ١٣٥).

(٣) تفسير البحر المحيط: (٢/ ٢١١)، وانظر: تفسير القرطبي: (١٨/ ١٠٥)، تفسير البيضاوي: (١/ ١٢٤، ٢/ ٥٠٢)، تفسير النسفي: (١/ ١٥١، ٣/ ٥٤٣).

(٤) انظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ٣٧).

(٥) تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٣٨).

ويقول السعدي: (أخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان الله، يوجب أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعها).[1]

ولا يتعارض ذلك مع كون الرسول ﷺ مكلّفًا في الأصل بالتذكير العام، المتمثل في تبليغ الرسالة إلى الناس جميعًا، والذي تضمنه آيات كثيرة من الكتاب العزيز، إذ التذكير المراد هنا هو التذكير الخاص، الذي تتحقق فيه الفائدة، وتتأكد الثمرة.[2]

ولا يتعارض ذلك أيضًا مع احتمال تأثر الكافر بالموعظة فيؤمن، وتذكره بالتذكير فيهتدي.[3]

يقول ابن تيمية: (حيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به، وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا).[4]

وضمن هذا التذكير الخاص يخبر الله تعالى في أكثر من موضع أن الذي يقبل التذكير، ويستجيب للوعظ، وينتفع بالتبليغ، هو من غمرت قلبه

---

(١) تفسير السعدي: (٥/ ١٠٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٥٧، ١٦٩)، إغاثة اللهفان: (٢/ ٨٩٥ – ٨٩٧).

(٣) انظر: تفسير ابن عاشور: (٢٧/ ٤٤).

(٤) مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٥٦)، وانظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: (ص: ٢٤٩، ٢٧٣).

خشية الله سبحانه، واليقين بلقائه، والخوف من عذابه.

قال تعالى: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾ [طه: ٢ - ٣].

(أي ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة، أي لأجل التذكرة لمن يخشى الله ويخاف عذابه، والتذكرة الموعظة التي تلين لها القلوب فتمتثل أمر الله وتجتنب نهيه، وخص بالتذكرة من يخشى دون غيرهم لأنهم هم المنتفعون بها).[1]

وقال سبحانه: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠].

في هذه الآية الكريمة دلالة على أن الخشية مستلزمة للتذكر والاتعاظ.[2]

عن قتادة في هذه الآية قال: (والله ما خشي الله عبد قط إلا ذكره).[3]

---

(١) أضواء البيان: (٤/ ٤٠١)، وانظر: تفسير الفخر الرازي: (٢٢/ ٤)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٤)، تفسير السعدي: (٣/ ٢٢٣).

(٢) ولا يعني ذلك أن التذكر لا يكون سببًا للخشية، فقد يتذكر الإنسان، فيثمر ذلك التذكر خشية لله تعالى، ولكن ذلك ليس على إطلاقه، إذ قد يتذكر المرء دون أن يوجد ذلك في قلبه خشية، وذلك لعدم انتفاء الموانع، وعلى هذا فإن التذكر والخشية كل منهما قد يكون سببًا للآخر، لكن الخشية مستلزمة للتذكر دون العكس، والعلم عند الله تعالى. انظر: مجموع الفتاوى: (١٦/ ١٧٣ -١٧٤، ١٧٧، ١٨٢).

(٣) تفسير الطبري: (٣٠/ ١٥٥)، تفسير ابن أبي حاتم: (١٠/ ٣٤١٧)، الدر المنثور: (٨/ ٤٨٤).

يقول أبو حيان في تفسير الآية: (أي لا يتذكر بذكراك إلا من يخاف، فإن الخوف حامل على النظر في الذي ينجيه مما يخافه، فإذا نظر أداه النظر والتذكر إلى الحق، وهؤلاء هم العلماء والمؤمنون، كل على قدر ما وفق له).[1]

وهذا المعنى هو المفهوم أيضًا من مثل قول الله تعالى مخاطبًا رسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥].

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٥].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [فاطر: ١٨].

ففي هذه الآيات تخصيص لمن ينفعه الإنذار ويتأثر به.[2]

قال ابن الجوزي: (المعنى إنما تنفع بإنذارك أهل الخشية، فكأنك تنذرهم دون غيرهم لمكان اختصاصهم بالانتفاع).[3]

وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم يبين الله سبحانه أن المتصفين بالإنابة والخشية ونحوهما يتأثرون بالدلائل ويتعظون بالآيات الكونية والقرآنية.

---

(١) تفسير البحر المحيط: (٨/ ٤٥٩)، وانظر: تفسير القرطبي: (٢٠/ ١٥)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٠٠)، نظم الدرر: (٨/ ٣٩٨)، قوت القلوب: (١/ ٤٥٥) إحياء علوم الدين: (٤/ ٢١٣)، في ظلال القرآن: (٦/ ٣٨٩٣).

(٢) انظر: تفسير ابن عطية: (٤/ ٤٤٨)، المجيد في إعجاز القرآن المجيد: (ص: ٩٦) نظم الدرر: (٦/ ٢١٥، ٨/ ٣٢١).

(٣) زاد المسير: (٦/ ٢٥١)، وانظر: (٦/ ٢٦٤، ٨/ ١٧٨)، تفسير الطبري: (٢٢/ ١٢٧ - ١٢٨)، معاني القرآن للزجاج: (٤/ ٢٦٧)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٩٨)، تفسير الواحدي: (٢/ ٨٩٧)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٤٣٥)، تفسير الفخر الرازي: (٣١/ ٥٣)، تفسير القرطبي: (١٤/ ٢١٦، ١٩/ ١٣٦)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٣١).

يقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦ - ٨].

فهذه الآيات تتضمن جملة من دلائل قدرة الله جل وعلا ووحدانيته، وفي خاتمتها بيان بأن في هذه الدلائل عبرة وعظة، وبصيرة وذكرى، يستفيد منها ويتعظ بها أهل الإنابة.

قال ابن كثير في تفسيره للآيات: (أي ومشاهدة خلق السماوات والأرض وما جعل فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أي خاضع خائف وجل رجاع إلى الله ﷻ).[1]

يقول ابن القيم: (فالتبصرة آلة البصر، والتذكرة آلة الذكر، وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة، لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر، فاستدل بها على ما هي آيات له، فزال عنه الإعراض بالإنابة، والعمى بالتبصرة، والغفلة بالتذكرة، لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلة عنها، فترتبت المنازل الثلاثة أحسن ترتيب، ثم إن كلا منهما يمد صاحبه ويقويه ويثمره).[2]

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٢٢)، وانظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ١٥٧)، نظم الدرر: (٧/ ٢٥١)، تفسير السعدي: (٥/ ٨٢)، مدارج السالكين: (١/ ٣٣٤).

(٢) مدارج السالكين: (١/ ٣٣٥).

وفي هذا المعنى أيضًا يقول الله جل وعلا: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سبأ: ٩].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣].

قال ابن القيم: (أخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة).[1]

ذلك أن الإنابة إلى الله تعالى، محبة وإقبالًا، وتوبة وإخلاصًا، تثير في صاحبها معنى التذكر والتيقظ والتفكر، فيتعظ بما يشاهده من الآيات الكونية، ويستدل على عظمة ربه سبحانه، ومن ثمّ تثمر الآيات في حقه تذكرًا حقيقيًا مؤثرًا، وبصيرة نافعة هادية.

قال القرطبي: (خص المنيب بالذكر لأنه المنتفع بالفكرة في حجج الله وآياته).[2]

وقال السعدي: (فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله كان انتفاعه بالآيات أعظم، لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره فصار قريبًا من ربه، لا هم له إلا

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٢٩)، وانظر الفوائد: (ص: ١٦٦ - ١٦٨).

(٢) تفسير القرطبي: (١٤/ ١٧٠)، وانظر: تفسير النسفي: (٣/ ٨٩)، تفسير السعدي: (٤/ ٣٥٣).

الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره نظر فكرة وعبرة، لا نظر غفلة غير نافعة).[1]

وفي شأن انتفاع أهل الخشية بما يرد عليهم من الدلائل يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

والإشارة هنا إلى ما سبق إيراده في السورة الكريمة من أخبار المكذبين في الأمم السابقة ممن أهلكهم الله تعالى، وأخذهم بعقابه سبحانه.

والمعنى أن في تلك القصص عبرة عظيمة، وموعظة بليغة، للمتصفين بخشية الله تعالى، وخوف عذابه في الآخرة، ينشأ عنها في نفوسهم تأثر واعتبار، ويحصل لهم بها دافع الى تقوى الله، وزاجر عن مخالفة أمر الله، حتى لا يتعرضوا لعذابه جل شأنه في الدنيا والآخرة.[2]

ولما ذكر الله تعالى خبر إهلاك المجرمين من قوم لوط عليه السلام قال سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧].

والمراد أن الله تبارك وتعالى جعل قراهم المدمرة عبرة للناس يتعظون

(١) تفسير السعدي: (٤/ ١٨٠)، وانظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٤٩)، تفسير ابن عطية: (٤/ ٥٥٠)، تفسير الفخر الرازي: (٢٧/ ٤٢)، تفسير ابن كثير: (٤/ ٧٣)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٧٠)، في ظلال القرآن: (٥/ ٣٠٧٣)، أضواء البيان: (٧/ ٧٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (١٢/ ١١٤)، تفسير البحر المحيط: (٥/ ٢٦١)، نظم الدرر: (٣/ ٥٧٦)، روح المعاني: (١٢/ ١٣٧ –١٣٨)، في ظلال القرآن: (٤/ ١٩٢٩)، الفوائد: (ص: ١٦٧).

بها[1]، لكن المنتفعين بتلك الآية على الحقيقة، بحيث تتم لهم بها العبرة، وتتأكد العظة، هم ذوو القلوب الرقيقة الوجلة من ربها سبحانه، الخائفة من أليم عذابه.[2]

ومثل هذا المعنى جاء أيضًا في سياق خبر فرعون وإهلاكه، إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦].

والمقصود أن الذي يخشى الله تعالى ويخافه هو الذي ينتفع بذلك الخبر، فيعتبر وينزجر، ويبتعد عن أسباب الهلاك.[3]

يقول صاحب الظلال: (فالذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدرك ما في حادث فرعون من العبرة لسواه، أما الذي لا يعرف قلبه التقوى، فبينه وبين العبرة حاجز، وبينه وبين العظة حجاب).[4]

والقلب يحيا بعبودية الله سبحانه، وكلما تنقل في منازلها نمت حياته، واتسعت دائرة وعيه واتعاظه بما يرد عليه من الدلائل والآيات، وأصبح محلًا قابلا للذكرى، ينتفع بها ويتأثر ويتذكر، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢٧/ ٢).

(٢) انظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٠٥)، تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ٢١٩)، تفسير القرطبي: (١٧/ ٣٣)، تفسير النسفي: (٣/ ٤١٩)، نظم الدرر: (٧/ ٢١٨)، تفسير أبي السعود: (٨/ ١٤١).

(٣) انظر: تفسير الطبري: (٣٠/ ٤٣)، تفسير السعدي: (٥/ ٣٦٨).

(٤) في ظلال القرآن: (٦/ ٣٨١٦).

ذَٰلِكَ [١] لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ [٢] ﴾[ق: ٣٧].

والمراد: (القلب الحي الذي يعقل عن الله) كما قال ابن القيم[٣]، وهو مروي عن قتادة.[٤]

(فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر).[٥]

والمقصود[٦] أن من كان له قلب مشتمل على حياة، فإن له حظًا من التذكر والتأثر بالآيات، والانتفاع بمواعظها، أما المحروم من ذلك فهو ميت القلب، ليس له من الاتعاظ والذكرى نصيب، وهو والعدم سواء.

---

(١) الإشارة إلى ما تقدم في السورة الكريمة من الدلائل والمواعظ. انظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ١٧)، تفسير البيضاوي: (٢/ ٤٢٤)، الفوائد: (ص: ٢٣)، وذكر بعض المفسرين أن الإشارة إلى ما اشتملت عليه الآية السابقة على هذه الآية، من إهلاك المكذبين في الأمم الماضية. انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٧)، تفسير ابن عطية: (٥/ ١٦)، زاد المسير: (٧/ ٢٠٠).

(٢) قال ابن قتيبة في معنى ﴿وَهُوَ شَهِيدٞ﴾: (استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه) تفسير غريب القرآن: (ص: ٤١٩).

(٣) الفوائد: (ص: ٢٣)، وانظر: إغاثة اللهفان: (١/ ٦٥)، فتح الرحمن: (ص: ٣٢٤).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢٦/ ١٧٧).

(٥) الفوائد: (ص: ٢٤).

(٦) انظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ١٦٧)، تفسير الفخر الرازي: (٢٨/ ١٨٢ – ١٨٣)، نظم الدرر: (٧/ ٢٦٤)، مدارج السالكين: (١/ ٣٣٥ – ٣٣٦).